روايات تاريخ الإسلام

العباسة أخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وأسبابها، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء العباسيين، وملابسهم ومواكبهم، وحضارة دولتهم في عصر الرشيد.

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٣٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٣٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٣٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٣٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

أبطال الرواية

* هرون الرشيد	: الخليفة العباسي
* جعفر البرمكي	: وزير الرشيد
* العباسة	: أخت الرشيد
* زبيدة	: زوجة الرشيد
* أبو العتاهية	: شاعر الرشيد
* الأمين	: ابن هرون الرشيد
* عتبة	: جارية العباسة
* الفضل بن الربيع	: وزير الأمين
* مسرور الفرغاني	: الجلاد

مراجع رواية العباسة أخت الرشيد

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ الطبري - الفخري - ابن الأثير - أبي الفداء - المسعودي .
* كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
* تاريخ ابن خلكان
* العقد الفريد
* إعلام الناس للأثليدي
* مروج الذهب للمسعودي
* فوات الوفيات
* نفح الطيب
* ديوان أبي نواس
* سراج الملوك
* الفرج بعد الشدة

-١-

فذلكة تاريخية

كانت عاصمة الإسلام في أيام الخلفاء الراشدين يثرب (المدينة). فلما آلت الخلافة إلى بني أمية اتخذوا دمشق عاصمة لهم، إذ كانت مقر أحزابهم من قبائل العرب. وظلت كذلك حتى ذهبت دولتهم بقيام دولة آل العباس سنة ١٣٢هـ. فجعل هؤلاء عاصمة ملكهم على حدود فارس، حيث بدأ انتشار دعوتهم وقد كانوا قبل ذلك في «الكوفة» ثم انتقلوا إلى «الأنبار» على نهر الفرات، وفيها توفي أبو العباس السفاح أول خلفائهم، وخلفه المنصور أخوه، فقتل أبا مسلم الخراساني - قائد جند الشيعة العباسيين - خشية أن يطمع في الخلافة لنفسه، ثم أصبح يخشى أصحاب أبي مسلم وأشياعه، وبخاصة بعد أن ثار عليه منهم جماعة الراوندية، وكادوا يفتكون به لولا أن دفعهم عنه معن بن زائدة. فرأى المنصور بعد إخماد ثورتهم أن يتحوط لمثلها بتشيد حصن يأوي إليه بأهله ورجال حكومته، فبنى بغداد على هيئة دائرة عرفت باسم مدينة المنصور، وجعل قصره في منتصفها وسماه قصر الذهب، وجعل قصور الأمراء ودور الدولة ومرافقها حوله وبينها الأسواق للبيع والشراء، وبنى حول المدينة ثلاثة أسوار متتالية: يحيط أولها بالأبنية، ووراءه فراغ فيه القلاع ونحوها. ثم يلي ذلك سور ثان متين ووراءه فراغ للمرور، ثم سور ثالث وراءه خندق فيه الماء. وجعل للمدينة أربعة أبواب سماها بأسماء المدن التي تفضي إليها، وهي أبواب: البصرة والكوفة، والشام، وخراسان، وأنشأ فيها أربعة شوارع كبيرة تمتد من الأبواب إلى قلب المدينة.

وظل المنصور مقيما بقصر الذهب، حتى إذا استقرت الأمور وأمن على نفسه، أنشأ لنفسه قصراً آخر خارج المدينة على شاطئ دجلة وسماه قصر الخلد، وظل القصران مقر الخلفاء العباسيين بعد المنصور إلى أيام الرشيد.

على أن مدينة المنصور لم تكف لإقامة الجند ومن إليهم من الصناع

والتجار وغيرهم، وهذا عدا من تقاطروا إليها من المسلمين وغيرهم وابتنوا المنازل خارجها، فرأى المنصور أن يخفف هذا الازدحام فأنشأ قصراً ومسجداً على البر الشرقي في مكان سمي الرصافة، ورغب الناس في البناء حولهما. ثم اتفق أن عاد المهدي ابنه ومعه جيشه قادمين من خراسان فأنزلهم بالرصافة، وأقطعهم القطائع ليبتنوا المنازل ويبقوا بها، ففعلوا. وعرفت المدينة الجديدة أول الأمر باسم «معسكر المهدي». ثم امتدت جنوبا وشمالا، وجاء الخلفاء بعد ذلك فواصلوا التعمير وابتناء القصور شرق دجلة وغربها، ومن بينها «قصر الخلد» و «قصر زبيدة» على الضفة الغربية، و«قصر جعفر البرمكي» ووراءه «قصر الأمين» على الضفة الشرقية، ونشأ حول مدينة المنصور أحياء أخرى على الجانب الغربي، أهمها حي الكرخ، وفيه كان يقيم التجار من الفرس وغيرهم من الأجانب. وحي الحربية في الشمال وأكثر سكانه من العرب، وعرفت المدينة باسم بغداد.

وكانت بغداد في أيام الرشيد مؤلفة من قسمين: أحدهما شرقي والآخر غربي، تصلهما ثلاثة جسور أهمها جسر بغداد الموصل بين مدينة المنصور والرصافة. وكانت تشق أحياءها فروع من نهري دجلة والفرات شيدت على ضفافها القصور والحدائق، ومن تلك الفروع: نهر عيسى، ونهر طابق، ونهر الدجاج، ونهر البزازين، ونهر الصراة، ونهر جعفر.

وكان أهل بغداد في أيام الرشيد في رغد من العيش، فالأموال تنصب في خزائنها بالملايين، والخليفة يغدق العطايا والهبات، والناس يتقاطرون إلى بغداد التماسا للكسب، والارتزاق، وفيهم العربي والفارسي والرومي والتركي والكردي والأرمني والكرجي والسندي والهندي والصيني والزنجي والحبشي، على اختلاف مللهم ونحلهم، فبينهم الصانع والتاجر والنخاس والشاعر والمغني والنحوي والمحدث، وبينهم المسلم والذمي، والحر والمولي والعبد، والغلام والجارية، وكلهم يحومون حول دار الخلافة أو دور الأمراء والوزراء، يبيعونهم السلع أو يتملقونهم بالمديح، ومختلف

ألوان الزلفى، وهؤلاء يبذلون الأموال بسخاء، ويأنفون أن تعد عطاياهم بمئات الدراهم دون الألوف وألوف الألوف.

ولا عجب، فقد كان المال ينصب في خزائنهم انصباب السيل، إذ كانوا يشاطرون أهل الأرض غلاتهم، فضلاً عن الجزية وغنائم الحرب.

-٢-

أبو العتاهية

كان أبو العتاهية من المرتزقين بالشعر على أبواب الخلفاء العباسيين، وأصله من الموالي كأكثر شعراء ذلك العصر، وكان في أول أمره يصنع الجرار ويحملها في قفص ويدور في الكوفة ليبيعها، فلما كان عهد المهدي بن المنصور وفد على بغداد، وما لبث أن ارتقى إلى مجالسة الخليفة الذي فتن به وبشعره فاصطحبه في رحلات الصيد والنزهة وأغدق عليه الجوائز والهبات. ثم كان ذلك شأن أبي العتاهية في خلافة الهادي بن المهدي، فلما مات الهادي بعد قليل آلى أبو العتاهية على نفسه ألا يقول شعراً بعده.

وحدث أن طلب منه الخليفة الجديد هرون الرشيد أن يقول شعرا، ولكنه أبى، فغضب عليه الرشيد وأمر بحبسه في حجرة مساحتها خمسة أشبار في مثلها. فلما طال عليه الحبس صنع أبياتاً يشكو فيها حاله، وبعث بها إلى ابراهيم الموصلي المغني المشهور فغناها أمام الرشيد، فعفا عنه وأمر له بخمسين ألف درهم، ثم قربه إليه فأصبح ذا حظوة كبيرة عنده، لا يكاد يفارقه في حل أو سفر إلا في طريق الحج، وجعل له راتباً سنوياً، غير الجوائز، وغير ما كان يناله من هبات رجال الدولة وجوائزهم وهداياهم. وكان من مشاهير أهل الطمع والبخل، فمضى يجمع المال ويدخره دون أن ينفق منه شيئاً، ولا سيما بعد أن نذر الزهد وعاهد نفسه على ألا ينظم الشعر، فقل تكسبه منه. على أنه أخذ يغتنم الفرص للاكتساب من أبواب أخرى.

وكان أبو العتاهية في خلافة الرشيد حوالي سنة ١٧٨هـ. يحضر مجلس

محمد الأمين بن الرشيد لعله يصيب كسباً أو جائزة، كما أنه كان من المقربين إلى زبيدة أم الأمين وينال من جوائزها الكثير.

وكان الأمين يومئذ في السابعة عشرة من عمره، ميالاً إلى القصف واللهو منذ نعومة أظافره. ولا يخلو مجلسه من المغنين وأهل الخلاعة والجواري والغلمان، وهو أول من استكثر من الغلمان والخدم وتفنن في انتقائهم وتزيينهم، وكذلك كان يشهد مجلس الأمين كثيرون من الشعراء الميالين إلى القصف والمجون، في مقدمتهم الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس.

ولم يكن يشهد مجلس الأمين من أهل الجد والدهاء إلا من كان له هدف سياسي لا يرى الوصول إليه إلا على يد الأمين أو أمه زبيدة.

وكانت أحب نساء الرشيد إليه، ولها كلمة مسموعة عنده لأنها ابنة عمه، في حين أن أكثر نسائه الأخريات من الجواري المعتقات كأكثر من سبقوه من الخلفاء العباسيين، ولهذا لم يكن بينهم خليفة أمه وأبوه هاشميان إلا الأمين. فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة أو الوساطة أو الدسائس يتزلفون إلى زبيدة بالثناء على الأمين ابنها، مع علمهم بأنه ليس أهلا للخلافة، وكانوا في الوقت نفسه يتحاملون على أخيه المأمون لأن أمه جارية فارسية، ويحطون من قدره رغم علمهم بأنه أرقى من الأمين عقلاً وأدباً.

وكان الفضل بن الربيع أكثر الناس سعيا في هذا السبيل، لأن أباه كان وزيرا للمنصور والمهدي، وكان هو يرشح نفسه للوزارة. ولكن هرون الرشيد قرب إليه يحيى بن خالد البرمكي الذي كان من أوائل أنصاره ومؤيديه، وجعل الوزارة لجعفر بن يحيى، فشق ذلك على الفضل بن الربيع، وثارت في نفسه عوامل الحسد، فأخذ لا يدخر وسعا في استنباط الأسباب للانتقام. ولم يجد سبيلا أصلح إلى ذلك من التزلف إلى زبيدة وابنها، ولا سيما أن زبيدة كانت تكره الفرس عامة والبرامكة خاصة، وجعفر

بن يحيى على الأخص، لعلمها بأنه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريتها) بولاية العهد بعد ابنها الأمين. فكانت تقرب كل من ينصر ابنها ويطعن على المأمون، ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الأمين في لهوه ويسايره في قصفه ويتملقه للغرض السالف الذكر.

واتفق أن شهد أبو العتاهية مجلساً للأمين، فأعرب هذا عن رغبته في ابتياع بعض الجواري البيض ممن يحسن الغناء، ليضمهن إلى المغنيات في قصره، وأكثرهن يومئذ من الجواري الصفر، إذ جرت عادة القوم باتخاذ البيض للتسري فقط، ثم رأى ابراهيم الموصلي مغني الرشيد أن يعلم بعضهن الغناء، فازدادت قيمتهن منذ ذلك الحين.

وقال الفضل بن الربيع للأمين: «إن كبير النخاسين أتى ببعض الجواري البيض الحسان، وأنزلهن عند يهودي من تجار الرقيق في بغداد اسمه فنحاس، والناس معجبون بجمالهن الفتان، وحبذ له ابتياع بعضهن، وأن يعهد إلى ابراهيم الموصلي في أن يعلمهن الغناء، فوافق الأمين، وأخذ الفضل على نفسه أن يذهب في الغد إلى دار فنحاس، فينتقي له أحسنهن وأطربهن صوتاً.

فلما سمع أبو العتاهية ذلك تنسم منه ربحا كبيرا بالتواطئ مع فنحاس، لعلمه أن الأمين لا يبالي ما ينفق من المال في هذا السبيل.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فرأى أن يعجل بالذهاب إلى فنحاس ليخبره بعزم الأمين، مدعيا أنه هو الذي حمله على ابتياع الجواري من عنده، ثم يغريه بزيادة الثمن على أن يكون له نصيب معلوم منه لقاء سعيه في الأمر.

***

خرج أبو العتاهية من قصر الأمين في الجانب الشرقي من بغداد، قاصداً إلى دار فنحاس النخاس في الجانب الغربي للمدينة، بقرب دار الرقيق التي أنشأها المنصور لسكنى غلمانه وجواريه. وكان أبو العتاهية أبيض اللون

أسود الشعر نظيف الثياب، له وفرة جعدة وهيئة حسنة، وفيه لباقة وحصافة. وقد ارتدى تلك الليلة ثياباً بسيطة - على غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة أو ابنه، قبل أن يعلن تزهده وتركه نظم الشعر. وربما كان بخله الشديد هو الذي حسن له ارتداء ثياب الفقراء، وعليها عباءة بسيطة، وعلى رأسه عمامة لا تختلف عن عمائم عامة الناس، إلا أنه غير شكل عمامته والتف بعباءته، إخفاء لحقيقة أمره.

ولما وصل إلى شاطئ دجلة، وقف مترددا بين أن يستقل إحدى السفن ليصل بها إلى الجسر ثم يذهب من هناك ماشيا إلى دار الرقيق، وبين أن يأخذ طريقه كله إلى الدار ماشياً فرارا من نفقة الانتقال بالسفينة أو على دابة من دواب الأجرة، وفيما هو كذلك رأى بالقرب من الشاطئ شراعاً منشورا لسفينة تمخر عباب الماء على عجل، فاستبشر وعزم على ركوبها، وكان الليل قد سدل نقابه وسكنت الطبيعة لبعد ذلك المكان من الطرق المزدحمة في الكرخ، ولأن الأبنية القائمة على ضفاف دجلة كلها من القصور الشماء والحدائق الغناء للخليفة والأمراء والوزراء ومن إليهم. وسرعان ما رفع صوته طالباً وقوف السفينة، وأخذ يكرر النداء حتى سمعه ربانها فأجابه بأنه لا يستطيع الوقوف، ولكن أبا العتاهية لم يكف عن النداء والتوسل إلى الرجل لكي يحمله في السفينة، ثم سمع لغطاً صادر منها، ورأى النوتية قد سارعوا إلى إرخاء شراعها لتبطيء في سيرها. ثم رآهم يقتربون بها من مكانه، وشعر من حركاتهم بأنهم لا بد ذاهبون في مهمة عاجلة لا للنزهة في مياه النهر على عادة أهل بغداد، ورجح ذلك عنده أن الليلة لم تكن مقمرة تصلح للنزهة. ثم برز من السفينة رجل حتى وقف على حافتها ونادى: «من أنت؟».

فقال أبو العتاهية: « إني غريب أدركني المساء، وأحب الشخوص إلى حي الحربية، لكني لا أعرف الطريق إليه».

فلما سمع الرجل قوله: « هبط من مكانه على حافة القسطنطينية،

وتوارى في داخلها هنيهة ثم عاد إلى الظهور، وصاح قائلاً : «مرحباً بك تفضل». ثم أدنى السفينة من الشاطئ، وأمر بعض النوتية فألقوا لوحا من الخشب بين السفينة والشاطئ، فسار عليه أبو العتاهية حتى دخل السفينة، فأدرك أن ربانها هو الذي كلمه، فحياه وجلس على دكة بجانب الشراع، ثم أجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية، وهم أربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف. وحانت منه التفاتة إلى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلاً وامرأة بثياب أهل البادية وقد جلسا الأربعاء وأحنيا رأسيهما من النعاس، وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال أهل الحجاز، ورأى بين أيديهما غلامين توسدا ظهر السفينة وجعلا رأسيهما على جانبي حجر المرأة، وهما في ثياب أهل البادية، وقد غطتهما المرأة بمطرف من الخز الموشى، فاستغرب ذلك وجره حب الاطلاع إلى الاستفهام.

ومضت السفينة تشق عباب الماء في جو هادئ لا يسمع فيه صوت لغير مجراها، وما لبثوا أن أطلوا على أبنية بغداد وقد أنيرت القصور على الضفتين، ثم سمعوا أصوات المؤذنين يدعون الناس إلى صلاة العشاء، فانتهز أبو العتاهية هذه الفرصة للتحدث إلى الربان فقال له: « ألديك طنفسة أصلي عليها العشاء؟».

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من الغربيين وغلاميهما في مؤخرة السفينة. فنهض أبو العتاهية للصلاة، وأخذ يتفرس في وجوه الجالسين دون أن يشعرهم بذلك، فلاحظ أن الرجل والمرأة في طور الكهولة، ورجح أن يكونا من الحجاز لخشونة البادية الظاهرة في قيافتهما، ثم رأى وجهي الغلامين في نور القبس فأدرك أنهما أخوان أحدهما في الخامسة من عمره والآخر في نحو الرابعة، وعجب مما لاحظه من بياض لونهما وجمال عيونهما الطويلة الأهداب كأنها مكحولة، واستبعد أن يكونا ابني ذينك البدويين. فلما فرغ من الصلاة دفعه حب الاستطلاع إلى التوجه إلى ربان السفينة وقال له: « يلوح لي أن رفاقنا الليلة

غرباء مثلي. فمن أي البلاد هم؟».

فقال الربان: «ما لك ولهذا السؤال؟».

قال: «لأن الغرباء أنسباء».

فاغتصب الربان ضحكة وقال: «دع عنك الفضول فإني لم أسألك من أين أتيت أو إلى أين تذهب!». ثم تركه وتحول إلى حافة السفينة، وكانت قد جاوزت الجسر الأول، وهو مؤلف من بعض السفن الراسية، تضم السلاسل بعضها إلى بعض، وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب، فأطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الأوسط، ونادرا ما كان يفتح، فقال الربان لأبي العتاهية: «هذا آخر شوطنا فاذهب في سبيلك».

واستاء أبو العتاهية من خشونة الربان، وهم بأن يذكر له اسمه ليحمله على احترامه، بوصفه من الشعراء ذوي النفوذ، ولكنه آثر السكوت وأسرع إلى حافة السفينة ليهم بالنزول، فإذا هو بقرب قصر الخلد بحيث يقيم الرشيد، وقد أضيء القصر بالشموع الملونة، فانبعثت الأنوار من النوافذ على أغراس الحديقة، وتضوعت الروائح الزكية فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الأزهار والرياحين، فتذكر المهمة التي هو بسبيلها وما يتوقعه من الكسب، فأغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان متضاحكاً: «هل ننزل إلى قصر أمير المؤمنين؟».

فأجابه الرجل بقوله: «سننزلك وراءه بالقرب من الجسر». فقال: «حسناً». ثم تأهب للنزول فأصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة. حتى إذا دنت السفينة من الشاطئ الغربي ألقوا له خشبة مشى عليها نحوه وهو يثني على الربان لحسن وفادته، وذهنه مشغول بما شاهده في السفينة، ولكن سروره بما يتوقعه من الكسب ما لبث أن أنساه كل ما عداه!.

وما بلغ الشاطئ حتى سار مهرولاً متجهاً نحو الشمال حتى قطع طريق باب خراسان، ودخل طريق دار الرقيق فرأى الحوانيت قد أغلق أكثرها

والطرق مزدحمة بعابريها. فحدثته نفسه أن يكتري حماراً يركبه ولكن بخله غلب عليه فظل ماشيا يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس، وكانت فخمة فسيحة كأنها قصر أمير أو وزير، ولا عجب فقد كان صاحبها من كبار الأثرياء لمكاسبه من بيع الرقيق للخلفاء وأولادهم وللوزراء والكبراء، وكان كلما جيء له بجارية جميلة أو غلام جميل بعث إلى قصر الخليفة أو أحد الأمراء بمن يغرونه بالشراء، وأكثر هؤلاء الوسطاء يومئذ من بطانة صاحب القصر المترددين إليه من الشعراء والمغنين، ولم تكن هذه أول مرة يقوم فيها أبو العتاهية بهذه المهمة.

فلما أطل أبو العتاهية على دار فنحاس، فطن إلى أن الوقت متأخر، وخشي أن يكون الرجل قد أوى إلى فراشه، ولا سيما أنه لم يكن يميل إلى السماع أو الشراب، وكل همه أن يربح من تجارته، فاعتاد أن يتناول عشاءه عند الغروب، ثم يذهب إلى فراشه منذ وقت العشاء.

ولاحظ أبو العتاهية بعد ذلك أن الدار تبدو فيها الأنوار على غير المعتاد، فانشرح صدره وتفاءل خيراً، ثم مضى في طريقه إليها حتى اقترب من بابها الخارجي، فلمح عنده أشباحاً، وسمع لغطاً. ثم تبين أن هناك دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان، ودهش إذ وجدهم الغرباء الذين تركهم في السفينة، ثم تبادر إلى ذهنه أن الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع، ولكنه استبعد ذلك لأن بداوة الرجل وملامحه لا تدل على أنه من النخاسين تجار الرقيق.

ووقف أبو العتاهية منزوياً بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد، فرأى الرجل بعد أن ترجل حمل أحد الغلامين على كتفه، ثم اقترب من الباب ودقه دقاً عنيفاً، ووقف ينتظر، بينما وقفت المرأة خلفه تحمل الغلام الآخر، ثم سمعها تقول له: «أتظنهم في انتظارنا؟».

فأجابها الرجل بقوله: «لا شك في ذلك، ألا ترين الأنوار في القصر؟ إن مولاتنا لا بد أن تكون في انتظارنا على أحر من الجمر، لأننا أبطأنا عليها!».

وأدرك أبو العتاهية أن لهجتهما غير لهجة أهل مكة أو المدينة، ورجح أن يكونا من أهل بغداد المولدين، فزادت رغبته في الوقوف على حقيقة أمرهما، ثم ما لبث أن رأى نافذة الباب فتحت وأطل منها رأس امرأة في نحو الأربعين من عمرها، بيدها مصباح وقع نوره على وجهها وظهرت ملامحها ظهورا تاماً، فشاهد وجهاً مشرقاً، وعينين سوداوين، حاجبين مقوسين، ومبسماً لطيفاً، وشعراً قد ضفر ضفراً بسيطاً. وحسب أول الأمر أنها من الجواري البيض، ولكنه ما كاد يتفرس في وجهها حتى خفق قلبه، إذ كان يشبه وجهاً عرفه وأحب صاحبته منذ بضعة عشرة سنة ثم حيل بينهما. وفيما هو في ذلك إذ سمعها تقول للطارق الغريب: « الحمد لله إذ وصلتم أخيراً. لماذا أبطأت علينا يا رياش؟».

فرد عليها رياش بقوله: « لقد أبطأنا مرغمين، اسألي برة عما لاقيناه من العوائق أثناء الطريق، فقد ذهبنا أولاً إلى سيدنا أعزه الله فأبقينا عنده إلى المساء. ثم جئنا من هناك تواً إلى هنا. هل مولاتنا هنا يا عتبة؟».

فلما سمع أبو العتاهية اسم المرأة تحقق أنها الجارية التي عرفها في قصر المهدي فأحبها وأكثر من التشبيب بها دون أن يجرؤ على طلبها، ثم احتال في عيد النيروز فأهدى إلى المهدي برنية فيها ثوب مطيب وكتب على حواشيه بيتين يعرض فيهما بطلبها منه، وهما في:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
إني لأيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فأدرك المهدي يومئذ غرضه فهم بدفع عتبة إليه، ولكنها قالت: « يا أمير المؤمنين أتدفعني إلى رجل بائع جرار متكسب بالشعر؟. فأبقاها وأمر له بملء البرنية مالاً، ونهاه عن التشبيب بالجارية فكف عن ذكرها مرغماً، ولما مات المهدي تفرقت جواريه فلم يدر أبو العتاهية مصيرها، إلى أن رآها تلك الليلة، فهاجت ذكرى غرامه القديم.

***

أما عتبة فانحرفت عن النافذة وأمرت البواب أن يفتح الباب فدخل (رياش) يحمل أحد الصبيين على كتفه وقد ألقى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل واستغرق في النوم، وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة. وعتبة تسير بين أيديهما بالمصباح إلى فناء الدار حتى تواروا عن بصر أبي العتاهية. ثم رأى البغلتين في الزقاق عائدتين يسوقهما المكاري، فظل واقفاً يفكر فيما رآه وقد نسي المهمة التي جاء من أجلها وأصبح همه كشف ذلك السر، خصوصاً بعد أن سمعهما يتساءلان عن مولاتهما فقال في نفسه: « من عسى أن تكون تلك السيدة! لعل في الأمر سراً أكتسب من وراء كشفه مالاً». فرأى أن يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ أهل البيت أنه عرف شيئاً من أمر القادمين فتربص حتى سمع صرير الباب وهو يغلق ثم سمع صوت إيصاده، فتقدم نحوه ودقه فسمع رجلاً ينادي: « من؟».

فأعاد القرع ففتحت نافذة الباب وأطل رجل من أنباط السواد اسمه «حيان» كان فنحاس قد جعله بوابا وكان يعرف أبا العتاهية، فلما رآه في تلك الساعة من الليل استغرب قدومه لكنه رحب به وفتح له، فدخل أبو العتاهية يتظاهر بالتعجب قائلاً له: « هل مولاك في البيت يا حيان؟».

قال بلهجة الأنباط وهم يلفظون الحاء هاء والعين همزة والقاف كافاً «نام.. هل تريد الدخول إليه؟».

قال وهو يمشي في فناء الدار: « لم يكن مرادي الدخول عليكم في هذه الساعة لو لم أر البيت مشعشاً بالأنوار على غير المعتاد، لأني لم أعهد المعلم فنحاس يسهر إلى ما بعد العشاء فاستغربت ذلك وأحببت أن أعرف الباعث، ولعله احتفال بزواج أو بقدوم قادم». قال ذلك وهو يمازح البواب لعله يبوح بشيء.

فأجابه: « ليس ثمة ما يكلك (يقلق) الراحة ولكني لا أأرف (أعرف) سبب السهرة.. » ثم غير الحديث فقال: « أتريد أن ترى سيدي الآن».

قال: « نعم، أين هو؟».

فقال: « إني ذاهب لأدأوه (لأدعوه) لك». وأسرع حتى دخل في دهليز اتصل منه بسلم صعد عليه وأبو العتاهية يتبعه لئلا يبقى خارجاً ويحدث ما يمنعه من الصعود، وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئا بالشموع، ولكنه لم ير أحداً من الخدم أو الجواري في طريقه، ولم يسمع صوتاً، فعلم أن القوم يريدون التستر، ثم وصل حيان إلى غرفة تعود أبو العتاهية أن يجالس فنحاس فيها، وكانت مظلمة فأدخل إليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعاه للجلوس، فجلس وذهب النبطي ليدعو مولاه، فمكث أبو العتاهية في انتظاره يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة ويود أن يعرف مقر أولئك الأضياف في القصر، فسمع صوت غلام يضحك فعرف أنهم في غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق إليها.

ثم عاد حيان وهو يقول: « إن سيدي ذهب إلى الفراش، هل أوقظه؟».

فاستبشر أبو العتاهية وقال: « دعه نائماً وسأقابله في الصباح..». قال ذلك وتثاءب وتمطى يتثاءب ويتناعس فقال له البواب: « هل تريد أن تنام أم آتيك بالطعام قبلاً؟».

قال: « لا حاجة بي إلى الطعام ولكنني أشكو التعب فقد كنت في مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب فلما اقتربت من قصركم ورأيت الأنوار فيه دهشت وأتيت أقضي ساعة مع المعلم فنحاس فصرفت الدابة والمكاري ولا أدري أأجد دابة بقرب هذا المكان إذا أحببت الذهاب؟».

فقال حيان: « إذا كان لا بد من ذهابك فإن في الاصطبل دواب كثيرة، ولكني لا أرى حاجة إلى السرعة فاسترح عندنا الليلة وإذا شئت أن تنام أخذتك إلى حجرة فيها فراش».

قال: « ولكني لا أستطيع النوم والأنوار تملأ الدار».

قال: « قد أخذنا في اطفاء الأنوار ولا تلبث أن ترى القصر مظلماً».

قال: « إذا كان الأمر كذلك فإني أنام هنا أولى من أن أذهب ثم أعود غداً، لأني جئت إلى المعلم فنحاس بصفقة فيها كسب كثير بإذن الله».

فازداد البواب رغبة في استبقائه لعلمه أن سيده يتوقع منه ذلك لجشعه مع ما له من الثروة الطائلة. وكان فنحاس يهمه كسب المال ولا يبالي الوسيلة إلى كسبه، فكثيراً ما كان يغضي في سبيل ذلك عن أمور لا يغضي عنها الحر، ورأيه أن الناس على ضلال في أمر دنياهم فهم يتمسكون بأمور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف أو عزة النفس، ويبذلون في سبيلها حياتهم أو يضيعون عليها أموالهم ويفوتهم كسب المال، وما كان الشرف ليشبعهم إذا جاعوا أو يدفئهم إذا بردوا أو يرويهم إذا عطشوا! أما المال فهو السلطان أو هو الصولجان فمن قبض عليه سلطانا تطأطىء له الرؤوس. تلك مبادئ المعلم فنحاس، وكان أبو العتاهية يعرف ذلك فيه وكثيرا ما استعانه على أعمال يكسبان هما الاثنان بقضائها.

فلما رأى البواب في استضافة أبي العتاهية ما يسر مولاه ألح عليه بأن يبيت، ودعاه أن يتبعه، فسارا وأبو العتاهية يتلفت لعله يعرف الغرفة التي تتوق نفسه إلى معرفة سر أهلها. ثم وقف حيان أمام باب فتحه ودعاه إلى الدخول وإذا هناك فراش على طنفسة لا بأس بها فقال أبو العتاهية: « هذا فراش نظيف أكثر الله خيرك». وتناعس فتركه حيان ومضى. وكان أبو العتاهية قد عرف الجهة التي فيها أولئك الناس فلما ذهب حيان وأطفأت الأنوار ونام أهل البيت واستولى السكون على المكان نزع عمامته وعباءته وخرج يتلمس الحائط وركبتاه ترتجفان، حتى أصبح موقع الغرفة قريباً إن لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها.

فلما وصل إلى باب الغرفة سمع أناساً يتكلمون همساً كأنهم يحاذرون أن يسمعهم أحد، فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه إلى الداخل فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة جالسة عل سرير في صدر المكان وفي حجرها ذانك الطفلان وقد ضمتهما إلى صدرها وأخذت تقبلهما وعيناها تتلألآن بالدمع وفي ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن، فلم يدر أتبكي فرحاً أم حزناً، وأطال أبو العتاهية نظره إلى وجه المرأة فإذا هي

بين الخامسة والثلاثين من عمرها وفي وجهها جمال وهيبة لم يجد مثلهما على كثرة من رآهن من الجواري الحسان في دور الخلفاء والأمراء وفي دار جعفر البرمكي أو غيره من البرامكة. رأى فرقاً شاسعاً بين ما يعرف من جمال أولئكن وبين ما في جمال هذه من الهيبة والوقار، ولو تأملت الهيبة لرأيت مصدرها عينان لم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان أشعة براقة. ولم يكن فيهما ذبول كعيون الغواني بل كانتا حادتين تشعران الناظر بأنهما اخترقتا صدره وأصابتا قلبه واستطلعتا خفايا سره. ولم يكن لون المرأة أبيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال هذا اللون بل كانت حنطية مشربه حمرة، ولها مبسم ينطبق بغير كلام يدل على عواطفها كما تدل المرآة على ما يقابلها. ورأى أبو العتاهية على جبينها عصابة مكللة بالجواهر، فدهش لهذه العصابة لأنه لم يكن رأى مثلها من قبل وأول من اتخذ العصابة المكللة بالجواهر عليه بنت المهدي (أخت الرشيد) فعلت ذلك إذ كان في جبينها فضل سعة شوه جمالها فأحدثت العصائب لتستر ذلك العيب فكان من أجمل ما اخترع.

وكانت قد صففت شعرها تصفيفا على شكل جمة تعرف بالجمة السكينية نسبة إلى سكينة بنت الحسين لأنها أول من صففها. ورأى أبو العتاهية في مقدم تلك الجمة طره مرصعة بالماس على شكل طائر عيناه من الزمرد وفي أجنحته فصوص من الياقوت الأحمر مرتبة بين فصوص الماس ترتيباً عجيباً، وقد اشترك تلألؤها بأشعة النور حتى توهم أبو العتاهية أن الغرفة مضيئة من نور الطرة لا من الشموع، وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب. وفي أذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بحجم بيضة الحمامة، وفي عنقها عقد من الجوهر.

وأما ثوبها فمن أثمن المنسوجات غاية في البساطة، لونه سماوي وعلى حواشيه وشى دقيق، فذهل أبو العتاهية لمنظر تلك السيدة وقال في نفسه: «لا شك أن هذه الحورية من أهل بيت الرشيد ولا بد لها من شأن إذا أطلعت

عليه ابتززت الأموال».

ونظر في جوانب الغرفة فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب أهل الحجاز وقد قعدا على الأرض باحترام وتهيب، وكان الرجل كهلا قد وخطه الشيب، وتفرس أبو العتاهية في وجهه فلم ير فيه ملامح أهل البادية فعلم أنه تخفى بذلك اللباس لغرض ما، وأما المرأة فلما رأى وجهها على النور تبين أنها من الجواري وقد كبرت سنها - ولفتت صاحبته عتبة انتباهه فقد كانت جالسة بين يدي السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها. وتأمل أبو العتاهية في عتبة فرأى الجمال لا يزال في وجهها وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمنة وبضاضة. وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة علقت في طرف كل منها قطعة من النقود أو الحلى، وفي عنقها عقد ثمين وفي يديها الأساور والدمالج وعليها ثوب أحمر مشجر بعروق خضراء.

فدهش أبو العتاهية من هذه المناظر واصطكت ركبتاه من التأثر وأتعبه الانحناء لأنه لم يكن يستطيع النظر من الثقب إلا إذا انحنى. على أنه صبر يتنصت لما قد يدور من الحديث، وأول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله إلى الباب عبارة عرف من غنتها أنها لصاحبته عتبة وهي قولها: « لا بأس عليك يا مولاتي. لماذا تبكين؟».

فرفعت السيدة رأسها إلى عتبة وضمت الطفلين إلى صدرها وهي تقول وصوتها مختنق من البكاء: « قلبي يحدثني يا عتبة أنها آخر مرة آراهما فيها».

فصاحت: « معاذ الله يا مولاتي بل أرجو أن تريهما مرارا في كل عام كما كنت تفعلين اليوم. وهذا رياش حفظه الله لا يدخر وسعا في القدوم إلينا كلما أمرت.. وعسى أن يقضي الله باطلاق حريتك فيكونان معك في كل حين».

فتنهدت السيدة وقالت: « آه يا عتبة إنك ترجين محالاً.. فإن غريمنا ظالم مستبد صاحب سلطان مطلق وقد انغمس في ملذاته، وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه وأصبح لا يبالي سواه هلك عطشاً أو مات جوعاً أو ذاب لوعة.

إنه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة وإنما تهمه ملذاته. .». قالت ذلك وهي تخرج من كمها منديلاً من الحرير مزركشاً بالقصب مسحت دموعها به.

فقالت عتبة: « تلك حال الرجال كلهم يا مولاتي فإنهم أصحاب السيادة وقد فضلوا أنفسهم على المرأة فحللوا لأنفسهم ما حرموها منه وتمتعوا بما حظروه عليها. يتزوج الرجل عدة نساء ويقتني الجواري والسراري ويمنع المرأة من أن تتزوج برجل تحبه ويحبها. ولكن. .».

فقطعت السيدة كلام الجارية وقالت: « ليس بين الرجال من فعل كأخي ولا بين النساء من أصيب بمصابي. . زوجني برجل هو جمعني به وحبيه إلي وعقد له علي، ثم حرم علينا ثمار العقد، مما أحله الله لأحقر خلقه. وهو يخطر في قصره وحوله مئات الجواري الروميات والسمر والسود».

ولما بلغت إلى هنا غصت بريقها وشرقت بدموعها، وكان الغلامان في حجرها وكبيرهما ينظر في وجهها مستغرباً وهي تتكلم. فلما رآها تبكي شاركها في البكاء. ولما رآه أخوه يبكي بكى أيضاً، وبكت عتبة، وعلا صوت البكاء في الغرفة.

وتجلدت عتبة وأخذت تخفف عن مولاتها فقالت: « لا يخفى عليك يا مولاتي إن أخاك أمير المؤمنين حرسه الله منعك من الزواج بالوزير لأنه غير كفء فإنك بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبي، والوزير مولى فارسي كسائر الموالي فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج هاشمياً، وأمير المؤمنين يحبك وإنما منعك من الزواج تنزيها لمقامك».

فأجابتها: « ويلك يا عتبة. . ألا تزالين مخدوعة بهذه الخزعبلات. . إذا كان أخي يعد الزواج بالموالي أو العبيد حطة بمقام الخلافة فما باله يتزوج الجواري ويستولدهن ويولي أولادهن العهد، أما أن الجارية أرفع مقاماً من المولى ناهيك بمن في قصوره من الجواري مما ملكت يداه. . فلماذا لا يقتصر على ابنة عمه زبيدة وهو يظهر لها الحب والتبجلة. ولكنه أطاع شهواته ولم يجد من يصده فانغمس وأترف ورآني ضعيفة فاستبد بي.

جمعني بشاب لا أعرف في أبناء عمي من بني هاشم خيراً منه، وزوجني به ثم منعني منه وأصبحنا نعد التقرب خيانة ونخاف أن يطلع أحد على سرنا كأننا من أهل الفجور نعوذ بالله. . ولكن من يستطيع أن يقول ذلك لأخي وينجو من الموت؟!».

-٣-

العباسة عروس الرواية

علم أبو العتاهية من الحديث أن السيدة هي العباسة أخت الرشيد، وكان يعلم أن الرشيد عقد عليها لجعفر بن يحيى البرمكي وزيره ليحل له النظر إليها لأن الرشيد كان يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبر على بعده، وكان يحب أخته العباسة أيضاً ويحب أن يراها كثيراً، فعقد لجعفر عليها حتى يحل له أن يراها في مجلسهم، ولخوفه مما وراء ذلك. وعلم أبو العتاهية مما رآه وسمعه أن جعفر دخل بالعباسة سراً وأن الغلامين هما ثمرة ذلك الزواج، وأنها تخاف أن يعرف أخوها الرشيد ذلك فيقتلها. فخفق قلب أبو العتاهية فرحاً بهذا الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير، فإن أعداء جعفر يبتاعون مثل هذه الوشاية بألوف الدنانير لا سيما الفضل بن الربيع، ودمعت عينا أبي العتاهية ليس تأثرا لحال العباسة ولكن من حملقته من ذلك الثقب. وأحس أن العطاس يكاد يدهمه فخاف أن يعطس فيفتضح أمره، وجعل يفرك أرنبة أنفه حتى أذهب العطاس فعاد إلى التلصص والنظر فسمع عتبة تخفف عن العباسة وتقول لها: «دعينا من البكاء فقد تكبدت المشقة وتعرضت للخطر لتشاهدي ولديك فقبليهما وتزودي منهما ودعي المقادير تجري بما يشاء الله».

فأطاعتها والغلامان في حجرها شاخصان إليها وقد استغربا ما رأياه منها، فلما رأتهما ينظران إليها والدمع في عيونهما لم تتمالك عن الابتسام وعيناها تقطران دمعا وتناولت الكبير وضمته وجعلت تقبله في خديه وفي

عينيه وفي جبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه وهو مغرق في الضحك يحسبها تلاعبه أو تداعبه. وأنى له أن يشعر بما يجول في خاطرها أو بما يهيج عواطفها وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا إلا الأكل والشرب ولم يكابد من حوادث الزمان إلا اللعب بالرمل أو بالكعاب. وما مطامع الدنيا عنده إلا ثدي أمه. فإذا فطم كان همه بطنه ومطمعه عجلة يديرها أو كرة يلاعبها وتسليته حصى يبني بها بيتا أو طينا يصطنع منه تمثالاً. يرى المائت فيظنه نائماً ويلقى الثعبان فيحسبه حبلاً. لا يخاف الهجر ولا يحاذر الفقر ولا يعرف نوائب الدهر. ربما أحب هرة تلعب بين يديه أكثر مما يحب والديه لأنه يحب كل ما تنتهي راحته إليه. ولو عقل لقاس تعقله بطير صاحبه بضعة أيام ثم طار منه بتعلق الأم بابنها وهو حشاشة قلبها وبضعة من نفسها وحبيب قلبها. لا لوم على الأطفال إذا لم يدركوا حب الوالدين لهم لأنه سر مغلق على غيرهما. ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهم حنان الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلك الحنان حتى يولد لهم الأولاد، فيذوقوا مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجهه صحة ويسيل كلامه لطفا وتزيده اللكنة عذوبة، وبين سهر على طفل يقاسي الألم ويعجزه التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه أو يكتمه خوفاً من مرارة الدواء. والوالدان بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان أنفاسه وقد غلت أيديهما وتفطر قلباهما وضاقت الدنيا عليهما. ولا سيما الأم فإنها ألصق بولدها في طفولته، وإذا مشى قلبها معه، أو ضحك رقصت جوارحها له وإذا تكلم كانت كلها آذانا لعله يلتمس منها شيئاً يسره ويسرها أن يناله ولو كان في نيله شقاؤها. وهي تزداد حباً له كلما تعذبت في تربيته ويزداد حنانها عليه بازدياد شقائها به. فمن أين لغير الأبوين أن يفقهوا ذلك أو يدركوا حنو الوالدة - حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا أولادا لا يستطيعون إدراك حب الوالدة لولدها إلا تخيلاً، وأين الحقيقة من الخيال؟.

فأخذت العباسة تستنشق ريح ولديها وهي تجهش بالبكاء وقلبها يتردد

بين اليأس والرجاء، والغلامان يضحكان والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهيهما وسلامة النية وطهارة القلب باديتان في كل حركة من حركاتهما. وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الملائكة بالأطفال، فإنهم مثال الطهارة والقداسة وصدق اللهجة، فهم لا يخفون عواطفهم، ولا يكظمون ما في نفوسهم، ولذلك كانت المشاعر الطبيعية ظاهرة فيهم وأقواها حب الذات، فالطفل يحب ذاته ويحب كل ما يرى فيه نفعاً لنفسه، وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي من اظهاره - ولذلك لما رأى أحد الأخوين أمه تلاعب أخاه وتقبله ألقي نفسه على صدرها كأنه يزاحمه على ما يكنه ذلك الصدر، فقبلته العباسة ثم التفتت إلى عتبة وعيناها تتكلمان عنها وقالت: « ما ألطف هذين الولدين وما ألطف اسميهما (الحسن والحسين) هل يسمح الله أن أعيش معهما ولو في كوخ حقير أو خيمة بالبادية».

فابتدرتها عتبة قائلة: « إن الله على كل شيء قدير.. ألا ترين أن قد آن لك أن تعودي إلى قصرك فإن الفجر أصبح قريباً ونخاف أن يشعر أحد بنا فنقع فيما نحذره».

قالت: « يعز علي الذهاب يا عتبة ولكن لا بد منه.. أين النقود التي أتيت بها؟. ادفعيها إلى رياش..».

فتناولت بدرة ودفعتها إليه فتناولها وأثنى على العباسة ونهض فقبل يدها وكذلك فعلت برة، فقالت لهما العباسة: « لا حاجة بي إلى أن أوصيكما بالحسن والحسين فإنهما فلذة كبدي».

وكان الحسن أكبرهما سناً فلما علم عزم أمه على الفراق ورآها وقفت ترامي عليها وأمسك بيدها وأسند خده على راحتها وقال وصوته مختنق: «تعالي معنا يا ماما.. وقولي لأبي يجيء معنا أيضاً..».

فنظرت العباسة إلى الغلام فرأته يرنو إليها وفي عينيه دمعتان تترددان بين المآقي وشفتاه ترتجفان لا تطاوعانه على الكلام، وكان يحاول التلفظ ويحاذر أن يسبقه البكاء وقد غص بريقه. فلا تسل عن قلب العباسة عند

سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر وقد كانت من أول اجتماعها بابنيها تتخوف من ساعة فراقهما وتغالب نفسها وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها. فلما رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر أباه ويطالبها به غلبتها عواطفتها وأحست بما تكابده من ألم الفراق وثقل المحاذرة والتخوف فلم تتمالك أن قعدت بغتة وضمت الغلام إلى صدرها وقال: « صدقت يا ولداه». وأغرقت في البكاء حتى أغمي عليها.

وكانت عتبة واقفة تراعي حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها وقد همت بأن تخفف عنها فلما رأتها قعدت بغتة خافت عليها من الإغماء لأنها شاهدت إغماءها على هذه الصورة غير مرة فلما سمعتها تصيح وتبكي وتحققت أنها سيغمى عليها فتناولت إحدى الشموع من المشمعة وهرعت إلى الباب وفتحته لتستدعي خادماً يأتيها بالماء لترش سيدتها. وكان أبو العتاهية لا يزال واقفاً ينظر من ثقب الباب، فلما أسرعت عتبة إليه وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها أخذها وارتبك في أمره وكاد الدم يجمد في عروقه فوقف كأنه صنم من الأصنام يحدق بعينين جامدتين كأنه لا يرى شيئاً. أما عتبة فظنته لأول وهلة خادماً من خدم المنزل فصاحت به: « هات الماء». ثم رأت من لباسه أنه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة. أما هو فلم يطل جموده إلا لحظة ثم انتبه وأخذ يجري فراراً. فتذكرت أنها تعرفه ثم فطنت إلى أنه أبو العتاهية فأشكل عليها أمره. على أن خوفها على سيدتها من الإغماء غلب عليها فأسرعت إلى غرفة الخدم وصاحت بهم فنهض بعضهم وجاءوها بالماء فعادت إلى سيدتها ورشتها به فأفاقت. وأخذت تخفف عنها وذهنها مشتغل بأبي العتاهية وأدركت من ارتباكه عند رؤيتها أنه كان يسترق السمع والبصر وقد يكون سمع شيئاً من أحاديثهم وهو لا يؤمن على السر، وفي اطلاعه على أمر هذين الغلامين خطر على العباسة، فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان في وجهها وهي تتردد بين أن تطلع العباسة على هذا الأمر أو تكتمه

عنها ولكنها آثرت كتمانه لئلا تزيد في أحزانها ومخاوفها وعزمت على تدبير وسيلة تمنع أبا العتاهية من إفشاء هذا السر. فلما صح عزمها ذهب قلقها وعادت إلى التهوين على العباسة والتخفيف عنها وأشارت إلى رياش أن يذهب مع برة بالغلامين فأطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما، وكانا قد اعتادا لهوه ومجونه وظلت عتبة بجانب العباسة تحدثها وهذه تتنهد وأثر الإغماء باد عليها. فلما خرج رياش وبرة أمرت الخادم الذي كان قد جاءها بالماء أن يستقدم حيان فذهب وعاد حيان معه وآثار النعاس ظاهرة في عينيه إذ أيقظوه فجأة فوقف بين يدي عتبة فقالت له: « إن مولاتي تريدك أن ترسل مع هذين من يكتري مركبا يركبانه إلى دجلة».

فخرج ولحقت به ودعته على انفراد وأبلغته ثناء مولاتها عليه ودفعت إليه بصرة هدية من مولاتها ثم أعقبتها بأخرى لمولاه المعلم فنحاس.

فأثنى حيان على كرمها وجودها فقطعت كلامه قائلة: « هل أبو العتاهية هنا منذ زمن طويل؟». وقد ذكرت اسمه ليعلم حيان أنها واثقة من وجوده هناك.

فقال: « بل جاءنا الليلة».

قالت: « اصدقني. . ».

قال: « صدقتك. فإنه جاء لبعض شأنه مع المعلم فنحاس الليلة وكان المعلم قد ذهب إلى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات». قال ذلك غير متردد أو وجل فتحققت أنه صادق فيما يقول فقالت: « أطلب إليك قضاء حاجة لا تكلفك تعبا فهل تقضيها لي؟».

قال: « سمعاً وطاعة لك».

قالت: « أريد أن تستبقي هذا الشاعر عندكم، فلا يخرج قبل أن أعود في صباح الغد».

فاستغرب طلبها وقال: « أخاف ألا يقبل مولاي بقاءه».

قالت: « قل له إن أمير المؤمنين يريد استبقاءه لأمر يهمه».

فلما سمع ذكر أمير المؤمنين خفق قلبه لأنه لم يكن يعلم من أمر العباسة سوى أنها امرأة من سراري بغداد استأجرت الغرفة في تلك الليلة لأمر خاص: « سأقول ذلك لمولاتي».

قالت: « احذر أن تستخف بقولي».

قال: « سمعاً وطاعة».

فقالت: « فاعدد لنا البغال لنرجع». وأسرعت إلى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد استبطأتها فسألتها عن سبب تغيبها، فذكرت أنها ذهبت لتأمر حيان بأن يعد البغال، فصدقتها ثم خرجتا ومضتا.

أما حيان فأخذ يفكر فيما سمعه من عتبة عن الاحتفاظ بأبي العتاهية فلم يفهم لذلك سببا معقولا وقد خوفه ذكرها أمير المؤمنين فعزم على إبلاغ سيده ما سمعه منها في الصباح ليلقي تبعة ذلك على عاتقه. وكان قد مضى معظم الليل فمضى إلى فراشه.

أما أبو العتاهية فإنه فر من وجه عتبة وقد ذعر وكاد الدم يجمد في عروقه من تلك المفاجأة، لكنه ظنها لم تعرفه. فوصل إلى فراشه وركبتاه تصطكان، فاستلقى بعد أن أغلق الباب ولبث صامتاً يتوقع أن يسمع صوتاً أو يشعر بوقع أقدام أو حركة تدله على ما كان من تأثير المفاجأة فمضت برهة وهو يحبس أنفاسه مبالغة في الاصغاء ويصيخ بسمعه والعتمة قد تكاثفت وشبح عتبة نصب عينيه. وأخذ يفكر فيما عسى أن تكون العاقبة فخاف وغلب عليه الحذر. وكانت الحجرة التي بات فيها تشرف عى الزقاق المؤدي إلى باب الدار من نافذة مقفلة فما لبث أن سمع قرقعة اللجم وجلبة السياس فنهض ونظر من شق النافذة فرأى رياشا وبرة قد ركبا ومعهما الغلامان فتربص ليرى ما يكون من أمر العباسة وجاريتها فسمع حركة السياس في إعداد الركائب ورآهما وقد خرجتا على بغلين وفي ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه

العمامة. فتحقق من ذهابهما فاطمأن قلبه وعاد إلى فراشه مفكرا فيما جاء من أجله إلى فنحاس فعزم على أن يبكر في الصباح إليه ويفاتحه بالأمر ثم ينصرف إلى بيت الأمين أو إلى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لانتقاء الجواري.

***

نام أبو العتاهية وهو يهجس ولم يطل نومه حتى سمع جلبة في الزقاق يتخللها قرقعة اللجم وصهيل الخيل فذعر ووثب من فراشه إلى النافذة ففتحها فرأى الصباح قد لاح. وأطل فرأى عدة رجال على أفراس جياد عرف من سروجها وما عليها من أكسية الديباج أنها من اصطبل الأمين فخفق قلبه وتفرس في الراكبين فرأى بينهم الفضل بن الربيع وحوله جماعة من حاشية الأمين ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول: «أرى القوم نياماً».

فأجابه أحد الفرسان: «وماذا لو أيقظتهم، إن المعلم فنحاس يؤثر المال على النوم».

فضحك الفضل وقال: «إلا إذا ظننا آتين لأخذ ماله أو حياته»..

ثم تقدم أحد الخدم وقرع الباب وأخذ الفرسان في النزول عن جيادهم وأول من نزل الفضل وكان طويل القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية أسمر اللون تخالطه صفرة ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه ما يدعونه المزاج الصفراوي فساعده على كتمان عواطفه والتظاهر بالصداقة لأعدائه والسعي في الوشاية بهم وأهل هذا المزاج من أقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاءون من الألوان وكتمان ما تكنه ضمائرهم، فهم لذلك يصبرون على الضيم وينتهزون الفرص لنيل مآربهم فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل كما يفعل بأهل المزاج العصبي أو الدموي الذين إذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره.

فلما رأى أبو العتاهية الفضل قال في نفسه: « لا بد من أمر بعثه على التعجل في المجيء ولا بد أن يكون الأمين قد حمله على ذلك تشوقاً لما وعد به نفسه من الجواري لاهتمامه بأسباب القصف والترف ورغبته في الغناء. وخاف أبو العتاهية أن يحول قدوم الفضل في تلك الساعة دون أن ما يتوقعه من الكسب وهو لم يتحدث إلى فنحاس بعد فتحول عن النافذة يقصد إلى غرفة فنحاس فرأى أهل الدار في هرج يتقدمهم حيان مسرعاً إلى الدهليز لاستقبال القادمين. وكان البواب قد أنبأه بقدومهم فلم ينتبه لأبي العتاهية. أما هذا فظل سائرا إلى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلاً فناداه قائلاً: «ألا يزال المعلم فنحاس نائماً؟».

وسمع وقع خطواته داخل الغرفة ثم فتح الباب وأطل منه المعلم فنحاس بلباس النوم وقد نبش شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفيه ولحيته. وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل إلى الطول والاسترسال وقد شطرها شطرين، وأنفه كبير مستدق ذهب طوله باحديدابه. وقد استيقظ بغتة فنهض وقميصه مفتوح من أعلاه فبان أسفل عنقه وأعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر أجعد حتى ظهر كأنه من المتشردين.

فحالما وقع نظره على أبي العتاهية صاح فيه: «ما وراءك يا أبا العتاهية؟».

فدخل أبو العتاهية وأغلق الباب وراءه وقال: « جئتك مساء أمس بمهمة، وكنت قد رقدت فانتظرتك حتى الساعة ولما استبطأتك جئت لايقاظك، فعسى ألا أكون قد أزعجتك».

فقال وهو يصلح لحيته وشاربيه وقميصه: « ليس ثمة ازعاج، قل ما الخبر».

قال: « لا تخف مسألة رابحة.. أوعزت إلى مولانا ولي العهد باقتناء بعض الجواري يبتاعهن منك، وأنت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء وأهل الدولة، فلما قبل جئت أنقل الخبر إليك فلا تضع تعبي».

فقطع فنحاس كلامه قائلاً: « فهمت.. كن براحة بال.. إذا جاء رسوله أضفت نصيبك إلى الثمن بارك الله فيك.. إنك رجل غيور محب.. وإذا شئت جعلت نصيبك من الربح جارية جميلة».

قال: « لا حاجة بي إلى الجواري».

فضحك وأخذ يبحث عن قبائه وجبته وقال: « طيب، فإني أفهم بالإشارة، فافهم أنت. ولا يتم الشرط إلا بعد وقوع البيع».

قال: « سيتم البيع تو الساعة لأن الأمين أرسل الفضل بن الربيع وقد وصل إلى دارك وأظنهم أدخلوه دار الرقيق الآن، واحذر أن تطلع أحدا على ما دار بيننا..».

فوضع فنحاس يده على فم أبي العتاهية، وقال: « لله ما أصغرك كنت أظنك ذكياً». ثم عاد إلى تسريح شعره واصلاح شأنه فمشط لحيته وفتل شاربيه وشد على خصره منطقة فوق القباء، ولبس الجبة وخرج أبو العتاهية في أثره، وإذا بحيان يسرع نحوهما فلما وقع نظره على أبي العتاهية أجفل وتذكر وصية عتبة، فأراد أن يوقف مولاه ليخبره عن القادمين ويبلغه الوصية فابتدره فنحاس قائلاً: « فهمت أنا ذاهب إليهم أين هم؟». وقد حسبه قادماً ليخبره بمجيء الفضل. فلم يجسر حيان أن يخبره بغرضه أمام أبي العتاهية فقال: « جاء مولانا الفضل بن الربيع فأدخلناه دار الرقيق وهو في انتظارك هناك» وأجل الخبر الآخر إلى فرصة أخرى.

أما أبو العتاهية فنظر إلى حيان وتبسم وهو لا يعلم ما في ضميره فحياه حيان متأدباً ومشى في أثره.

***

مشى المعلم فنحاس يجر أذيال جبته حتى خرج من دهليز داره إلى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق. فأشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة. وكان الفناء مزدحماً بالخدم من رجال الفضل وأنظارهم متجهة إلى الغرف كأنهم يشاهدون فيها شيئاً

غريباً. وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس وفيها الوسائد مصفوفة بين الجدران المزخرفة بالنقوش الملونة، وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته ولبث في انتظار المعلم فنحاس، الذي أقبل على الغرفة فرأى الفضل في صدرها جالساً الأربعاء وقد أسند مرفقيه على ركبتيه فهرع إليه وأكب على يده ليقبلها ويدعو له فضحك له الفضل ومنحه يده وقال: « أظننا أقلقناك بهذه الزيارة».

قال: « كلا يا مولاي فإن زيارتكم شرف كبير».

فأشار إليه أن يجلس، وقال له: « إن مولانا ولي العهد رغب إلينا أن نأتيه ببعض الجواري الحسان ممن يحسن الغناء، فأحببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج على ما حوته من الجواري والغلمان، فقد قيل لنا أنها تحوي من كل معنى طربا».

فقال في خضوع وأدب: « لقد تجشتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتموني شرفاً لا أستحقه، وكنتم في غنى عن ذلك بإشارة منكم فننقل دار الرقيق بجملتها إلى ما بين يدي مولانا حفظه الله ولكن إقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة. أما إذا شئتم أن تشاهدوا الرقيق في هذه الدار فإنكم ترون فيها مالا يجتمع في سواها لأني لم أدخر وسعا في اقتناء أحسن الرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان من المولد في العراق أو الحجاز والمجلوب من أقاصي بلاد الترك والروم وطبرستان وخراسان والسند والمغرب، وفيهم الصقلبي والصقلبية والرومي والرومية والتركي والتركية والفارسي والفارسية والأرمني والأرمنية والسندي والسندية والبربري والبربرية..».

فسأله الفضل: « هل عندك بعض الجواري المغنيات؟».

قال: « كيف لا.. وقد تعلمن الغناء عند مغني مولانا أمير المؤمنين نفسه وحفظن الأشعار المطربة وأتقن الضرب على آلات الطرب وفيهن العوادة والطمبورية حتى صاحبة الدف والمزهر».

فضحك الفضل وقال: « كأني بك تصف جواري أمير المؤمنين . . ولعل المغنيات اللواتي أشرت إليهن من الجواري الصفر والسود ومولانا إنما يريد مغنيات من الجواري البيض».

فقال: « كل ما يطلبه مولانا عندي».

قال: « ولكن أهل بغداد لم يعلموا الجواري البيض الغناء على ما أعلم وجعلوهم للتسري كما لا يخفى عليك ولا أعرف أحداً علم الغناء للبيض إلا إبراهيم الموصلي مغني أمير المؤمنين . . ».

قال: « ألم أقل لمولاي إنه يجد عندي كل ما يطلبه؟».

فتحفز الفضل للقيام فنهض المعلم فنحاس، ونهض سائر الحاشية ومشى هو بين أيديهم حتى خرجوا من الغرفة إلى فناء الدار فتسارع الخدم إلى الإنزواء ووسعوا الطريق للفضل فمشى والمعلم فنحاس بين يديه وفي أثر الفضل رجال حاشيته، حتى إذا قطعوا الفناء وصلوا إلى الغرفة الأولى من جهة اليمين وكان بابها مفتوحاً قليلاً ففتحه فنحاس بيده فرأى الفضل سرباً من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز أكبرهن العاشرة من العمر، لا يكسو أبدانهم إلا ما يستر العورة من الأطمار البالية وخشونة البادية ظاهرة عليهن بإرسال شعورهن على طبيعتها لم يمسها مشط. ورأى جمال البداوة يتجلى في إشراق وجوههن بالبياض المشرب حمرة دليل الصحة والعافية، ناهيك بجمال العيون. وفيهن شقراء الشعر زرقاء العينين وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك. أما هن فذعرن لفتح الباب ولما رأين الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين وظهر الخوف في وجوههن، والحجرة أضيق من أن تتسع لفرارهن فجعلن يستترن ببعضهن وراء البعض وعيونهن شاخصات وأخذ بعضهن في البكاء، واستغثن بلغة لم يفهمها أحد من الوقوف. فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر إلى فنحاس فابتدره هذا قائلا: « لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من بداوة الفطرة فإن معظم اللواتي في قصور الخليفة والأمراء من الجواري الحسان والقيان والمطربات كن في

بادئ الأمر مثل هؤلاء وقد أتيت بكم إلى هذه الحجرة لأريكم حال الجواري عند قدومهن لتعلموا كم نقاسي في تربيتهن حتى تنبغ منهن الجارية التي تباع بألف دينار أو عشرة آلاف أو عشرين ألفا».

فقال الفضل: «حقاً إنه عمل شاق.. هل كانت فريدة ومنه ودينار وأم الخال وغيرهن من الجواري الفاتنات في مثل هذه الخشونة؟».

قال: «نعم أن أكثرهن مجلوب على هذه الحال».

قال: «من أين تأتي بهن؟».

قال: «إن النخاسين يخترقون بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والأخطار ليأتوا بهن، قال: «وكيف يؤتى بهن؟».

قال: «يغزون البعض غزواً والبعض الآخر شراء من الأبوين أو الأقارب بثمن بخس ويبيعونهن لنا بأغلى الأثمان».

فقال الفضل: «أيجوز حرمانهن من ذويهن ليحملن صغيرات على هذه الصورة؟».

فتبسم فنحاس وقال: «إن استرقاقهن من أكبر أسباب سعادتهن لأنهن ينتقلن من خشونة البداوة وشظف العيش إلى المدينة والترف قد يبلغن من رخاء العيش ما لا يبلغه بنات الأمراء، خصوصاً من كانت منهن جميلة الوجه رخيمة الصوت والقليل منهن من ينبغ.. فربما نبغت واحدة من كل خمسين أو ثمانين. فمن وجدنا فيها ذكاء وصوتا رخيما علمناها الغناء وحفظناها الأشعار، ونعلم الباقيات بعض الأعمال البيتية وغيرها على قدر الطاقة.. وسترى فيما تمر به من الغرف أصنافاً من الجواري على اختلاف الطبقات..».

فاستغرب الفضل ما سمعه وأراد الاكتفاء بما رأى فسبقه فنحاس إلى الغرفة التالية وفتحها، وأراد فيها بنيات سود البشرة جعد الشعور فطس الأنوف فعرف الفضل أنهن من بنات الزنج وهن أقرب إلى القذارة والوحشية من أهل الحجرة الأولى. والسواد أقبح الألوان يندر اجتماعه مع الجمال.

ولحظ فنحاس أن الفضل ميال إلى الانتقال من هناك فمشى أمامه يقول: «هؤلاء صغار الزنوج يُحمَلن إلينا النخاسون من أقاصي السودان سبيا واختطافا بلا ثمن فنبتاعهن بثمن بخس وأكثرهن يتعلمن الخدمة ويغلب أن نجعلهن في خدمة الجواري البيض».

وقبل أن يصلوا إلى الحجرة الثالثة قال فنحاس: «وفي هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النخاسون من بادية إفريقية. وأكثر هذا الصنف من الجواري ينقل إلى بغداد بدلا من الجزية كما لا يخفى على مولاي، وفي الغرفة التي تليها جوار صفر من بلاد السند، وفي التي بعدها جوار حمر من بلاد الروم، وفي الغرف الأخرى طبقات من أولئك الجواري، بين سراري ومواشط وحواضن وطباخات وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة. وفي بعض هذه الغرف طبقات من أصناف المماليك البيض والسود، وكلهم قد تدربوا على الأعمال المنزلية بين طاه وخباز وفراش وسائس، وفيهم من أتقن الأدب وحفظ الشعر والعربية ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود وعلى اختلاف الأسنان».

***

رأى الفضل أن أمر التفرج قد يطول فقال: «أرنا أمثلة من أغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل فليس في الوقت متسع لرؤية كل من في هذه الغرف».

فقال: «هل تريد أن أريك الغلمان الصغار من البيض والسود فإنهم في مثل ما رأيته».

قال: «أرنا الجواري الصبيات».

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصل إلى حجرة فتح بابها فإذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر تبدو سذاجتهن، ويلبسن أكسية من الأثواب البسيطة، وشعورهن مرسلة أو مجدولة وفي أذانهن الأقراط وفي أعناقهن عقود من الخرز الملون وفيهن جمال النساء

وحياؤهن. ولما رأين الفضل ورجاله غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف، فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحراً وفي قامتها رشاقة وقد زادتها السذاجة جمالاً وهيبة، فوقعت من نفسه موقعاً حسناً فناداها بالعربية فلم تفهم مراده، ولكنها أدركت أنه يناديها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها وغطته بذراعها فأعجبه ذلك النفور، فقال: « أين أبو العتاهية أو أبو نواس يصف لنا هذا المنظر ببيت من الشعر».

فتذكر فنحاس أبو العتاهية والتفت يتوقع أن يراه إلى جانبه فلم يجده وأوشك أن ينطق باسمه لو لم يتذكر تكتمه فقال: « صدق مولاي فإن هذه الجارية من طبرستان اشتريتها في جملة جوار من نوعها وليس فيهن أجمل منها.. فكيف لو رأيت الجواري المولدات منّ البصريات والكوفيات ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المخصرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحلة وحسن زيهن وزينتهن وفيهن الطويلة البيضاء والسمراء اللسعاء والصفراء والعجزاء، وبينهن من إذا صبت عليها جرة ماء وهي قائمة فلا يصيب فخذيها شيء لعظم عجيزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت طلحة التي كانت إذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان».

فضحك الفضل لمهارة فنحاس في وصف النساء على شيخوخته وقال له: « أراك ماهراً في وصف الحسان يا معلم فنحاس».

فأجابه على الفور ويده على لحيته: « وأين قضيت هذه الشيبة يا مولاي».

فقال الفضل: « اذهب بنا إلى الجواري المولدات».

فتحول إلى الجانب الآخر من الفناء فتبعه الفضل ورجاله وفنحاس يقول: « أظنكم تعبتم من الوقوف فهيا إلى الجواري المغنيات اللواتي حفظن الأشعار وأتقن الضرب على العود وغيره من آلات الطرب» ومشى حتى وصل بهم إلى غرفة فتح بابها ووسع للفضل مدخلها فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفي بعض جوانبها ثلاث من الجواري

البيض جالسات، وقد فاحت رائحة المسك منهن. على إحداهن ملحفة معصفرة فوق غلالة حمراء وعلى رأسها عصابة مزركشة، وقد أرخت تحت العصابة سالفتين علقت في طرف كل سالفة ياقوتة حمراء وأرخت شعرها كأنه الليل وتبخرت بالعود وتعطرت. وكانت مقدمة على صاحبتها لأنها أجمل خلقة، على أن صاحبتيها كانتا في مثل لباسها ولكنها تفضلهما بجمالها ورشاقة قدها وبعينيها السوداوين كأنهما مكحولتان ولونها أبيض فيه صفاء البلور وفي عنقها عقد من العقيق. وكانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة. فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلاً: « قومي يا قرنفلة ، وقبلي يد مولانا الفضل بن الربيع». وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة، فتحفزت للوقوف وطال تحفزها لثقل أوراكها على قول الشاعر:

فقيامها مثنى إذا نهضت من ثقلة وقعودها فرد

ثم نهضت ومشت وهي تتمايل وسراويلها تتثنى فوق قدميها. حتى إذا دنت من الفضل بن الربيع هشت له وابتسمت ابتسام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيل يده فمنعها. والتفت إلى فنحاس مستحسنا فقال فنحاس: « خاطبها يا مولاي فإنها فصيحة اللسان».

فحياها الفضل فأجابت بأفصح عبارة، فأدرك من لهجتها أنها بصرية ولكنها تختلف عن أهل البصرة بلون الوجه وسائر الملامح فنظر إلى فنحاس وقال له: « لعلها من أهل البصرة؟».

قال: « كلا ولكنها ربيت في البصرة منذ طفولتها وأصلها من بلاد الكرج، وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي شاهدتهن في الحجرة الأولى فآنست فيها ذكاء وجمالاً فأرسلتها إلى عميل لي في البصرة علمها العربية والقرآن وحفظها الأشعار. ولما عادت إلي أعجبني نطقها ورخيم صوتها ورأيت ما علمته من رغبة رجال الدولة في الإقتداء بأمير المؤمنين بتعليم الجواري البيض الغناء فرغبت إلى الموصلي في تعليمها فأبى حتى بذلت له المال الكثير وصرت أبعثها إليه كل صباح تأخذ عنه صوتاً بعد

صوت حتى أتقنت هذه الصناعة وأصبحت نادرة بين جواري بغداد لا نظير لها حتى في بلاط الخليفة».

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال الجارية وكانت قد أنزلت عودا كان معلقا على الحائط فانحسر كمها عن يدها فبانت بضاضة زندها وعليه الأساور والدمالج وبان الخضاب في كفها ورأى قرطيها يلمعان في أذنيها، فقال له الفضل: «قلت أنها تحفظ الشعر والعربية؟».

قال: «اسألها ما شئت واسمع حديثها أو انظر إلى عصابتها واقرأ ما زركشته عليها».

فتقدم الفضل ونظر إلى العصابة فرأى عليها بيتاً من الشعر بحروف من الذهب هو:

ليس حسن الخضاب زينا لكفي حسن كفي زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت إلى فنحاس وهو يقول: «ما أجمل هذه العصائب لله در مخترعها...».

قال: «أظنك تعني مولاتنا علية أخت الرشيد، فالحق أنها قد أوجدت للحسان سبباً كبيراً من أسباب الجمال».

قال الفضل: «هل تعلم السبب الذي من أجله اتخذت هذه العصائب؟».

قال: كلا يا مولاي».

قال: «أنا أخبرك عن السبب. إن في جبين عليه فضل سعة كانت تسمح به، فأرادت إخفاء ذلك العيب فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها، فأحدثت والله شيئاً ما رأيت فيما ابتدعته النساء أجمل منه».

فتحقق فنحاس أن الفضل سيشتري هذه الجارية لا محالة فأراد أن يرغبه في الأخريات، فأشار إلى إحداهما إشارة فهمتها فانزوت في بعض جوانب الغرفة، والتفتت إلى مرآة معلقة بالحائط بحيث لا يظهر وجهها لأحد وكان الفضل مشتغلاً عن ذلك بمراقبة الجارية الأولى وهي تتلهى باصلاح العود،

فلما علم فنحاس أن الجارية الثانية أتمت وصيته التفت إلى الفضل وقال: «وانظر إلى ما على وجه هذه. تقدمي يا سوسنة». وأشار إليها فأتت تتهادى بمشيتها وثوبها الأرجواني يتموج بلمعانه.

فتفرس الفضل في وجهها فرآها قد كتبت على خدها بالمسك « الفضل بن الربيع». فافتتن بذلك ورغب في هذه الجارية أيضاً.

فأدركت الثالثة رأيه وخافت أن تبقى واحدة وهي تعد ذهابها مع الفضل نجاحاً كبيراً لا تطمع في أحسن منه، فانزوت جانباً وبيدها تفاحة عالجتها سراً ثم عادت حتى أقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له فتناولها وإذا عليها بيت من شعر مكتوب بالغالية وهو:

أقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهر

فأدرك الفضل أنها تشير إلى ما يقوله ناظم هذا البيت (أبو ذهل الجمحي) بعده:

يا ليت إني بأثوابي وراحلتي عبد لأهلك هذا الشهر مؤتجر
إن كان ذا قدراً يعطيك نافلة منا ويحرمنا ما أنصف القدر

فكأنها تعرض برغبتها في الذهاب مع رفيقتيها فاستحسن الفضل فطانتها وعزم على ابتياع الجميع، وكان في عزمه سماع غنائهن ولكنه رأى أنه أبطأ ولم يكن ميالاً للهو والقصف وإنما طاوع الأمين لغرض له في سياسة الدولة، فهم بالرحيل لساعته.

***

خرج الفضل من الغرفة، وتبعه رجاله وفنحاس بين أيديهم يقول: « إذا شاء مولاي أريته أصنافاً أخرى من الجواري البيض والسمر والحمر والسود ولكنه رأى أحسن ما عندي». قال ذلك ترغيباً له فيمن وقع اختياره عليهن. وسار حتى أدخلهن غرفة الاستقبال فجلسوا فأمر فنحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل لأنه لا يرى في الوقت سعة لذلك والتفت إلى فنحاس وقال: « بعني هؤلاء الجواري الثلاث؟».

فوقف فنحاس إجلالاً وقال: « وهل على ولي العهد شرط أو مساومة فإن الجواري جواريه ونحن كلنا عبيده سواء أعطانا مالاً أم لم يعط . . ».

فلم تجز حيلة فنحاس على الفضل وقال: « نحن كلنا صنائع ولي العهد. ولكن البيع والشراء حلال».

قال: « إني أستحيي أن أسمي ثمناً فافترض ما تراه».

قال: « ذلك إليك فاطلب ما تريده».

قال: « مثلك يعلم قيم الأشياء، ومولانا ولي العهد كريم إذا أعجبه أمر فلا يبالي ما يؤدي. . ونحن نقبل منه أن يؤدي ما أداه مولانا أمير المؤمنين . . »

قال ذلك وابتسم كأنه يخلط بين الجد والهزل.

فقال الفضل: « وكم أدى أمير المؤمنين؟».

قال: « أعطى ثمن الجارية مائة ألف دينار، ولم تكن أحسن من قرنفلة أو سوسنة» وضحك.

فضحك الفضل حتى استلقى، وقال: « ألا تدري ما نأتي عن السخاء؟ إنه فعل ذلك في أول خلافته فلما أمر وزيره يحيى بن خالد أن يؤدي هذا المال اعتذر، فغضب أمير المؤمنين، وأراد يحيى أن يبين ما يتحمله بيت المال في هذا السبيل فجعل المال دراهم فبلغ ألف ألف وخمسمائة ألف، وعرضها في الرواق الذي يمر به الخليفة، فلما رآه استكثره وعلم أنه أسرف».

فقال فنحاس: « فإذا لم يشأ مولانا ولي العهد أن يعطي عطاء أبيه فليكن كما فعل وزير أبيه . . ».

فعلم الفضل أنه يشير إلى جعفر البرمكي عدوه وذكر ما بينهما من المنافسة ولكنه تغاضى ولم يبد في وجهه تأثر وقال: « ما الذي أعطاه؟».

قال: « ألم يعط ثمن الجارية أربعمائة ألف دينار؟. فهل يليق بولي العهد أن يشتري بأقل من ذلك؟. سأرسل الجواري إلى قصر ولي العهد والذي

يعطيه مقبول».

فاستاء الفضل من هذه المساومة، وشق عليه أن يجعل الأمين أقل سخاء من عدوه والناس يومئذ يكتسبون الأحزاب السياسية بالسخاء، وكان فنحاس عالماً بتلك المنافسة مطلعاً على دخائل الجميع، ولم يقل ما قاله إلا علم بأن الفضل لن يساومه حفظاً لكرامة مولاه الأمين ورفعاً لمنزلته بين رجال دولته حتى لا يجدوا ما ينزله في أعينهم، فنجح فنحاس وأراد الفضل أن يظهر كرم الأمين فقال: « لو كان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التي ابتاعها الوزير لحق لك هذا الطلب فها أنذا سأجعل ثمن الجواري مائة ألف دينار».

فتزاهد فنحاس وقال: « كل ما يعطيه مولانا كرم منه فإننا وما نملك من بعض صنائعه».

ولم يفت الفضل تملق اليهودي ولكنه جاراه وقال: « بارك الله فيك. أرسل الجواري إلى قصر مولانا مع وكيلك لأخذ المال».

قال: « سأرسلهن حالاً وليس قبض المال مما يستعجل فيه».

فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف فسبقه رفاقه إلى النهوض وأسرع أحدهم إلى الخدم في فناء الدار، فأشار إليهم أن يسرعوا في إعداد الركائب واشتغل الفضل في إجابة فنحاس على عبارات المجاملة والاطراء وهو أثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته إخفاء لما جاء من أجله.

- ٤ -

القبض على أبي العتاهية

لم يكد الفضل يخرج من باب البيت حتى سمع جلبة ثم رأى جماعة من الرجال يتعاركون وعليهم أردية تغطي أثوابهم كأنهم متنكرون، ولكنه عرف من قلانسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها أنهم من جند الدولة - وأول من ألبس الجند هذا الزي أبو جعفر المنصور فاستغرب تنكرهم

بالاردية فوق أثوابهم، وما لبث أن سمع صوتاً ينادي: « أنا من رجال الفضل بن الربيع اتركوني وشأني».

فلما سمع الفضل اسمه تقدم فتفرق أصحاب القلانس وكانوا متكأكئين على رجل يوثقونه وهو يحاول التملص من أيديهم وحالما وقع بصره عليه عرف أنه أبو العتاهية فاستغرب وقوعه في تلك الورطة ونظر يميناً وشمالاً فرأى في بعض جوانب الزقاق امرأة ملثمة تأمرهم أن يوثقوا الرجل ولما رأته بالغت في التنكر والتستر والرجال يحاولون شد وثاق أبي العتاهية وهو يهددهم بأنه من رجال الفضل وهم يقولون: « ما لنا وللفضل تعال أجب الخليفة». ووقعت عين الفضل على عين أبي العتاهية فرآه يشير إليه ويستنجده وفي استنجاده معنى توقع منه خيراً!.

فصاح الفضل بهم: « اتركوا الرجل، من أمركم بأخذه؟». فأجابوه وهم يشدون وثاقه: « إنه طلبة أمير المؤمنين» ولم يلتفتوا إليه.

فقال: « ومن قال أن أمير المؤمنين أمر به وما شأنكم في ذلك؟».

فتقدم عريفهم ونظر إلى الفضل فرأى من بزته أنه من كبار أهل بغداد، ولكنه أنكر تلثمه وقال: « أنا من جند أمير المؤمنين وقد أمرنا بالقبض على هذا الرجل».

قال: « لا أراكم من الجند وليس عليكم شارة الدولة».

فابتسم الرجل وخلع الرداء وأدار ظهره ليقرئه ما هو مطرز بين كتفيه فقرأ: « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم». ثم أشار العريف إلى سيفه المعلق بمنطقه.

فضحك الفضل وقال: « هذه ثياب قديمة من أيام المنصور فهو الذي أمر رجاله بكتابة هذه العبارة على أثوابهم وبتعليق السيوف بمناطقهم فقد تكونون ابتعتم هذه الأثواب لتنتحلوا عمل الجند وإلا فأين اسم أمير المؤمنين الرشيد؟».

فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على أعلى الكتف اسم الرشيد مطرزاً

بالقصب: « هرون بن المهدي أمير المؤمنين». ثم تحول العريف عن الفضل وهو يهز رأسه وتوجه نحو رجاله وهم لا يزالون يعالجون أبا العتاهية وأخذ يحثهم على الإسراع في شد الوثاق. وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون أمره لإنقاذ أبي العتاهية ولم يشاءوا الإقدام على ذلك إلا باشارته مخافة أن يكون راغباً في إخفاء نفسه.

أما هو فلما رأى استخفاف العريف به ناداه بصوت هادئ يمازحه التهديد قائلاً: « ولكنه يقول لكم أنه من رجال الفضل بن الربيع».

قال: « ومن يضمن صدق قوله؟ وهب أنه صادق فنحن مأمورون بالقبض عليه». قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه فصاح به الفضل: « أنا أقول لك أيضاً أنه من رجال الفضل فاتركوه».

فلما سمعه يتكلم كمن له سلطان تحول نحوه وتفرس في وجهه من وراء اللثام ثم التفت إلى المرأة التي كانت واقفة هناك فرآها تنسل من بين الجماهير فعلم أنها تبغي الفرار، فأدرك أن الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم ولكنه لم يكترث وعاد إلى رجاله وصاح فيهم: « أوثقوه».

وكان فنحاس في بدء الأمر واقفاً بجانب الفضل فساءه أن يقبض على أبي العتاهية في بيته ولم يفهم السبب وحدثته نفسه أن يتقدم لإنقاذه مستعيناً بمن في داره من الرجال ثم تذكر أنه سيقاسمه ثمن الجواري فرأى أن القبض عليه باباً للتخلص من القسمة، وما لبث أن جاءه حيان وأسر إليه بما كان بالأمس وما أوصته به الجارية من الاحتفاظ بأبي العتاهية ريثما تأتي وأن سيدتها من أهل أمير المؤمنين. فاطمأن فنحاس وصمم على السكوت ودخل إلى داره يتشاغل بما لا طائل تحته.

أما الفضل فلما سمع تهديد العريف تقدم بقدم ثابتة إلى الرجل وقال: « لا. لا. ينبغي أن توثقوه حتى نعرف ذنبه. وإلا فإنكم تتحملون تبعه هذا العمل عند أمير المؤمنين».

فالتفت العريف إلى الفضل وقال: « ومن أنت حتى تهددني بأمير

المؤمنين؟ امضى لشأنك».

فلما سمع رجال الفضل ما في كلامه من الاستخفاف كادوا يهمون بالرجل ويصرحون له بالحقيقة ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا ينتظرون أمره. أما هو فبقي رابط الجأش وما زاد على أن أشار إلى رجاله أن ينقذوا أبا العتاهية فهجموا فعلت الضوضاء وهم بالجند بتجريد السيوف فصاح فيهم: « لا حاجة بكم إلى السيوف اتركوا الرجل فإذا سألتم عنه فقولوا أن الفضل بن الربيع أخذه فإذا كان لأمير المؤمنين أو سواه أرب فيه فليطلبه مني».

فلما سمعوا ما قال بغتوا وتوقفوا وجاء العريف إلى الفضل وقال له: « إن الرجل طلبه أمير المؤمنين فكيف نتركه بعد أن قبضنا عليه وماذا نجيب إذا سألنا عنه؟».

قال: « قل لطالبه أنه عند الفضل بن الربيع، أو قل أنه عند ولي العهد». قال ذلك وهو يهم بإزاحة اللثام.

فلم يبق عند العريف شك أنه أمام الفضل ونظر إلى من حوله من الرجال فسمع أحدهم يقول له همساً: « إنك تخاطب وزيراً كبيراً هذا هو الفضل بعينه».

فتقدم العريف نحوه وقال: « لماذا لم يقل مولانا ذلك في بادئ الرأي فنحن صادعون بأمره». ثم أشار إلى رجاله فحلوا وثاق أبي العتاهية وتحولوا، فانحاز أبو العتاهية إلى رجال الفضل وقد وقعت عمامته عن رأسه وانتفش شعره فظهر قبح منظره وجاءوا به إلى الفضل فوقع على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه فأنهضه الفضل وقال: « ما الذي أوقعك في هذه البلية وأنت الشاعر الزاهد؟ . . » وضحك وهو يحسب سبب القبض عليه أمراً لا يجتمع مع الزهد.

فقال: « سأقص عليك السبب وهو يهمك».

فأشار إليه أن يسير معهم وأمر رجاله فركبوا جميعاً إلى قصر الأمين.

***

عاد العريف ورجاله إلى قصر العباسة وكانت قد أرسلتهم ليقبضوا على أبي العتاهية عملاً برأي عتبة. وذلك أنه لما عادت العباسة وعتبة إلى القصر في أواخر الليل كما تقدم ظل بال عتبة مبلبلا بما علمته من أمر أبي العتاهية ورجح عندها أنه أطلع على سر مولاتها، فلما وصلتا إلى القصر دخلت العباسة إلى غرفتها لتنام واستولى القلق على عتبة فلم تستطع أن تمسك عن الدخول على سيدتها مبكرة والإفضاء إليها بما لحظته وأشارت بالقبض على أبي العتاهية سريعاً لئلا يبوح بالسر. فأعظمت العباسة الخبر وخافت ولم تر سبيلاً للنجاة إلا بالقبض عليه وإخفاء خبره ريثما تتدبر أمرها. فتقدمت إلى عتبة أن تنفذ شرذمة من الجند ممن كانوا في خدمة قصرها ليقبضوا عليه بأمر الخليفة. فذهبت عتبة معهم حتى إذا وصلوا إلى دار فنحاس كان الفضل قد سبقهم إليها ودخل دار الرقيق كما تقدم. وكان أبو العتاهية عازماً على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك مخافة أن يلحظ تواطؤه مع فنحاس ولم يخطر له أنه مطلوب. وشعر حيان بذلك فأخذ يشاغله بالحديث ريثما يعود سيدة من دار الرقيق ليطلعه على سر ما أشارت به عتبة. فلما أحس أبو عتاهية بقرب مجيء الفضل أسرع في الذهاب وكان العريف قد جاء بجنده فأشار حيان لهم أن يقبضوا عليه، فهموا به ورأى أبو العتاهية عتبة فأدرك غرضهم فأخذ يطاولهم حتى جاء الفضل فأنقذه.

فعاد العريف إلى قصر العباسة وأنبأ عتبة بما كان من نجاة أبي العتاهية، فأنبأت مولاتها، فعظم الأمر عليها وتحققت أن سرها لا يلبث أن يتصل بالفضل، وأخذت تندب حظها. وخلت بعتبة وشاورتها في الأمر فقالت لها: «لم يبق لنا حيلة يا مولاتي إلا باستنجاد مولاي الوزير».

قالت: «وكيف نبلغه الخبر وهو اليوم مع أخي في الميدان يلعبان بالكرة والصولجان». وكان ذلك اليوم موعد تلك الألعاب في الميدان بقرب قصر الخلد.

قالت: «لا بد من ذلك. وإذا شئت فإني أتولى نقل الخبر إليه».

فقالت: « تدبري الأمر كما ترين فإني لا أعي شيئاً».

قالت: « هل أدعوه إليك إلى هنا؟».

قالت: « افعلي ما ترين لأني أخاف انكشاف أمرنا قبل تدبير حيلة للنجاة».

قالت: « لك علي ذلك بإذن الله». وهمت بالخروج فنادتها العباسة وقالت: « خذي إليه هذه البطاقة». وكتبت إليه بطاقة قالت فيها: « أدركني في أول لحظة تتفرغ فيها لإنقاذنا من مخالب الأعداء». ودفعت البطاقة إليها فخبأتها بين أثوابها وخرجت تواً إلى غرفتها وتزيت بزي رسول قادم من خراسان وتلثمت بلثام السفر وركبت فرساً، وأسرعت نحو الميدان وكان قصر العباسة على مقربة منه.

فوصلت إلى الميدان والشمس قد مالت عن خط الهاجرة، فرأت الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم وقد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على أعمدة وقام الجند حول السور بالأسلحة يمنعون الناس من الدخول. فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق موقف جعفر ثم تسعى في الوصول إليه، فرأت في بعض جوانب الساحة فسطاطاً كبيراً خرج منه الرشيد على فرسه وقد اعتم بعمامة خفيفة خاصة باللعب وبيده صولجان ورجال الدولة على أفراسهم متأهبين للعب وفي أيديهم الصوالجة وقد اصطفوا صفين أحدهما مع الرشيد. ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهرة بيده ثم التقف بها الكرة من الأرض وأرسلها في الهواء فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجهم وأخذوا يستحثون أفراسهم وراءها، وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس أدهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخز وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة. ولاحظت أنه لم يكن أحد غيره يجسر على الدنو من الخليفة. وأما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان مجاراة للخليفة ولا يجسرون على سبقه مخافة أن يغلبه أحد منهم والمجاملة تقضي بأن يكون

هو الغالب. إلا جعفر فقد كان يسابق الرشيد إلى الكرة، ويلاعبه بها والرشيد يجامله، فإذا أخطأ ضحك وصاح بجعفر ومازحه وجعفر يتعاجز عن غلبه.

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب ورأسه من الذهب الخالص وصولجان جعفر من خيزران بلا تطويق وكراتهم كتل من مشاقة الحرير معبأة في أكياس من الحرير المتين وقد شدت بأطواق من الأوتار المرنة. فلا يلبث الفارس أن يلتقف الكرة من الأرض بطرف صولجانه حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون أفراسهم في أثرها وعيونهم شائعة نحوها وصوالجتهم مشرعة في أيديهم يبغون ملاقاتها وأفراسهم قد هاجها الاستكداد حتى تصبب العرق منها واختلط الزبد المتحلب من أفواهها بما أزبد من العرق المتقطر من أعناقها وصدورها وهي لا تشكو تعبا لأنهم أعدوها لمثل ذلك اليوم، وكان الرشيد مولعاً بهذه اللعبة ورجال الدولة يتقربون إليه باتقانها واللعب بين يديه بها.

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قلق على أثر مشاهدته ولديه إذ جاء إليه رياش قبل ذهابه إلى دار فنحاس فقبلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة فثارت عواطفه وأصابه ما أصاب أمهما تلك الليلة من استيقاظ الحنو الأبوي على ولدين كأنهما الفرقدان قضت إرادة الخليفة بإبعادهما عن حجر والديهما خوفاً من الموت.

فبات جعفر تلك الليلة يتصور العباسة معانقة ولديها وما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنان يخالطها خوف الفراق ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف، فعظم عليه الأمر وهجره النوم وقد كان على موعد للذهاب إلى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد. فجاء موكبه وحاشيته يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة. على أنه كان مطمئن البال من ناحية الرشيد واثقاً بحسن ظنه به لا يخاف حسد الحاسدين ولا وشاية الواشين. وقد فاته ما يجول في خاطر الرشيد من أمره

وما يدسه الوشاة إليه يهيجون نقمته عليه بما يعرضون به من اتساع سلطة البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الأموال مما لم يكن عند الرشيد مثله. علاوة على استبداد جعفر بشؤون الدولة، على أنهم لم يكونوا يأنسون من الرشيد إصغاء ولم يسمعوا منه غير إطراء وزيره والثناء عليه وقد أطلق يده في أمور العامة والخاصة حتى أباح له الدخول بلا استئذان وسلم إليه خزائن بيت المال وأطلق يد أبيه يحيى في دوره وقصوره وجعل النظر فيها وفي حريمة إليه حتى كان يغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح. ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك إلى ما تقدم من عقدة له على أخته العباسة بحيث يحل له النظر إليها، فلا يخلو مجلسه منها فأفضى ذلك إلى ما علمته من زواجهما سراً.

على أن جعفر لم يكن يعد زواجه بالعباسة إلا شرعياً وإنما عمد إلى التستر خوفاً من غضب الرشيد ولم يخطر له انكشاف ذلك السر لأحد وكان إقبال الزمان غره فأعمى بصيرته عمن يحدق به من الحاسدين. ولعل عذره ما كان يراه من تزلفهم إليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه. ولا نظنه كان غافلاً إلى هذا الحد، ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد وإجلال مقامه وما كان يبديه من إكرامه والرجوع بالأمور إليه.

-٥-

مقابلة العباسة لجعفر

ظلت عتبة تتفرس في اللاعبين حتى عرفت مكان جعفر وهو بعيد عنها ودون الوصول إليه رجال وحبال، فوقفت تكد ذهنها في إيصال البطاقة إليه بغير أن يشعر بها أحد، فوقع بصرها على رجل من غلمان جعفر كان يأتي قصر العباسة ببعض المهام ولها به ثقة فاستغفلت رفاقه وأشارت إليه فجاء إليها على انفراد فناولته: (حمدان) وكان حمدان هذا من أقدم غلمان جعفر نشأ في منزل أبيه يحيى منذ طفولته وقد ربى جعفر على ذراعيه، وكان يحبه

حباً يقرب من العبادة وقد بلغ الخمسين من عمره ولا يزال نشيطاً وهو فارسي الأصل خراساني الموطن وكان مقدماً عند جعفر يدخل عليه متى شاء ويعامله معاملة الأقرباء - فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وأدرك أنها متنكرة لغرض هام، فقال لها: « ما وراءك؟ ».

قالت: « جئت برسالة إلى الوزير فكيف أوصلها إليه؟ ».

قال: « إنهم لا يلبثون أن يفرغوا من اللعب ويعود الوزير إلى فسطاطه للراحة فيسهل الدنو منه. . أعطني الرسالة فأوصلها إليه ».

فسرت عتبة لذلك ودفعت إليه البطاقة فخبأها في ثيابه وقال لها: « اذهبي مطمئنة فإني موصلها إليه حالاً ».

فعادت عتبة إلى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد فرغ صبرها فقصت عليها ما كان وجلستا على مثل الجمر تنتظران مجيء جعفر.

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد). وكان لقصر العباسة شرفة مطلة على دجلة وأخرى على طريق يؤدي إلى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبة فجلست العباسة في هذه الشرفة وأطلت من وراء حجاب فلم تر في الطريق أحداً. وطال انتظارها وعيناها شاخصتان نحو الأفق فرأت شبحاً ظنته وزير أخيها أو حبيبها وزوجها حتى إذا مالت الشمس إلى المغيب واستطالت ظلال المآذن على أسطح قصور بغداد وعلت أصوات المؤذنين انزعجت العباسة لصوت الآذان على غير المعتاد لأنها كانت تستأنس به وتطرب لسماعه، أما الآن فقد أزعجها لأنه أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام وبينها وبين الأفق، وكانت عتبة واقفة إلى جانبها لا تقل عنها قلقاً فلما سمعت أصوات المؤذنين لحظت تذمر مولاتها فابتدرتها قائلة: « أظنه تأخر إلى الليل عنوة ».

قالت: « ولماذا؟ ».

قالت: « حتي يأتيك خلسة فلا يشعر به أمير المؤمنين أو غيره ».

قالت: « ومتى كان أخي يراقب ذهابه ومجيئه وهو غير متهم عنده ومفاتيح القصور في يد أبيه . . ولكنني أخاف أن يكون لتأخره سبب مزعج وقد أصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائع الجرار على سرنا أعد حياتي في خطر . . ». قالت ذلك وغصت بريقها.

فقالت عتبة لا يزعجنك هذا الوهم يا مولاتي فإنني لست على يقين من اطلاع أبي العتاهية على سرنا، وإنما اتهمته فأحببت القبض عليه من باب الاحتياط وهبي أنه اطلع عليه فهل يجسر أن يذكره لأمير المؤمنين؟».

فلما تصورت العباسة ذلك اقشعر بدنها خوفا من غضب أخيها لعلمها أنه إذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه وهي تعلم أيضاً أنه ما من أحد يجسر على ذكر شيء من ذلك بين يديه ولكنها قالت: « إذا كنت لا أخاف أن ينطق أبو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي أخي فإني أخشى أن يبوح به لحساد جعفر وهم يتخذونه وسيلة للايقاع به. على إني لا أخاف أحداً خوفي من تلك المرأة».

فأدركت عتبة أنها تشير إلى زبيدة امرأة أخيها لما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة وبنت حماتها لا سيما أن الرشيد كان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر بعدها، وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمي لأنها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد. وكان الرشيد يحبها أيضاً ويحترمها ولا يرد لها طلباً فلم تقنع بذلك حتى غارت من حبه أخته. ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد أسباب غيرتها ولا سيما بعد أن علمت بما بين العباسة وجعفر. فلم يكن ذلك كله ليخفى على عتبة بل كانت هي أعلم به من مولاتها، لأن الخبر « يصل إلى أذن صاحبه ويقف» ولا سيما في ذلك العصر والناس يتقربون إلى أهل المراتب بالاطراء والإرضاء ويجتنبون إبلاغهم ما يسوءهم ذكره. وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسه مبالغاً في كتمانها والناس يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم بما هو يحسبهم غافلين ولا يجسر أحد منهم أن يطلعه على أمره. فلما سمعت عتبة تصريح العباسة بخوفها من

زبيدة قالت: « لا أرى مسوغاً لما تتخوفين منه الآن».

قالت: « وكيف لا ترين مسوغا وأنت تعلمين ما في نفس زبيدة مني فكيف إذا أطلعت على هذا السر؟».

فابتسمت عتبة وقالت: « هل تظنين زبيدة لم تعلم ذلك إلى الآن».

فأجفلت العباسة وقال: « وهل علمت. ومن أطلعها عليه؟».

قالت: « إنك عاقلة حكيمة ومثلك لا تأخذه ظواهر الأمور. كيف يخطر لك أن يبقى هذا الأمر مكتوماً على الناس ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب..».

فقطعت العباسة كلامها وقالت: « وهل يعلم أهل القصر ذلك أيضاً؟».

فخافت عتبة على مولاتها فقالت: « كلا ولكنني أظن زبيدة علمت به بما ينقله لها عنك جواسيسها وأتباعها، ولكن علمها هذا لا يعني أنها تبوح به لزوجها فإنه لا يجسر أحد أن يذكر شيئاً مثل هذا لأمير المؤمنين إن لم يكن خوفاً منه فخوفا من سيدي الوزير وهو صاحب العقد والحل في الدولة، فمن يجرؤ أن يسيء إليه».

وكان الظلام قد خيم على الشرفة حيث يجلسان وسائر القصر مشعشع بالأنوار والشموع، وأهله لاهون عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنه ضميرها، ولم يكن أحد ممن في قصرها من الجواري والخصيان وغيرهم يجالسها أو يعلم ما في قلبها إلا عتبة لأنها صحبتها من طفولتها في قصر أبيها المهدي ووثقت بها. وكانت العباسة تتحدث إلى عتبة في ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان من الأفق وإن كان مظلماً. على أن بصرها كان يتحول رغم إرادتها إلى الأنوار المتألقة في قصر الخلد إلى يمينها ودار القرار إلى يسارها وفي كل منهما رقيب تخافه، فلما استبطأت جعفر قلقت وتحفزت للنهوض وهي تقول: « هلم بنا إلى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك..» وإذا هما يسمعان وقع أقدام في الدهليز المؤدي إلى ذلك المكان. فلما سمعت العباسة الصوت خفق قلبها لأنه يشبه وقع خطوات جعفر

فأسرعت تقول «أظنه جاء». فمشت عتبة بين يديها وقالت لها: « اذهبي يا مولاتي إلى غرفتك البعيدة حتى آتي به إليك فلا يكون عليكما رقيب».

فأطاعتها العباسة وذهبت إلى تلك الغرفة. وأقبلت عتبة على الدهليز وفي جدرانه الشموع، فرأت جعفر داخلاً وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة وهما لباس العباسيين الرسمي فتقدمت إليه وقبلت يده فابتدرها قائلاً: « أين مولاتك».

قالت: « في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات».

فمشى وحده ومشت عتبة في أثره لتوصله إلى باب الغرفة فتساعده على خلع نعاله ثم تعود إلى مكان بعيد على جاري العادة، وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره طلق المحيا ظاهر البشر جميل الطلعة في عينيه ذكاء ربع القامة كستنائي الشعر خفيف اللحية والشاربين لم يخالط شعره الشيب إلا قليلاً. وكان قد أرسل القلنسوة إلى الوراء فبان بياض جبينه وظهرت على محياه أمارات الاهتمام. ومن كان دقيق الشعور قوي العاطفة ظهرت عواطفه في وجهه، فلا يقوى على الكظم ولا يصبر على الضيم، وهذا راجع إلى طبيعة الأمزجة. ففي الناس حاد المزاج سريع الغضب وطويل الاناة واسع الصدر وما بين ذلك درجات كثيرة. أما جعفر فلم تكن تخفي انفعالاته على المتأمل خلافاً للفضل بن الربيع.

***

وكانت العباسة واقفة في غرفتها ترتجف من شدة التأثر تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء، وكانت تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من أسباب الزينة من المنائر المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق في عينيها من صندوق صغير. ورأت الانتظار تلك اللحظة أطول من انتظارها معظم ذلك النهار، ثم ما لبثت أن سمعت وقع قدميه بالباب وسمعت عتبة تخلع نعليه وتضعهما على رف معد لهذا وعادت.

أما العباسة فتقدمت إليه في ثوب بسيط تعودت أن تلبسه عند الاجتماع

به، وكان شعرها محلولاً ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها في أعلى رأسها بدبوس مرصع والتفت فوق الرداء بمطرف من الحرير المزركش بأشعار طرزت على حواشيه بالقصب. وقد رسم القلق في أسرتها عبوساً زادها هيبة وجمالاً. فابتسمت عند وقوع نظرها على جعفر ونسيت ما أعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من أسباب المخاوف وأحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء - شأن الحب الصادق فإنه غالب على أسباب الشقاء في كل حال فالمحب مهما انتابه من المشاق أو اعترضه من العقبات إذ رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء. والحب سعادة حقيقية لا يزيدها الشقاء إلا تمكنا كالذهب لا تزيده النار إلا صفاءً ورونقاً.

وكان جعفر مع ما يراه من حب العباسة له وتفانيها في راحته لا ينسى أنها من دم أجمع أهل ذلك الزمان على أنه أشرف من دمه لأنها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة وهو فارسي أعجمي لا يسوءه مع ما بلغ إليه من السيادة ونفوذ الكلمة أن يعد في جماعة الموالي على جاري اصطلاحهم في ذلك العهد، ولم يجسر على الطمع في مثل ما قاله جعفر أحد من الأعاجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهم حتى الملوك والسلاطين من أول ظهور الإسلام حتى أواسط القرن الخامس للهجرة. وأول من أقدم على ذلك السلطان طغرل بك السلجوقي فإنه أراد أن يتزوج ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسي فساء الخليفة طلبه ولم يعقد له عليها مضطراً سنة ٤٥٤هـ والخلفاء العباسيون يومئذ في دور الانحطاط فكيف في أيام الرشيد وهو عصرهم الذهبي - فإذا اعتبرنا ذلك أدركنا تخوف جعفر من انكشاف أمره واطلاع الرشيد على زواجه بالعباسة حقيقيا وهو إنما عقد له عليها لتحل له رؤيتها وقد حسب ذلك منه كبرى على وزيره وصديقه والقائم بأمر دولته. ولكن سلطان الغرام طغى وتغلب على مملكة العقل.

فلما التقى الحبيبان نسيا ما اجتمعا لأجله على حد قول الشاعر المجنون:

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة إذا جئتكم في الليل لا أدري ما هي

ثم انتبهت العباسة لما يهددها من الخطر فافتتحت الحديث وغلب عليها الدلال فبدأت بالعتاب، وهو فاتحة حديث المحبين أو هو حجة يتطرقون منها إلى التشاكي، وما التشاكي إلا جلاء القلوب بالاحتكاك فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها، فقالت: « ألم يرق لجعفر أن يجيب طلب العباسة إلا الآن؟ ».

فأجابها وهو ينظر إليها نظرة المحب الولهان: « إن طلب العباسة أمر لا مرد له ولكن الأحوال قضت بإبطائي خوفاً من أعين الرقباء وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامي بالجواد لأعود عليه ».

فعلمت السبب لامتناع رؤيتها إياه من الشرفة ساعة مجيئه.

فقعدت على وسادة من الحرير المطرز وهي ممسكة يده تدعوه إلى الجلوس بجانبها فأحس ببرد تلك اليد وارتعاشها وقعد على وسادة أخرى بجانبها وهو يحاذر أن ينقل نظره عن نظرها ولبث ينتظر ما يبدو منها، فقالت وصوتها يرتجف: « إلى متى هذه المحاذرة يا جعفر؟ قد آن لنا أن نعيش أو نموت ».

فظنها تعرض بما يتخوفانه من أمر الرشيد فتنهد وقال: « إن الأقدار حكمت علينا بهذه المخاوف لأنها جعلت بيني وبينك حجاباً من شرف النسب فجعلتك من سادات بني هاشم وجعلتني من الموالي ».

فقالت وهي تنظر إليه عاتبة: « إنه حجاب من الوهم الباطل، فأنت أسمى نفساً من السادة، وأرفع في عيني من كل بني هاشم ولكن.. » وسكتت.

فقال: « لقد دعوتني على عجل فجئت فهل حدث شيء جديد؟ ».

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء وعادت إليها مخاوفها وأسرعت الدموع إلى مآقيها: « نعم.. فينبغي أن نموت أو نعيش إذ لا طاقة لي بما نقاسيه من المخاوف ».

فأجفل وقال: « ما الذي حدث مما نخافه إلى هذا الحد. . ؟ أما الموت فإني أستسهله في سبيل راحتك».

قالت وصوتها يرتجف: « لقد انكشف أمرنا ولا يلبث أن يطلع أخي على سرنا» واختنق صوتها.

فأجفل وقال: « وأي سر؟ ومن أطلع عليه؟ وكيف؟ ومتى؟».

قالت: « قد انكشف سرنا بالأمس وأنا في دار فنحاس مع ولدينا أقبلهما وأتملأ من رؤيتهما. . ».

قال: « ومن اطلع عليه. . من تجرأ على ذلك؟. . ».

قالت: « أبو العتاهية اللعين».

فأجفل وصاح: « أبو العتاهية؟ يجب أن يقتل حالاً».

قالت: « وقد أردت قتله فبعثت بشرذمة من الجند لأخذه في صباح هذا اليوم في تلك الدار فتمكن من الفرار».

قال: « وكيف يفر من أيدي الجند؟ تباً لهم».

قالت: « إنما نجاه عدوك الخبيث».

قال: « وأي أعدائي تعنين فإنهم غير واحد».

قالت: « صدقت إنهم كثيرون ولكنني أعني أشدهم حسداً لك وأكثرهم سعياً في أذيتك ووشاية بك. . ألم تعلم من هو!».

قال: « أظنك تعنين الفضل بن الربيع».

قالت: « إياه أعني». وأجهشت بالبكاء.

فحمى غضب جعفر لبكائها وكاد يمزق ثوبه غضباً وكيداً وقال: « الفضل بن الربيع قبحه الله من وغد زنيم. . ألم يخف سطوتي؟ ألم يرهب حد سيفي؟ ما الذي جرأه على هذه القحة؟».

قالت: « جرأه أنه مقرب من محمد بن زبيدة وأنت تعلم نفوذ كلمتها عند الخليفة. . وقد اتفق وجوده في دار الرقيق لابتياع بعض الجواري المغنيات لذلك الغلام الخليع، وبينما هو خارج رأى جندنا يهمون بالقبض على أبي

العتاهية، فاستنجده وقد رأته جاريتي عتبة يشير إليه بعينيه كأنه يعده بكشف سر يهمه. فأنقذه واستعان بذلك برجاله وهدد رجالنا فتركوا أبا العتاهية وعادوا فقصوا علي الخبر فكدت أقد ثيابي ولم أعد أدري ماذا أعمل، فأشارت عليّ الجارية الأمينة أن أطلعك على الأمر وذهبت هي إليك بتلك البطاقة وأنت تلعب الكرة والصولجان فعهدت بها إلى غلامك حمدان الذي تعودت انفاذه إلي وهو أوصلها إليك. وقد قضيت في انتظارك ساعات هي أطول من الدهر حتى جئت الآن وهذا هو خبري فما رأيك؟.. قد أصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ويخيل لي أن أحجار بغداد ومياه دجلة عالمة بسري وكأن خدمي وجواري جند يهمون بالقبض علي.. ولو كان الخطر علي وحدي لهان مصابي لكنني أخاف عليك من غضب أخي وشدة بطشه». قالت ذلك وأخرجت منديلها تمسح به عينيها وقد أغرقت في البكاء.

وكان جعفر يسمع حديثها وعيناه شاخصتان إليها وقلبه يخفق ولحيته ترقص غضباً، فلما فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمى غضبه فوقف بغتة وقال: « لا تخافي يا حبيبتي إنهم لا ينالون منك شعرة قبل أن تزهق أرواحهم جميعاً».

فأمسكت بطرف سواده وأجلسته وهي تقول: « لا تجعل للغضب سلطاناً عليك فإن الأمر يحتاج إلى الروية والتبصر فغريمك الخليفة أمير المؤمنين، ومعه بنو هاشم وسائر العرب وأحزابهم وأجنادهم، ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها حجة فأخاف إذا أخذت الأمر مفاجأة عرضت نفسك للهلاك».

***

ابتسم جعفر والغضب ظاهر في شفتيه وعينيه وقال: « لا تظني محبك يرسل الكلام جزافا فإني قد أعددت لكل نازلة دواء.. إن من أشرت إليهم من سادات بني هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مع الرشيد أحد لأني غمرتهم بعطاياي وملكتهم بإحساني. وأنا لم أكثر الجوائز عبثاً ولا بالغت

في الكرم والسخاء اعتباطاً، ولكنني جعلت ذلك ثمناً لما أتوقعه في مثل هذه المشكلات وأعظم منها. وأما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقمون على أخيك لمبالغته في مطاردة العلويين وعندي في خراسان ألوف يأتمرون بأمري وكلهم ناقم على بني العباس منذ فتك جدك أبو جعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته أبي مسلم الخراساني.. اعذريني إذا صرحت لك بذلك فإني لم أصرح به لأحد سواك ولا يغضبك أن تسمعي ما سمعته عن جدك وأخيك فإنما أحرجتني بما رأيته من خوفك..».

فلما سمعت كلامه أعظمت الإقدام عليه وأطرقت ولم تجب فابتدرها قائلاً: «كأني بك تتخوفين مما سمعته فإذا كنت تنكرين علي مناهضة الخليفة وهو أخوك فقولي».

فرفعت العباسة بصرها إليه وقد بدا الجد في عينيها وقالت: «إني لا أستحيي أن أصرح لك بما في خاطري بعد ما سمعته من تصريحك فاعلم أنه لا يهمني في هذه الدنيا أحد سواك وكل عدو لك فهو عدو لي.. لا أستثني أحداً.. ولكنني أخاف إقدامك على أمر نستطيع الجنوح عنه إلى أمر آخر أقل خطراً منه.. اعلم يا حبيبي إني لا مطمع لي في هذه الدنيا إلا أن أكون بجانبك هنا ومعنا ولدانا وثمرة قلبينا ولا يهمني أن يكون ذلك الاجتماع في قصر أو كوخ فقد عافت نفسي القصور وما يحف بها.. فانظر في سبيل ننجو به من هذه المدينة إلى مكان لا نخشى فيه بأسا ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فإنها محفوفة بالمكاره. والمرء مهما طال عمره أو اتسع سلطانه لا يبقى له إلا قيد باع يوارونه فيه». وأخذت في البكاء ويداها بالمنديل على عينيها.

فلما سمع كلامها ورآها تبكي كاد يبكي معها لو لم يتجلد ولكنه تأثر مما ذكرته عن ولديهما فأطرق وهو يزيح القلنسوة عن جبينه ثم لحيته وأعمل فكرته فيما قد يجره إليه تسرعه باظهار العدوان ورجع إلى صوابه ورأى قولها أقرب إلى السلامة فقال لها وهو يرد يديها عن عينيها: «لا تبكي يا حبيبتي

إني فاعل ما تريدين . . صدقت إن التؤدة أولى بأهل الحزم . . وها أنا أعرض عليك رأياً أظنك توافقينني عليه . . » .

فابتسمت والدمع لا يزال في مآقيها وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت أهدابها ونظرت إليه ولسان حالها يستفهم عن مراده . فابتسم وقال : « إن خوفك من بلوغ الخبر إلى أخيك بعيد إذ ليس بين رجال الدولة لا الفضل ولا غيره من يجسر على ذكرك بين يديه أو التعريض بما تخافينه ، وأنا أعلم الناس بذلك . فلا خوف علينا من هذا القبيل إلا بعد زمن بعيد ندبر في أثنائه وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون في مأمن . . » .

فتطاولت بعنقها وقالت : « وكيف ذلك؟ » .

قال : « قلت لك أن خراسان معي وأهلها طوع إرادتي فإذا كنت فيها لا يستطيع أخوك ولا غيره أن يناوئني . . ناهيك بأحزاب الشيعة العلوية فإنهم يحاربون معي إلى آخر نسمة من حياتهم . . أليس كذلك؟ » .

قالت : « بلى » .

قال : « وأنا ساع من زمن بعيد في التخلص من الوزارة لأبدل بها ولاية خراسان ، وقد وعدني أخوك بها . ولو أردت الحصول عليها في الغد لأجابني » .

قالت العباسة : « أحق ما تقول؟ أخاف أن يكون وعده على دخل فإنه لا يؤمن على وعد مثل هذا » .

قال جعفر : « قد وعدني وأكد الوعد ، والوشاة من حسادي يساعدونني على ذلك ليبعدوني عن بلاط الخليفة ويتمتعوا بالنفوذ دوني ولا أحتاج في تحقيق هذه الأمنية إلى أكثر من كلمة أقولها » .

فأبرقت أسرتها وبان البشر في وجهها وقالت : « بالله ألا أسرعت في تحقيقها فإني لا أرى لنا خيراً منها . . فإذا كنت أنت في خراسان سرت أنا إليك على عجل واستقدمنا ولدينا وعشنا معاً في رغد وهناء وأنا واثقة بأن الرشيد لا يقلقنا هناك لأنه يخاف على ملكه » .

قال: اطمئني فإن الأمر لا يحتاج إلى صبر طويل».

فقالت: « بدأت أشعر بذهاب القلق لأني أعتقد كما قلت أنهم لا يجسرون على ذكر خبر الطفلين لأخي لما يعلمونه من غيرته على العرض وأنا على يقين أنه يقتل كل من عرف اطلاعه على هذا السر».

قال: « إذن أنت مطمئنة لهذا الرأي».

قالت: « نعم . . ونعمَ الرأي هو . . . آه هل تتحقق هذه الأمنية وابنانا معنا وتكون أنت زوجيَ على رؤوس الأشهاد كما هي الحقيقة ولو كره الحاسدون أو أنكره أخي علينا؟». قالت ذلك وحرقت أسنانها.

فقال وهو يتحفز للقيام: « كم أحب أن أبقى هنا ولا أفارقك يا حبيبتي ولكن لا بد من ذهابي لأني جئت خلسة إذ صممنا على التستر، فينبغي لي أن أمضي سريعاً لئلا نجعل سبيلاً إلى الوشاية».

فأمسكت بيده وأقعدته وهي تقول: « لا . . لا تذهب فإني . . » وغصت بريقها.

فقال: « أراك قد عدت إلى المخاوف . . لا تخافي فإننا سنجتمع قريباً بإذن الله».

فقالت: « لا بد من ذلك لأننا لم نرتكب إثماً وزواجنا شرعي وإنما أراد أخي أن يستبد برأيه فمنعنا مما أحله الله. ألم يكن هو الذي عقد لك علي؟».

قال وهو يهز برأسه استخفافاً: « بلى . . ولكنه لا يرى لغيره حقاً أن يتمتع».

ونهض فنهضت هي معه فأمسك يدها للوداع ونفسه لا تطاوعه عليه فوقف هنيهة ينظر إليها وهي تنظر إليه والعيون تتفاهم بما تقصر الألسنة عن مثله، ثم أصلح قلنوسته بيده الأخرى ومشى وهي معه وقال: « أبقي مطمئنة حتى يأتيك مني رسول الخير».

فأجابته ونفسها لا تطاوعها على إطلاق يده: « سر يا سيدي في حراسة المولى وفقك الله إلى ما تريد».

فتراجع ونظر إليها نظر العاتب وقال: « لا تقولي يا سيدي فإنما أنا مولاك وأنت سيدتي على شرعهم وعرفهم . . أين أنا من أخت أمير المؤمنين؟ ».

فلما قال ذلك جذبت يدها من يده ونظرت إليه شزرا وقالت دلالا وعتاباً: « دعنا من شرعهم وعرفهم، فإنك سيدي بشرع الله وعرف المنصفين ».

فضحك وأسرع إلى يدها فأمسكها وهو يقول: « أستودعك الله حتى نلتقي وأرجو أن يكون لقاء لا فراق بعده . . وأرى أن أمتنع عن زيارتك في هذه الأيام ريثما أدبر الحيلة للاجتماع في مكان أمين ».

فقالت: « يشق علي انقطاعك عني لكنني أتحمله طمعاً فيما ذكرت ».

ثم صفقت صفقة تعودت أن تدعو بها عتبة فجاءت مسرعة فقالت لها: «أمشي بين يدي مولاك حتى يخرج من القصر فلا يشعر به أحد».

فأشارت إشارة الطاعة ومشت بين يديه في الدهليز وقد أطفئت شموعه وسار هو في أثرها حتى خرج من القصر وبلغ مكانا ترك فيه جواده مع غلامه حمدان فركب وسار إلى منزله.

ولما خلت العباسة بنفسها مكثت حينا واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها، فعادت إلى هواجسها وأحست باحتياجها إلى عتبة. حتى إذا عادت إليها قصت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر وأسرت إليها غرضه فأقرتها على الرأي ثم ذهبت العباسة إلى فراشها.

***

تركنا الفضل بن الربيع عائداً بحاشيته من دار الرقيق ومعه أبو العتاهية. وكان أبو العتاهية قد امتلأ غيظاً من عتبة وسيدتها. ولو لم تتعمد أذيته على تلك الصورة فربما كان يقوم في نفسه ما يؤنبه على إفشاء ذلك السر مع ما يطمع فيه من الكسب بإفشائه. إذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين أو الحياء من العباسة أو الخوف من جعفر أو الرشيد، أو ربما توقف عن الإفشاء حينا

من الزمن ريثما يجد سبيلاً يتقدم به إلى الفضل أو غيره بإلقاء ذلك السر إليه. فجاءت تلك الإساءة مساعدة له على الإفشاء وقد مهد السبيل إليه وجود ابن الربيع واطلاعه على ما حدث له.

سار الركب إلى قصر الأمين ولم يكن لهم بد من المرور على جسر بغداد فبعد أن تجاوزوا شارع الرقيق بالميدان من شماله ورأوا أهل الدولة يفدون لحضور مهرجان لعب الكرة والصولجان فداروا من وراء الاصطبل في الطريق إلى الجسر، وكانت الشمس قد تكبدت السماء، وتزاحمت الأقدام على الجسر وهو مصنوع من سفن متحاذية شدت من جوانبها بعضها إلى بعض بأمراس أو سلاسل من حديد وألقيت فوقها ألواح الخشب يمر فوقها الناس والدواب. وعلم الفضل أن الجسر لا يخلو من حراس يراقبون خفية من يمرون عليه. إذ كان الناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض.

وكان قبل مغادرته دار الرقيق قد تلثم، وكذلك تلثم بعض أتباعه، فمروا على الجسر شمالاً إلى الرصافة وعرجوا من هناك نحو الجنوب الشرقي إلى المخرم، وجعلوا أكثر طريقهم قرب الشاطئ حتى أتوا القصر. وقد رأى الفضل أن يعجل بالذهاب إلى دار الرقيق لإنهاء المهمة التي اضطلع بها ليستطيع العودة إلى الأمين قبل الضحى لئلا يفوته الصبوح معه، وتحقيق ما وعده به من إسماعه غناء الجواري البيض في ذلك اليوم، حرصا على رضاه وتقربا إليه بكل ما يسره، لعلمه أنه ولي العهد، ولا سبيل إلى النيل من البرامكة إلا به لأنه يكره الفرس، ويكره البرامكة على التخصيص، وجعفر بن يحيى على الأخص، لأنه ساعده أخاه المأمون في الحصول على ولاية العهد رغم أن أمه جارية، بينما زبيدة أمه هو هاشمية.

-٦-

جعفر بن الهادي

لم يكن الفضل يرى نفسه أهلا للتفوق على البرامكة في إدارة شؤون

الدولة وسياستها وتسهيل استيفاء الخراج وإرضاء الرشيد، فسلم الرشيد مقاليد الدولة إلى جعفر وأطلق يده فيها، فعمد الفضل إلى الحيلة لبلوغ مآربه، وهو ذو دهاء وصبر، فلما رأى الأمين يكره الفرس انحاز إليه وجعل يتقرب منه بكل وسيلة، وقد كان في غنى عن الذهاب بنفسه إلى دار الرقيق، ولكنه أراد أن يبرهن للأمين على أنه يحبه ويتفانى في خدمته.

على أن اشتغاله بمشاهدة أصناف الرقيق، ثم بما كان من أمر أبي العتاهية والقبض عليه، أخره بعض الوقت، فوصل إلى القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة، ومع ذلك فقد رأى أن يطلع على سر أبي العتاهية قبل الدخول على الأمين. وإن كان مزاجه لا يبعثه على التسرع في الاستطلاع، لأنه من أهل المزاج الصفراوي الذين يصبرون على الأمور ولا يقلقون من موعد أو يتعجلون في استطلاع سر، بعكس أهل المزاج العصبي، فإنك إذا وعدت أحدهم بسر تطلعه عليه أو خبر تلقيه إليه فلن يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ مأربه. ولذلك فأهل هذا المزاج لا يصلحون للأعمال السياسية، أو الإقدام على المشروعات الشاقة التي تفتقر إلى سعي وكظم ومطاولة.

نعم لم يكن الفضل بن الربيع ممن يتعجلون في استطلاع الأمور لمحض الرغبة في الاطلاع، ولكنه توسم من وراء ذلك ما يساعده في نيل مرامه. فلما أطل قصر الأمين أمر رجاله بأن يذهبوا بأفراسهم إلى الأماكن المعدة لهم، ثم ترجل هو وأبو العتاهية، وسارا في ممر عريض تظلله الأشجار الملتفة من الجانبين، وينتهي بساحة كبيرة في صدرها باب القصر، أو هو باب الحديقة التي يقع القصر في بعض جوانبها من جهة دجلة وله سور خاص به. وكانت عادتهم في بناء القصور أن يجعلوا أسوارها الخارجية متينة عالية أشبه بأسوار الحصون، وربما جعلوا في أعلى السور مرامي للنبال، أو نوافذ لحجارة المجانيق، لما كانوا يتوقعونه من تقلب الأحوال وانتقال السلطة من حزب إلى حزب. وباب الحديقة كبير متين يغلق ويوصد

فلا يستطاع فتحه إلا بجهد جهيد. وكان الحراس لا يبرحون وقوفا أمام الباب المغلق، فإذا قدم أحد فتحوه له، وإذا كان فارساً ترجل خارجاً وترك دابته مع سائسها، أو بعث بها إلى الاسطبل بجانب ذلك السور وفيه المرابط تشد إليها الدواب، وكانت كثيرة باب قصر ولي العهد، إذ كان الناس يتزلفون إليه ويكثرون من التردد عليه تمهيدا لما يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد أن تفضى أمور الدولة إليه.

وانتخيا مكاناً بجانب الطريق، وأخذ أبو العتاهية يقص الخبر على الفضل، وهذا يستمع له مأخوذاً مذهولاً يكاد يشك في صدقه، ولكنه ما لبث أن رجح صحته بعد سماعه كله، فلبث مطرقاً هنيهة، ثم نظر إلى أبي العتاهية وأراد أن يغالطه فقال: « احذر أن تكون قد اختلقت الخبر فإني لا أصدقه، وربما كنت مخدوعاً فيه لأن مولاتنا العباسة من أبعد الناس عن مثل هذه الشبهة، فاحذر أن تذكر ذلك لأحد لئلا تقع في شر أعمالك».

فأدرك أبو العتاهية غرض الفضل من هذه المغالطة، فطاوعه وقال: «إني أجل مولاتنا عن هذا، ولكنني قصصت ما رأيته، ولم أكن لأبوح به لك لولا ما اتفق من نجاتي على يدك وإني لا أدري مع هذا إذا كانت عيناي قد خدعتاني فإنهما كثيرا ما تخدعان البصير فيقع في حفرة لا يقع فيها الأعمى!». قال ذلك وهز كتفيه ثم أطرق كأنه يقول: « وماذا يعنيني من ذلك كله؟».

لم يكن الفضل يجهل محبة أبي العتاهية للمال ولم يشك في أنه إنما نقل ذلك الخبر طمعاً بالكسب، فأحب استرضاءه لعله يحتاج إليه في مثل هذه المهمة مرة أخرى، فمد يده إلى جيبه وأخرج صرة دفعها إليه وهو يقول: « إنك شاعر، وقد تعود الشعراء ألا يقولوا قولاً إلا أجيزوا عليه وإن لم يكن شعراً. فخذ هذه الجائزة الصغيرة، وستنال أضعافها من مولانا الأمين فإنه سيأخذه الطرب لنجاحنا في ابتياع الجواري البيض، وسأخبره بأنك كنت لنا عوناً في الحصول عليهن». قال ذلك وضحك ضحكة عالية مصطنعة، ثم

وضع يده على كتف أبي العتاهية وقال: « بارك الله فيك». ومشى.

وأحس أبو العتاهية أنه يريد الذهاب وحده، فودعه وقبل يده، فقال له الفضل: « احذر أن تمضي إلى مكان يعرفه الوزير فإنهم يقبضون عليك ويؤذونك، والأولى أن تمكث في هذا القصر مع بعض رجالي أو تذهب إلى منزلي فتقيم هناك في مأمن، وعلى كل حال لا تبعد عني كثيراً». فطأطأ رأسه ومضى.

أما الفضل فأزاح اللثام عن وجهه لأنه أصبح في أمان، حتى أقبل على ساحة الحديقة فرأى الباب مفتوحاً على مصراعيه، والحراس يحادثون جماعة من الغرباء عرف من هيئتهم أنهم من أهل البصرة وأكثرهم من الخدم أو السياس، وكان بعضهم يتحدثون وبعضهم يربطون الخيول أو يعلقونها أو يصلحون شؤونها. فلما أرسل نظره إلى داخل الحديقة علم أنهم رجال جعفر بن موسى الهادي، لأنه رآه يتمشى مع الأمين في بعض جوانب البستان. أما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس فتسابقوا إلى خدمته والتوسيع له.

وكان الهادي قد تولى الخلافة قبل أخيه الرشيد فلم يطل تربعه في دستها لأسباب سيأتي بيانها. وكان أبوهما المهدي قد أوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادي وهرون الرشيد، على أن يتولاها الهادي أولاً وبعده الرشيد، فلما توفي المهدي سنة ١٦٩هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه أن يخلع أخاه الرشيد ويبايع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم في أعقابه، فأعلن رأيه هذا لخاصته فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر. ولم يسع الرشيد إلا القبول لقصر يده عن المقاومة لأن رجال الدولة كلهم مع الخليفة، وقد سايروه إلا يحيى بن خالد البرمكي فإنه جاء إلى الرشيد وشدد من قلبه وضمن له الخلافة، غير عابئ بالخطر على حياته إذا عرفت رغبته في استبقاء ولاية العهد للرشيد وخلع جعفر بن الهادي، وقد علم الهادي بذلك فحبسه وهدده بالقتل، ثم تمكن يحيى بتعقله وقوة حجته من اقناعه بأن يقر أخاه الرشيد في

الولاية حتى يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبايع لجعفر. ولم تمض مدة على هذا القرار حتى مرض الهادي ومات بغتة ولم يحكم إلا سنة وثلاثة أشهر. وشاع يومئذ أن أمه الخيزران عجلت موته غيظاً منه لأنه أحب أن يغل يدها عن التصرف في شؤون الدولة وغيرة على أخيه الرشيد. وذهب يحيى البرمكي في الليل إلى الرشيد وبشره بالخلافة وأقره على سريرها. فحفظ الرشيد له هذا الجميل وأطلق يده في أمور الدولة، ولم يكن يقدم على أمر عظيم إلا برأيه، وجعل ولده جعفر وزيراً له التصرف في كل شيء.

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة أبيه غلاماً فلم يسعه إلا السكوت وفي نفسه من يحيى وأولاده حزازات، لاعتقاده بأن الرشيد اغتصب الخلافة منه اغتصاباً، وإنه تواطأ مع يحيى والخيزران على قتل أبيه. وكتم ذلك في نفسه أعواماً كان يقيم خلالها بالبصرة حيث أقطعه الرشيد أرضاً واسعة، وخصص له الرواتب الكبيرة مثل غيره من بني هاشم.

كانت السياسة تقضي في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الشرور، وكان من يصل إلى منصب الخلافة يعلم أن العيون مفتحة عليه، وأن أهله أكثر الناس حسداً له وغيرة منه، فإذا كان حكيماً وسع لهم أسباب الرزق وأكثر من إكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف، ليشغلهم عن الطمع في الخلافة، ويضعف عزائمهم عن النهوض إذا دعوا إليها. ولذلك كان بنو هاشم في عهد الرشيد وما تلاه من أكثر الناس انغماساً في الترف والقصف، لا شاغل لهم الا انتقاء المغنين، والتمتع بالمأكل والمشرب في الحدائق والبساتين، واقتناء الجواري على اختلاف طبقاتهن للغناء والتسري والخدمة. وكانت إقامتهم أكثر الأحيان بقصورهم في البصرة فلا يأتون إلا لبغداد إلا لأخذ رواتبهم أو لابتياع الجواري أو بعض الآنية ونحوها. وكان الغالب أن يرسل الخليفة رواتبهم إليهم وهم قعود في قصورهم.

وكان جعفر بن الهادي مثل بقية الهاشميين يتلقى راتبه وهو مقيم بقصره

في البصرة، ولكنه لم يكن يشغله الترف والقصف عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد، وعلى يحيى البرمكي وأولاده. وقد زاده إطلاق يد جعفر البرمكي في أمور الدولة حسدا ونقمة. وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة إليه بعد وفاة الرشيد، فلما رآه بايع لابنيه الأمين والمأمون بعده، تحقق فشله وعزم على الانتقام. وظل لا يجد سبيلاً إليه أو أحداً يناصره عليه، حتى اتصل بالفضل بن الربيع وتكاشفا فإذا هما متفقان في كره جعفر البرمكي وعدم الرضاء بالهيئة الحاكمة على الإجمال. فجعلا يتساندان في العمل على قلب الحكومة القائمة، تمهيدا لتحقيق غرضهما. وكان الهدف الأول لجعفر بن الهادي أن يقصي عن الوزارة جعفر البرمكي، ليسهل عليه إقصاء المأمون عن ولاية العهد التي نالها بتدبيره، ولا يبقى بينه وبين الخلافة بعد ذلك إلا الأمين، وإقصاؤه أسهل لضعفه الشديد فتقرب منه وعول في نيل بغيته على مثل السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له، بإطلاق أسباب البذخ والترف لبني هاشم والهاشم بالجواري والغناء عن طلبها.

ولما رأى ميل الأمين إلى الترف والقصف، رأى بدلاً من أن ينصحه بالعدول عنهما أن يسهل لهما أسبابهما وينشطه في طلبهما، ولو أدى ذلك إلى إظهاره الخلاعة أو التهتك في بعض الأحيان. كل هذا والأمين غافل لاه عما يحدق به من خطر أهل الدسائس وأرباب المطامع. فلما جاء ابن الهادي إلى بغداد قبل ذلك بأيام أكرم وفادته وأخلى له قصراً خاصاً بجانب قصره، ليقيم به مع حاشيته، وظلا يقضيان معظم النهار معا في اللهو والقصف من الصباح إلى المساء. وكان هو الذي نبه الأمين إلى اقتناء الجواري البيض المغنيات، وحرض الفضل بن الربيع على المبادرة إلى ابتياعهن منذ الفجر على أن يعود بهن قبل انقضاء الصبوح ليتمتعوا به على رخيم أصواتهن.

وقلق الأمين لإبطاء الفضل، فذهب إلى شرفة في قصره تطل على دجلة، وجلس وعيناه شائعتان لعله يجد الفضل عائداً في القارب. فلما

انقضى وقت الظهيرة ولم يعد، مل الأمين الانتظار فخرج إلى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي، وأخذا يتفرجان على ما فيها من أقفاص كبيرة كأنها البيوت، في بعضها أصناف الطير الملون المجلوب من بلاد الهند وأواسط أفريقيا، وفي أقفاص أخرى من الحديد أصناف الوحوش من أسود وفيلة ونمور. ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت أمر الأمين صاحب الكباش أن يأتي بها للمناطحة بين يديه، ومضى إلى مجلس في وسط الحديقة يظلله عريش عال، وفيما هو يهم بالدخول إليه مع ابن عمه جاءه بعض الخدم وأخبروه بمجيء الفضل، فأمر باستقدامه إلى العريش وهو يظن الجواري معه.

ودخل الفضل البستان فشاهد الأمين وابن عمه يمشيان إلى العريش. وكان البستان مقسما إلى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملونة، يتخللها أغراس من الأشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة، ومنها المولد في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان، عدا أصناف الرياحين وأزهارها البديعة الألوان، وكلها تبدو في مغارسها منسقة على أحسن صورة، إذ كان البستاني يتعهدها بالمقراض ويجعل بعضها على هيئة الحيوانات وبعضها على هيئة الطاووس وغيره من الطيور الجميلة، أو على هيئة الحيتان أو الوحوش الكاسرة فيخيل إلى من يدخل البستان ويرى هذه الأشجار أنها أسود رابضة أو طيور دارجة.

وكانت هناك بين تلك المغارس أحواض يرسل إليها الماء بمجار مستترة، وفيها من الأسماك أجملها لوناً وألطفها شكلاً، يتعهدها البستاني بفتات الخبز وبقايا الأطعمة مما يكثر في مطابخ الأمراء في أيام الرغد والرخاء. أما طرق الحديقة فكانت مزينة بأشكال الكائنات الحية وغير الحية، بوساطة رصف الحصى من مختلف الألوان على هيئة الزهور والطيور والأسود والفيلة وغيرها، على نحو ما يفعلون بالفسيفساء. وكان يتولى هذه الفنون صناع من الفرس أو الروم أو الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة

وتفننوا في تنسيقها.

على أن روائح الأزهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ما تضوع من أثواب ولي العهد من رائحة الطيب ولا سيما المسك. وكانت عادتهم في مجالس الشراب والغناء أن يخلعوا ثيابهم الرسمية ويلبسوا ثياباً ملونة بالحمرة أوالصفرة أو الخضرة يسمونها ثياب المنادمة، وهي تتألف في الغالب من غلاله رقيقة وملاءة مصقولة صقلاً شديداً حتى تكاد تقوم قياماً من شدة الصقل، وجعل على رأسه بدل العمامة أو القلنسوة إكليلاً من ريحان وأزهار، ضفرة له البستاني ضفراً جميلاً حتى يشبه القلنسوة، ووضع قدميه في خفين سنديين. وكان رفيقه ابن الهادي في مثل ذلك، ولكن ملاءته كانت خضراء، وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشي الثمين. وقد سوى شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر، أي أنه أرسله على جبينه وقصره دون جبهته، وسواه مع حاجبيه، ودوره إلى أذنيه، وأسدله إلى صدغيه.

وجلس الأمين وابن عمه في العريش ينتظران قدوم صاحب الكباش، والأمين أكثر رغبة في مقابلة الفضل لتوقعه قدوم الجواري معه، فلما سمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش صاح فيه: «ما وراءك يا فضل؟».

فقال: «ما ورائي إلا كل خيرا يا مولاي؟».

قال: «وأين الجارية أو الجواري المغنيات؟».

قال: «هن آتيات عما قريب». ولما أطل الفضل على الأمين ورأى ما عليه من الثياب، ابتسم فابتدره الأمين قائلا: «كيف تراني بهذا الإكليل وهذه الثياب؟».

قال: «أراك ملاكاً في صورة إنسان!». وكان الأمين يومئذ في السابعة عشرة من عمره، وقد نبت عارضاه وظهر عذاره، وتجلى ماء الشبيبة في محياه. وكان جميل الصورة طويل القامة أبيض اللون صغير العينين أقنى

الأنف سبط الشعر، وقد انحسر شعره عن جانبي جبهته. كما كان قوي العضل حتى يلقى الأسد فلا يبالي. وفيه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة. فإذا لقيه الرجل تهيب منظره وأحبه. ولكنه كان سيء الرأي كثير التبذير أرعن. جعل همه اللهو والقصف باقتناء الجواري والغلمان. ولعله سيق إلى الإفراط في ذلك بما أراده أهل الأغراض من تضييع الملك من يده أو رغبة منهم في استرضائه التماساً لسخائه. أما ابن الهادي فكان رقيق البدن جميل الصورة قصير القامة خفيف العارضين حاد العينين، وكان أكبر من الأمين سنا وأحسن منه رأياً. وإنما جاراه في قصفه ولهوه لغرض في نفسه.

***

ولما دخل الفضل قال الأمين: « عليك بثياب المنادمة واخلع هذا الثوب، فإن ابطاءك إلى هذه الساعة لا ينبغي أن يفسد علينا ما دبرناه من أسباب السرور، وإن كان الصبوح قد انقضى فلنقض بقية النهار في الطرب والأنس». ثم صفق فأتاه غلام تركي جميل الصورة لم ينبت عذاره بعد، وعليه دراعة حمراء، تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب، وأرسل شعره ضفيرة طويلة وراء ظهره، وعلى رأسه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب، منحرفة إلى جانب واحد في قمتها هلال من فضة أثقل رأسها فتدلى، فأصبح الغلام أشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله. ولو سمعته يتكلم لحسبته فتاة لبعد صوته عن خشونة أصوات الرجال لأنه خصي. وكان في قصر الأمين كثير من أمثاله عُني بجلبهم من أقصى بلاد الترك والجركس، وجعلهم طوائف لخدمته ولمجالس أنسه.

ووقف الغلام متأدباً فقال له الأمين: « من ترى في بابنا من الشعراء؟».

قال: « الحسن بن هانئ (أبو النواس). وأبو العتاهية و. . . ».

فقطع الأمين كلامه قائلاً: « ما لنا ولأبي العتاهية وهو من أهل الزهد؟. لا ينفعنا زهده في مجلسنا هذا. أما الحسن بن هانئ فإنه ابن بجدتها وهو شاعر ظريف». قال ذلك وضحك، ثم التفت إلى الغلام وقال: « اصرف

الشعراء إلا ابن هانئ. وقل لصاحب الشراب أن يعد لنا مجلساً كاملاً».

فقال الفضل: «أبو العتاهية لا بأس به يا مولاي، فإنه شاعر ظريف ودع ما يقولون عن زهده».

فصاح الأمين بالغلام قائلاً: «وأبو العتاهية أيضاً». فحنى الغلام رأسه سمعاً وطاعة. ومضى..!

-٧-

في مجلس الأمين

استبطأ الأمين صاحب الكباش فسأل أحد الغلمان: «أين صاحب الكباش فإني أحب أن يرى ابن عمي كبشين يتناطحان ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في العراق مثلهما».

فقال الغلام: «إنهما معدان للنطاح منذ ساعة، ولكنه لم يأت بهما إلى هنا ضنا بما في أرض هذا العريش من الفسيفساء فإن الكباش تقتلها بأظلافها في أثناء النطاح، ثم هي لا تملك قوتها فوق الحصى، فإذا شاء مولاي أن ينتقل إلى موقفها وراء هذا العريش فالرأي ما يراه».

قال: «حسناً». ونهض فمشى ومشى ابن الهادي والفضل في أثره وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولي عهد المسلمين من الألعاب الصبيانية وكأن كلا منهما يقول في نفسه: «كيف يثبت ملك هذا ولي عهده؟ وهل يستطيع من كان في حالة أن يحكم مملكة أولها على بحر الهند وآخرها على شواطئ بحر الظلمات، وفيها من أصناف البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة ما لم يجتمع في مملكة واحدة، ناهيك بالأحزاب السياسية ومطامع أهل النفوذ؟». على أنهما سارا وهو يتقدمهما بلباسه الملون المصقول وقلنسوته المصنوعة من الأزهار والرياحين، حتى وصلوا إلى بقعة من البستان مستديرة وجدوا في وسطها رجلاً كبير اللحية عريضها، عليه قلنسوة التجار، ويظهر من ملامحه أنه

هندي، وبين يديه كبشان كبيران أبيضان، وقد نقش عليهما بالألوان صوراً وأشكالاً، وعلق في عنق كل منهما عقداً من العقيق، وصبغ قرني أحدهما بالخضرة وقرني الآخر بالحمرة، فلما أقبل الأمين عليه وقف الرجل وتقدم لتقبيل يده فمنعه وقال: « أيهما كبشي؟ ».

فأشار الرجل إلى الكبش ذي القرنين الأحمرين وقال: « هذا هو يا مولاي ».

فقال وهو ينظر إلى الفضل: « فالآخر إذن كبشك. وليتناطحا وللغالب منهما عقد آخر يعلق في عنقه، على أن يشتريه له صاحب الكبش المغلوب ».

فلم يسع الفضل إلا إظهار الشكر على هذا الإنعام وقال: « أرجو أن يغلب كبش مولاي، وإذا غلب كبشي فإنه يخجلني ».

فضحك الأمين حتى كاد يستلقي وقال: « وأنا أطلب إلى الله ألا يغلب يغلب كبشك ليس لأنه لك ولكن ». وضحك.

فلم يفهم الفضل قصده والتفت إلى ابن الهادي فرآه يبتسم فاستفهمه بعينيه فقال وهو يخفض صوته: « لأن اسمه برمك ».

فأدرك الفضل أن الأمين يتفاءل بأن يغلب كبشه الكبش «برمك» ويعد ذلك بمثابة انتصاره هو على جعفر البرمكي. كما أدرك أنه لم يسم الكبش الآخر «جعفر» لأن ابن عمه اسمه جعفر أيضاً. ثم أخذ الكبشان في المناطحة، وراعيهما يعلم رغبة الأمين في أن ينتصر كبشه فكان يبذل جهده حتى تم ما أراده الأمين وكان كبشه الغالب، فضحك وسر، وأمر لصاحب الكباش بجائزة. ثم جاءه الغلام يقول: « إن صاحب الأدياك قادم يا مولاي فهل تأذن في أن تشاهد مهارشتها؟ ».

قال: « اصرفه فقد كفانا الآن ما شهدناه من مناطحة الكباش، وأزفت ساعة المنادمة ». قال ذلك ومشى نحو القصر على الحصباء في طرق الحديقة.

وكان قصر الأمين قائماً على شاطئ دجلة الأيسر وله نوافذ ورواشن

وشرفات يطل منها على النهر. وفي وسطه بهو كبير أشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون، يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصوري الفرس، أو هي صناعة ممزوجة من فنون الفرس والروم. والسقف قائم على أساطين من الرخام محلاة بالذهب. ولولا سور القصر الخارجي الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن في دجلة ذاهبة جائية. على أنهم جعلوا في السور باباً يمكن النزول منه إلى الشاطئ على مسناة ترسو عندها الحراقات وغيرها. وكان الأمين مولعاً باقتناء السفن والتفنن في أشكالها وصورها. فاصطنعوا له حراقات على صور الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس. وقد أنفق في اصطناعها مالاً عظيماً.

وكان للقصر من جهة البستان باب كبير هو بابه الأصلي، يدخل منه الزوار. وهو قائم في منتصف جدار على شكل نصف دائرة، يصعد إليه ببضع درجات. وإلى جانبي الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط في استدارته، وقد نقش على أعلى الباب بالحرف الكوفي الجميل: «محمد الأمين بن هرون الرشيد». والقصر محاط بسور كبير عال على عادتهم في تعلية الأسوار.

وكان الأمين وهو ماش في الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين يديه يتسارعون في نقل خبر مجيئه. فلما أقبل على القصر وقف الحاجب احتراماً له وهو لا يبالي. فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجعفر في أثره، فمروا في دهليز ينتهي إلى باحة مستديرة في صدرها باب يؤدي إلى دهليز آخر ينتهي إلى دار النساء، وهي قصر قائم بنفسه يتصل بوساطة بعض قاعاته بالمصطبة التي تقدم وصفها، وفي يمين الباحة المستديرة باب يؤدي إلى دهليز ينتهي ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والأعوان والعبيد ومن إليهم. وإلى يسار الباحة باب آخر يؤدي إلى دار الأضياف، وهي غرفة كثيرة ومطابخ وموائد كأنها بلدة صغيرة.

***

وصل الأمين إلى باحة القصر، فهرع إليه كبير الخصيان السود، ومشى بين يديه حتى وصلوا إلى ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدي إلى دار النساء، فأزاحها ودخل الأمين إلى الدهليز، ودعا الفضل وجعفر فتبعاه، وخطواتهم لا يسمع لها وقع لأنهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان. فلما انتهوا من الدهليز الثاني أشرفوا على حديقة فيها الأزهار والرياحين ووراءها دار النساء يصعد إليها بست درجات من الرخام الأحمر، وعلى بابها ستارة ثمينة من الديباج سماوية اللون كتب عليها بالقصب أبيات لحاتم الطائي هي:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها لأبعثها خفا وأترك صاحبي
إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فاردفه فإن حملتكما فذاك، وإن كان العقاب فعاقب

وكان رئيس الخصيان ماشيا بين أيديهم، فلما أقبلوا على هذا الباب تقدم وأزاح الستارة فدخل الأمين ورفيقاه إلى قاعة كبيرة أشبه بقاعة الاستقبال، وعلى جانبيها بابان يؤدي أحدهما إلى مخادع النساء والباب الآخر إلى مجالس خاصة هي قاعات لكل منها فرش خاص بلون خاص. ولم يكن غرض الأمين الذهاب إليها، وإنما أراد الخروج إلى المصطبة وراء تلك الدار، ولما دخل الفضل وابن الهادي تلك القاعة سمعا ضرب العيدان على غير نظام كأن أصحابها يسوونها، فلبثا ينتظران ما يفعله الأمين.

وكانت هذه القاعة مفروشة بالحرير المزركش، وفي جدرانها صور بعض ملوك الفرس والروم على أفراسهم، وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر، وقد صنع كثير من هذه الصور تنزيلا بالذهب أو بالعاج على ألواح من خشب الأبنوس، وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب. وعلى أبواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير ضخمة من الفضة، وفي أرضها بساط واحد ربما بلغت مساحته عشرين ذراعاً في عشرين،

وحولها مما يلي الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغشاة بالابرسيم الموشى، وفي زواياها مناور من الفضة توضع فيها الشموع للإضاءة.

فلما وصل الأمين إلى هذه القاعة وسمع طنطنة العيدان وراءها جلس على سرير من الآبنوس المنزّل فيه العاج كان قائماً هناك، وأشار إلي رفيقيه فجلسا، ثم أومأ إلى قيم الخصيان إيماءة فهمها فحنى رأسه وخرج، والفضل في قلق لا يدري هل وصلت قرنفلة ورفيقاتها أم لا؟ وابن الهادي ينظر إلى الأمين وفي نفسه أمور عظام لو تنفسها وتخرجت زفيرا لأحرقت تلك القاعة بما فيها، ولكنه كان كظوما صبورا. ثم ما لبثوا أن سمعوا ضرب العيدان على توقيع واحد ونغم واحد، وإذا بباب من أبواب القاعة فتح وخرج منه سرب من الجواري في أيديهن العيدان، فمررن في القاعة عشرا عشرا يضربن على العيدان ضربا رخيما ويغنين بصوت واحد، فإذا فرغ العشر انصرفن من الباب الآخر. وجاءت عشر أخر وفي أيديهن عيدان أخر فغنين غناء آخر، فإذا انصرفن جاء عشر أخر وهكذا، حتى تمت عشرة أفواج. فلم يكن شيء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر لأنهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد. وإنما أدهشهما ما جاء بعد الجواري من أسراب الغلمان والخصيان وعليهم الألبسة الثمينة الباهرة مما لم يسبق الأمين إليه أحد في الإسلام على هذه الصورة. وكان يغالي في اقتناء الخصيان فيطلبهم من أقاصي البلاد وينفق في استجلابهم بسخاء، وزاد في ذلك بعد خلافته. وسماهم «الجرادية» وفرض لهم فرضا خاصا واصطنع أجواقا أخر من الغلمان الحبشان سماهم «الغرابية» وفرض لهم الأموال. وأخذ الناس عليه ذلك ونظموا فيه الأشعار أما أثناء ولاية العهد فكان لا يزال في أول عهده بهذا الطرب الدخيل، فكان الغلمان يدخلون أفواجاً وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة وفي أيديهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون، والأمين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شراباً لأنه كان ينوي الاصطباح في المصطبة.

وحينما مر الجميع أشار الأمين إلى القيم إشارة أخرى، وأشار إلى رفيقه فنهضوا جميعاً وفتح لهم القيم بابا في صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات إلى دهليز في جانبيه أبواب مقفلة تؤدي إلى غرف وقاعات عديدة، وعند منتهى الدهليز وصلوا إلى المصطبة وكأنهم خرجوا من الخباء إلى الخلاء، فوجدوا المكان على سعته قد فرش بالنمارق والطنافس، وفي صدره فرش عالية فوق سرير من الآبنوس المنّزل بالذهب لا يرتقي إليه إلا بكرسي وبجانبه عدة كراسي ووسائد فوق الطنافس وحوالي الأساطين أو الجدران. ونصبوا وسط المصطبة سماطا هو بساط من جلد جميل الصنعة فوقه ملاءة من الحرير. وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم، مستديرة الشكل، قصيرة علوها شبر، وأتوا بالأباريق البللور أو الفضة وفيها الأشربة والأنبذة بالأقداح على اختلاف أشكالها وألوانها ويتخلل ذلك أطباق الفاكهة واللحوم الباردة ومزاهر الأزهار وقد فاحت رائحة المكان بالأطياب العطرية. فصعد الأمين إلى سريره وأشار إلى ابن عمه فجلس والتفت إلى الفضل وقال: « أراك لا تزال بثيابك، اخلعها وألبس ثياب المنادمة». ثم صاح: « يا غلام هات ثياب المنادمة».

فجاءوه بثوب معصفر، وأصر الأمين على أن يجعل على رأس الفضل إكليلاً من الزهر مثله، ثم صفق فدخل القيم فقال: « إلينا بالمغنيات، هل أتانا من الجواري جديد؟».

فقال: « لا يا مولاي ولكن لدينا مغنيات ليس في بغداد أحسن منهن، حتى في دار أمير المؤمنين، فهل آتي بهن؟».

قال: « هات الوصائف بالمراوح أولا، ثم اختر لنا أحسن المغنيات نتعلل بهن ريثما يأتي أولئك». فقال: « سمعا وطاعة». وخرج.

وبعد هنيهة أقبلت جارية فتنة للناظرين، يظهر من ملامحها أنها كرحية الأصل دخلت المصطبة نافرة كالغزال انفلت من شبكة الصاد، وعليها قميص اسكندراني شفاف يشف عن أثوابها جميعا وفوقه قرطق مفروج،

كالقباء المفرد، وقد أشرق بياضها إشراقاً باهرا، وجعلت شعرها طرة أسبلتها على جبينها وتعصبت بعصابة نقش عليها بصفائح الذهب هذا البيت:

مالي رميت فلم تصبك سهامي ورميتني فأصبتني يا رامي

وقد أدارت صدغيها وتقوس حاجباها على عينين ملئتا سحرا، وأنف كأنه قصبة در، وفم كأنه جرح يقطر دما، وبيدها مروحة عريضة من ريش النعام مغشاة بالحرير المزركش، وطرزت عليها بالذهب هذه الأبيات:

بي طاب العيش في الصيـ ـف وبي طاب السرور
ممسكي ينفي أذى الحر إذا اشتد الحرور
الندى والجود في وجـ ـه أمين الله نور

وقد قبضت على المروحة بأنامل منقوشة بالحناء، وفي معصمها الأساور والدمالج إذا حركت يدها للترويح سمع لها وسوسة. وفي صدرها هلال من ذهب مرصع بالجوهر وقد نقش عليه:

أفلت من حور الجنان وخلقت فتنة من يراني

فافتتن جعفر والفضل برؤيتها، ولكنهما تهيبا لعلمهما إنها وصيفة الأمين جاءت لتروح له، فمشت وهي تنتقل على رؤوس أصابعها وتتمايل حتى دنت من الأمين فوسع لها الفضل فصعدت على دكة بجانب سرير الأمين وأخذت تروح بالمروحة، وفي يدها الأخرى منديل إذا تندى جبينه بالعرق مسحته له.

ثم دخلت جارية أخرى يظهر من ملمحها أنها رومية الجنس، عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الأحمر، وقد وضعت على رأسها ضفائر شعر مسدلة كأنها العناقيد تتدلى إلى أسفل ظهرها. وفوق الشعر تاج مرصع، وفي عنقها عقد ثمين تدلى منه صليب من الذهب المرصع وعلى التاج بيتان من نظم أبي نواس هما:

يا راميا ليس يدري ما الذي فعلا عليك عقلي فإن السهم قد قتلا

أجريته في مجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

وتمنطقت بمنطقة شدت بزنار. وعلقت المروحة بها، وعلى المروحة هذا البيت:

أتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

فلما دخلت أشار الأمين إليها فوقفت بجانب ابن عمه جعفر وأخذت تروح له. ثم دخلت جارية ثالثة تختلف في هندامها عن صاحبتيها، وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التي تنسب إلى سكينة بنت الحسين لأنها أول من اصطنعها في المدينة منذ قرن وبعض قرن قبل ذلك، ولم تشد فوقها عصابة ولكنها كتبت فوق جبينها هذين البيتين:

يا هلالا من القصور تجلى صام طرفي لمقلتيك وصلي

لست أدري: أطال ليلي أم لا؟ كيف يدري بذاك من يتقلى؟

وقد لبست درعاً من القطيفة أبيض اللون، كتب على جانبه الأيمن بالتطريز:

كتب الطرف في فؤادي كتابا هو بالشوق والهوى مختوم

وعلى الجانب الأيسر:

كان طرفي على فؤادي بلاء إن طرفي على فؤادي مشوم

فلما دخلت علم الفضل أنها ستقف بجانبه تروح له فمشت وهي تلاحظ ما يبدو من الأمين فإذا هو يشير إليها أن تذهب إلى الفضل، فوقفت إلى جانبه وأخذت تروح له.

ودخل جماعة من الغلمان يحملون آنية الشراب في ثياب مختلفة الألوان. فعلى بعضهم ثوب أحمر، أو أصفر، أو أخضر، وعلى بعضهم ثوب أحمر أو أصفر معاً من عدة ألوان، وكلهم في عنفوان الصبا على جانب كبير من الجمال. وأكثرهم لا يعرفون العربية وإذا تكلموها رطنوا لأن بعضهم من الصقالبة البعض الآخر من الكرج أو الترك أو الروم، وكلهم حديثو الإقامة ببغداد، وأكثرهم خصيان، وقد تفنن قيم الغلمان في تزيينهم،

كما تفننت قيمة الجواري في تزيين الوصائف اللواتي ذكرناهن. فكان على أحدهم قباء كتب على عاتقه الأيمن:

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبير

وكتب على عاتقه الأيسر:

خطت صفيحة خده من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بأباريق الشراب، والإبريق في يد والكأس في الأخرى، والكؤوس من البلور الملون، وبعضها من خالص الذهب عليها نقوش كتابية أكثرها أشعار في مدح الخمر ووصفها كهذين البيتين لأبي النواس:

أشرب على منظر أنيق وأمزج بريق الحبيب ريقي
وأحلل وشاح الكعاب رفقا واحذر على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي إليك خلي عن الطريق

وجلس الأمين وصاحباه في انتظار المغنيات، فإذا هم يسمعون ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم، ثم ظهرت مغنية صفراء ليست من الجمال في شيء لأنهم لم يكونوا يعلمون الجواري البيض الغناء، ومشت وهي تضرب ضرباً مسكراً وتغني بصوت رخيم حتى أقبلت وفي أثرها أربع جوار يحملن العيدان ويرقصن على توقيعها. فما سمع الأمين الغناء حتى صاح: «إلي بصاحب الشراب». فجاء رئيس السقاة وأخذ يوجه الساقين فأرسل غلاماً إلى الأمين بقدح قدمه إليه فشربه، وأمر بمثله للفضل وجعفر. فتناولا القدحين وتظاهرا بالشرب مسايرة له. أم الجواري فجلسن على دكة من الوسائد معدة لهن في بعض جوانب المصطبة، وبعد أن دارت الكؤوس وطرب الأمين قال: «أين الحسن بن هانئ. أين أبو نواس؟».

فقال رئيس الخصيان: «في دار الأضياف يا مولاي».

فقال: «إلي به». قال: «سمعاً وطاعة». وهم بالخروج فاسترجعه الأمين قائلاً: «احذر أن يدخل علي بغير ثياب المنادمة».

فأشار مطيعاً وخرج. وما لبث أن عاد يقول: « إن أبا النواس بالباب».

فقال الأمين وقد أخذته هزة الطرب: « يدخل».

فدخل أبو نواس، وكان يزعم أنه جاوز الأربعين، وما زال الجمال ظاهرا في محياه، وغلبت عليه ملامح الاهوازيين لأن أمه منهم، وأرخى لحيته وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلا. وكان أزرق العينين تتجلى فيهما الدعابة والذكاء معاً، وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة قبعة (طاقية) حمراء وتزمل بثوب من ثياب المنادمة فاقع الصفرة. فلما أقبل قال له الأمين: « أهلا بشاعرنا، إن هذا المجلس لا يحلو إلا بشاعر. والشعراء زينة مجالس الغناء».

فانحنى أبو نواس ووقف، فأشار إليه أن يجلس بجانب الجواري المغنيات وأشار إلى بعض الغلمان فقدم له وسادة جلس عليها. فتذكر الفضل أبا العتاهية وأن هذا وقته، وكان قد أسر إليه أمراً لما فارقه وخاف أن يكون قد نسيه، فأخذ يفكر فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من أسباب اللهو ويظهر التهيب في مجلس ولي العهد وفي نفسه أمور دفعه إليها جاره جعفر بن الهادي. واغتنم جعفر فرصة اشتغال الأمين بسماع الغناء وسأل الفضل عن الجواري اللواتي ابتاعهن ومتى يصلن، فأجابه بضم أنامله جميعاً كأنه يقول: « إنهن يصلن قريبا». ثم التفت إلى أبي نواس وقال له: « ألا تقول شيئاً يغنينه فيطرب ولي العهد؟».

فلما سمع الأمين قوله وقال وقد لعبت الخمر في رأسه: « لا يقول شيئا قبل أن يشرب رطلا». وأشار إلى الساقي فملأ رطلاً ودفعه إلى أبي نواس، فشربه مرة واحدة وأرجعه إلى الساقي وأشار برأسه أن « هات أيضاً».

فطرب الأمين لمحبته للشراب وضحك حتى استلقى وفي يده تفاحة يأكلها، وقال له في فمه قطعة منها: « اطربنا يا ابن الأهوازية».

فأجابه والمجون ظاهر في سحنته: « أيريد مولاي أن يطرب بالمدح أو بالطعن».

فابتدره الفضل بن الربيع قائلاً: « ألا تكف عن مزاحك؟ كيف يسأل الأمير هذا السؤال؟ وهل يطرب أحد بالطعن؟ إن الأمير يسألك أن تلقن هؤلاء القيان أبياتاً يغنينها فيطرب».

فنظر أبو النواس إلى الفضل شزرا، ثم تماجن وقال: « وما أدراك ماذا يطرب الأمير؟ أتريد أن تحترف المنادمة فضلاً عن الوزارة؟ إني أخاطب سيدي وهو يفهم مرادي».

فاستغرب الفضل جرأته وأراد أن يجيبه فسمع الأمين يقول: « لقد فهمت مراده». ثم التفت إلى أبي نواس وقال: « أطربنا بالطعن ليرى الفضل أن الطعن قد يطرب بما لا يطرب المدح. ألق على الجارية بيتا أو بيتين من هذا القبيل».

فأصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم، وحامت أبصارهم على أبي نواس فإذا هو قد أدنى رأسه من الجارية التي بيدها العود، وأسر إليها أبياتاً، فسوت العود والكل سكوت حتى الأمين ثم أخذت تغني:

عجبت لهرون الإمام وما الذي يود ويرجو فيك يا خلقة السلق[1]
أرى جعفرا يزداد بخلا ورقة إذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعوه الناس إلا على حمق

وكانت الجارية تغني وتجيد في غنائها، والأمين يهتف طربا عند كل مقطع. وفطن الفضل للسر منذ بدأت الجارية في غناء البيت الأول إذ أدرك أن أبو نواس يعرض بجعفر بن يحيى البرمكي عدوه، فكان طربه أكثر من الطرب الأمين. وكان جعفر بن الهادي أكثر طربا منهما فصاح بأبي نواس قائلاً: « لله درك ولا فض فوك». وكان في يده عقد من الجوهر يلاعبه بين أنامله فهمّ بأن يرميه إليه. ولكنه تذكر أنه في حضرة ولي العهد ولا يستحسن أن يسبقه إلى إجازة الشاعر، فالتفت إلى الأمين واستأذنه في ذلك فأذن له،

---

١) السلق بكسر السين جمع سلقة بمعنى ذئبة، ويقال للمرأة السليقة سلقة.

فرمى بالعقد إلى أبي نواس فوقع في حجره فتناوله ونظر إلى الأمين كأنه يستشيره في أمره، فضحك الأمين وقال: « أراك تبحث عن مكان تضع فيه العقد. ضعه هنا». وأشار إلى الجارية الواقفة على رأس الفضل. ثم قال: «وهي لك أيضاً. ولكن بعد انقضاء هذا المجلس، وإذا زدتنا زدناك».

فوقف أبو نواس ليشكر ذلك الصنيع، فأومأ إليه الأمين أن يجلس ويعود إلى ما كان فيه، وأشار إلى الساقي فأدار الأقداح وهو يبدل ألوان الأنبذة من نبيذ التفاح إلى نبيذ التمر فنبيذ العنب، وهي تتلألأ في الأقداح بين الصفرة والحمرة والشبهة والصهبة. ثم أشار الأمين إلى صاحب الشراب فأمر أحد الخصيان بأن يقدم القدح إلى أبي نواس بيده وكان الغلام عبلا جعد الشعر قد صففه على جبينه بشكل بديع. فأخذت أبو نواس سورة الخمر فنظر إلى الغلام ثم إلى الأمين فابتدره الأمين قائلا: « صفه وهو لك». فتناول أبو نواس القدح من يده وقال:

يسعى بها خنث في خلقه دمث ... يستأثر العين في مستدرج الرائي
قد كسر الشعر واوات ونضده ... فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
عيناه تنفث داء في محاجره ... وربما نفعت في صولة الداء
إني لأشرب من عينيه صافية ... صرفا وأشرب أخرى مع ندمائي

فلما سمع الأمين شعره صاح فيه: « ويلك كفى. هو لك».

فلما رأى الفضل الخمر دارت في رأس الأمين أراد أن يغتنم الفرصة فقال له: « هل نسي مولاي القيان البيض؟»

فقال: « كيف أنساهن، هل أتين؟». ونظر إلى قيم الدار مستفهما فقال: « نعم يا مولاي قد جئن منذ ساعة».

فقال: « إلي بهن الساعة».

فخرج وما عتم أن عاد مهرولاً مذعوراً وفي أثره رجل قصير قد اكتسى جلد قرد، وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل وفي قمتها جلاجل وهو يقهقه قهقهة القردة، ووثب حتى توسط المصطبة وأخذ في الرقص فقهقه الأمين

وأغرق في الضحك حتى استلقى على ظهره، ولم يبق أحد لم يضحك، وعلا الضجيج فقال الأمين: « أليس هذا أبا الحسين الخليع؟ ».

فانتبه القيم وقال: « بلى يا مولاي هو بعينه قبحه الله أنه ذهب بعقلي» فقال الأمين: « دعه وامض إلى الجواري ».

وتشاغل الحضور بالضحك ريثما عاد بالمغنية قرنفلة، وبيدها العود تضرب عليه ضربا رخيما، وقد تكحلت وتبرجت وأرخت شعرها على كتفيها. ودخلت الجاريتان الأخريان في أثرها وبيد كل منهما عود فوقفت بين يدي الأمين وهي تضرب على عودها نغما لم يسمع مثله من قبل، فأومأ إليه الأمين فجلست وغنت:

لم تلده أمة تعـرض في السـوق أتجـارا
لا ولا حد ولا خان ولا في الخزي جارا

وكان الفضل في أثناء ذلك يراقب حركات الأمين، فإذا هو يرفس الأرض برجليه طربا ويصيح: « صدقت صدقت، قبحك الله! ».

ولم يستغرب الفضل ذلك بل كان يتوقعه منه، لأنه هو الذي أوعز إلى أبي العتاهية أن يعلمها هذين البيتين لإثارة حقد الأمين على أخيه المأمون، وللتعريض بأن أم المأمون جارية، وبأن الرشيد حده في جارية وجده معها.

-٨-

إسماعيل بن يحيى

استمر المجلس على تلك الحال من الطرب والضحك والشراب، حتى وقت الأصيل، ثم سمع الأمين نباح كلاب كان قد جعلها على شاطئ دجلة وراء المصطبة لتنبح إذا رأت غريباً. فأمر بعض غلمانه أن يستطلع سبب نباحها، فخرج الغلام من باب سري يؤدي إلى الشاطئ ثم عاد مسرعاً يقول: « أرى سفينة تدنو من الشاطئ أظنها حراقة إسماعيل بن يحيى الهاشمي ».

فلما سمعوا الاسم سقط في أيديهم، واقشعرت أبدانهم كأنما صب عليهم ماء حار، ولا سيما جعفر بن الهادي فإنه امتقع لونه وظهرت الدهشة على وجهه، ثم أشار الأمين إلى المغنيات فسكتن، وتحولت الضوضاء إلى دهشة، واستولى السكوت على الجميع هنيهة سمعوا في أثنائها ربان السفينة يأمر النوتية بأن يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطئ، فوجم الأمين وتجلد وقد ذهب سكره وتذكر حاله، فنزع الإكليل عن رأسه كأنه يريد أن يخفي مجونه وتهتكه. واقتدى به غيره ولكن أنى لهم أن يخفوا مجونهم والأقداح متناثرة بين أيديهم والأباريق مملوءة والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من أسباب الخلاعة واللهو؟

ثم تجلد الأمين ونهض من مجلسه وصاح بغلامه أن يسأل أهل الحراقة عن صاحبها. فخرج الغلام ثم عاد يقول: «إن إسماعيل بن يحيى يستأذن في الدخول».

فقال: «يدخل، أهلاً به ومرحبا».

ولحظ الحضور رغبة الأمين في إخفاء تهتكهم، فأخرجوا الخليع وأمروا الجواري بالسكوت وجلسوا ينتظرون وصول إسماعيل وكأن على رؤوسهم الطير. وما عتم الغلام أن رجع وفي أثره شيخ جليل المنظر وسيم الطلعة، عالي الجبين، طويل القامة عريض المنكبين عليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة حولها عمامة من خز، وهو لباس العباسيين الرسمي.

وكان إسماعيل بن يحيى من جلة بني هاشم رهط الخليفة. وكان من أهل التعقل والحزم، فزادته الشيخوخة وقارا، وكان مسترسل اللحية وقد اشتعل رأسه شيبا فلم يخضبه ترفعا عن بهارج الدنيا، لأنه كان حكيماً نير البصيرة يرى الأمور كما هي ويقدر الناس على قدر مناقبهم ومواهبهم، لا بأنسابهم وظواهرهم. ومع كونه هاشمياً من أعمام الخليفة، لم يكن يرى في ذلك ما يفضله على سواه إلا إذا قرن بالتقوى والصالحات. وكان مطلعاً على دخائل الدولة عالماً بما تنطوي عليه شؤون أهلها. ولم يكن يحب الرشيد

لأنه هاشمي، ولا يكره جعفر البرمكي لأنه فارسي. وإنما كان ينظر إلى الأمور من حيث هي. وغرضه الأول سلامة الدولة العباسية من العلل وخلوصها من أسباب الفشل، ولا يهمه على يد من تكون سلامتها.

فكان ينظر إلى ما يحاك من الدسائس بين الرشيد وبين وزيره، أو بين الأمين وأخيه، أو بين غيرهما من الأحزاب المتنافسة. نظير الحكيم الناقد البصير الذي يشرف على أهواء الناس من سماء تعقله وفلسفته، ويسعى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفاسد ذوي المطامع الدنيوية وأرباب الأهواء النفسانية. فلم يكن يهمه أن تقضي الخلافة إليه بقدر ما يهمه صلاحها وتوطيد دعائمها وطول بقائها وكان أعلم الناس بمواضع الضعف والقوة في الرشيد ووزيره. وله الدالة على كليهما والكلمة النافذة عندهما، ولا سيما الرشيد الذي كان يجله ويحترمه ويعظم شأنه لما تحققه من كبر نفسه ونزاهته وسلامة نيته فضلاً عن ذكائه وسداد رأيه، وطبيعي أن من كان هذا شأنه لا بد أن يهابه الناس ويحترموه حتى الملوك. فإنهم مهما يبلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلا لا يجتمعون به إلا استمعوا لنصيحة يتحققون أنها صادرة عن محض الإخلاص. ولا يتباحثون معه إلا آنسوا منه تعقلا فوق تعقلهم. فكيف إذا أضيف إلى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشيخوخة. فلا غرو إذا نال إسماعيل هذه المنزلة عند الرشيد ورجال دولته، لاشتهاره بالغيرة على سلامة الدولة والتفاني في سبيلها. على أنه لم يكن يقدم على نصيحة أو مشورة إلا إذا رأى الصلح نافذا. والتصريح به ممكنا. فإذا افتقر إلى تلون أو رياء تباعد وتحاشى. ولذلك لم يكن يعجبه الأمين ولا يرى نصحه نافعاً. فكان يبتعد عنه ويحاذر أن يحضر مجلسه.

أما مجيئه في ذلك اليوم فسببه أنه كان يرقب جعفر بن الهادي، ويعلم ما يضمره من الحقد على الرشيد والبرامكة، ثم بلغه أنه يصاحب الأمين فلم يطمئن على ذلك. وكان إسماعيل وجعفر يقيمان بالبصرة شأن أكثر بني هاشم المتقاعدين الذين يعيشون من أعطيات الخليفة وهباته من الأموال

والضياع. ولكنه لم يكن ممن يحبون اللهو والقصف. بل كان عفيفا حازما يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم، وعلم أن النصح لا ينفعهم فكف عن نصحهم إلا جعفر بن الهادي فإنه كلفه من صغره مذ مات أبوه، فشب جعفر لا يشرب مسكراً ولا يميل إلى اللهو، وإنما كان يعاشر الأمين ويغريه بزيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفى على إسماعيل. وكان يخاف بقاءه على عزمه لأنه لا يرى فيه صلاحا للدولة بل هو يخاف عليها منه. وكثيراً ما نصحه بالرجوع عن ذلك فكان يعده ثم يخلف. فلما علم منذ أيام وهو في البصرة بأنه أتى إلى بغداد، ظن أنه جاءها لترويح النفس، أو لأخذ عطائه، فلما أبطأ خاف عاقبة إبطائه فلحق به مظهراً أنه آت لغرض آخر خاص به. فلما وصل إلى بغداد واستطلع أخباره علم أنه نازل في قصر الأمين لا يخرج منه. فلم ير بدا من مقابلته هناك، وكانت له سفينة على دجلة إذا جاء بغداد ركبها. فاستعد في ذلك اليوم وقصد إلى قصر الأمين.

فلما دخل إسماعيل مجلس الأمين، تهيبه كل من في المجلس حتى الأمين نفسه رغم سكره الشديد، فوقف لملاقاته والترحيب به. وأما جعفر ابن الهادي فوقف منزويا وقد ارتج عليه. ولم يبق ثابت الجأش متجلدا إلا الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلاً عن دهائه. فتقدم إلى إسماعيل مرحبا به. وأظهر رغبته في تقبيل يده وهو يقول: « مرحباً بمولاي»، . ثم قدم له كرسيا.

فنظر الشيخ إلى ما حوله من الجواري والغلمان والعيدان والأباريق والأقداح وغير ذلك من أسباب الأنس والطرب فعلم أنه إذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم، فتظاهر بأنه لم يكن يقصد الزيارة في تلك الساعة ولكنه ظن أنه سمع صوت جعفر بن الهادي هناك. قال ذلك وهو يتجاهل أنه رآه.

فظهر الوجل على وجه جعفر وأقبل متأدباً وهو يتجلد، وعلم أن إسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال: « كنت عازما على الخروج من

الصباح، فأمسكني ولي العهد في هذا المجلس ليسمعني غناء الجواري البيض وألبسني المنادمة، فإذا أحب سيدي أن أنطلق في خدمته فعلت».

فأظهر إسماعيل سروره بلقياه وقال: « لا بأس يا ولدي فإني مشتاق إلى رؤيتك فإذا أحببت الانصراف فانزل معي إلى السفينة ودع القوم في مجلسهم، فإن مقامي لا ينفعهم». قال ذلك وتحول ومشى، فاستأذن جعفر حتى يبدل ثيابه ثم يلحق به إلى السفينة.

وخرج إسماعيل وأهل المجلس سكوت تهيبا، وقد سر الأمين لذهابه. أما جعفر بن الهادي فأسرع إلى غرفته فلبس قلنسوته وسواده ونزل إلى السفينة فوجد إسماعيل يتمشى على ظهرها وقد أرسل قلنسوته إلى الوراء وظهر الاهتمام في جبينه وعينيه. فلما أقبل عليه ترامى على يديه ليقبلهما، فجذبهما منه وقال: « ما هذا المجلس يا جعفر؟ أمثلك يفعل ذلك؟!».

فتراجع وأطرق ولم يجب، ثم أمر إسماعيل ربان السفينة بأن يمضي بهم إلى مرسى بعيد عن القصر، وأمسك بيد جعفر وسارا إلى مقعد في مؤخر السفينة يشرف على الماء فأجلسه إلى جانبه وقال: « لم يكن عهدي بك أن تجالس هذا الغلام، فهل طاب لك اللهو والتهتك؟».

قال: « هل ترى فيّ أثر الشرب؟ إني والله لم أذق الخمر؟».

قال: « لا أقول أنك تسكر، ولكنني أعهد فيك التعقل والرزانة، وكنت أحسبك إذا لقيت الأمين في مثل هذه الحال أنبته ووبخته لا أن تجلس معه وتسايره!».

فتنهد جعفر وحول بصره إلى مقدم السفينة متشاغلاً بما يراه من سبر النوتية قاع النهر بالعمد ليسيروا بالسفينة إلى مأمن، فلما رأى إسماعيل سكوته أدرك ما يضمره وقال: « يخيل إلي أنك لا تزال على سوء ظنك بهؤلاء، وكأنك لا تزال طامعاً؟».

فلم يتمالك ابن الهادي عن قطع الحديث قائلاً: « لست طامعا يا سيدي، فإني إنما أطلب حقي!».

قال: « وأي حق تعني؟ ».

فخفض صوته وهو يلتفت مخافة أن يسمعه أحد ثم قال: « أعني أن هؤلاء الموالي سلبوني حقي بعد ما قتلوا أبي وأخرجوا الخلافة من يدي، وأنت أعلم أني أولى الناس بها ».

فتظاهر إسماعيل بالاستخفاف وقال: « لا أجادلك فيما تدعيه من الحق، ولكنني لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله، ما العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس؟ ولقد طالما دافعتني بمثل هذا المقال، فأخبرني ما هو حقك وممن تطلبه؟ ».

فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه: « أتسمح لي بأن أصرح بما في نفسي، إني أتهيب ذلك بين يديك ».

قال: « قل ولا تخف، فإني إذا رأيت طلبك صواباً أعنتك عليه، وإلا فإني أنصحك وأكتم أمرك ».

قال: « أنت تعرف أن أبي الهادي عليه رحمة الله تولى الخلافة بوصية جدي المهدي، وتعلم أنه أوصى لي بالخلافة بعده ».

قال: « أظنك تطمع في تنفيذ وصيته، ألا تعلم أنه ارتكب بها شططا لأن المهدي إنما أوصى بالخلافة لأبيك ثم لعمك الرشيد بعده، فلما تم له الأمر أراد إخراج الرشيد من الخلافة ومبايعتك بها، فهل تعد ذلك حقا؟ ».

قال: « لا أنكر عليك أنه خرج بذلك على وصية المهدي، ولكنهم راجعوه فرجع وأعاد البيعة إلى الرشيد على أن تكون الخلافة لي بعده. ألا تذكر ذلك؟ ».

قال: « نعم أذكره ».

قال: « فما بالهم على أثر ذلك فتكوا بأبي وقتلوه، فلم يجلس على عرش الخلافة إلا سنة وبعض السنة؟ ».

فقال مستغرباً: « قتلوه؟! كيف هذا؟. أنا لا أعلم أنه مات مقتولاً، بل توفي بمرض، ولو زعمت أن أمه الخيزران قتلته لرأيت مسوغاً لهذا الزعم،

وأما غيرها فلا!».

فتضاحك جعفر وقال: «لا يبعد أن تكون الخيزران ارتكبت هذا الجرم كما يقولون، لأن أبي أغضبها بكف يدها عن التدخل في شؤون الدولة، ولكنها فعلت ذلك مدفوعة بإغراء ذلك الفارسي!». قال ذلك وحرق أسنانه.

فقال إسماعيل: «أظنك تعني يحيى بن خالد».

قال: «نعم إياه أعني، والدليل على ذلك أنه هو الذي وقف في سبيل أبي وعارضه في البيعة، وكان الرشيد قد أذعن للخلع ورضي بتحويل البيعة إلي، فحرضه يحيى هذا على رفض هذه البيعة، وما زال يسعى حتى وافقه أبي أن يرجع البيعة إليه، على أن أكون أنا الخليفة بعده. فلما وافقه على ذلك أسرع إلى الفتك به، فلم تمض ليال قليلة حتى قيل أن الهادي مات، وزعموا أن جدتي الخيزران قتلته، ولكنني أعتقد أنها إذا كانت قد فعلت ذلك فإنما فعلته بإغرائهم، ألا تذكر أنه كان أول العارفين بالوفاة فهرول ليلاً إلى الرشيد وبشره؟. وقد حفظ له الرشيد هذه اليد فألقى مقاليد الحكومة إليه. ثم أفضت إلى ابنه جعفر الوزير الحالي، وهو على ما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح أن يقال أنه هو الخليفة لا الرشيد؟!.

-٩-

البرامكة والدولة

كان جعفر بن الهادي يتكلم والعرق يتصبب من جبينه، وإسماعيل يصغي إلى قوله، وربما شاركه رأيه ولكنه لم يكن يرى أن يشجعه عليه لاعتقاده أن ذلك ليس في صالح الدولة في شيء، بل قد يؤدي إلى فسادها، فعمد إلى التماس العذر للبرامكة فقال: «أراك سيء الظن بالبرامكة، كأنك تجاري أعداءهم في الطعن على أعمالهم، وأنت تعلم أن للبرامكة فضلاً على هذه الدولة لا يضارعه فضل. وأنا هاشمي كما تعلم، والخليفة من لحمي ودمي يسوءني ما يسوءه ويسرني ما يسره، ولكنني أراكم ظلمتم هؤلاء

الموالي ونسيتم آثارهم في تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد، ألم يكن خالد من أكبر أعوان أبي مسلم في نقل هذه الدولة من الأمويين إلينا؟. فلما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم وثار الفرس والأكراد عليه كادت تخرج الدولة من يده لولا أن أنجده خالد وضمن له التغلب عليهم بالرأي دون الجنود. ناهيك بما كان من تدبير شؤون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر. إن البرامكة يا ولدي هم جمال هذه الدولة وقوام أبهتها. وهذه بغداد كلها مليئة بآثار حسن تدبيرهم. فقد أقاموا فيها المكتبات والحلقات ومنازل الجند ومآوي المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة. وإن ما تراه من رواج سوق العلم والفلسفة، وتهافت أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس، إنما أصله ترغيب البرامكة فيه البذل والعطاء. أليس يحيى بن خالد أول من عنى بنقل المجسطي من اليونانية إلى العربية؟ وهل تنكر أنه هو الذي سعى في جمع الكتب من الهند وغيرها؟ أليس البرامكة هم الذين استقدموا أطباء الهند لترويج صناعة الطب؟ إن هؤلاء الأطباء بين ظهرانينا الآن. وهذا هو كبيرهم (منكة) الذي أشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه حتى كدنا نيأس من حياته فعالجه وشفاه. إن البرامكة هم الذين رغبوا الرشيد في إنشاء المارستان وولوا عليه طبيبا هندياً من هؤلاء، وأنشأوا مارستاناً لأنفسهم وولوا إدارته الطبيب الهندي (ابن دهن). وهل خفي عليك ما للفضل بن يحيى من الأثر الجميل في استخدام الورق؟. إنني لن أنسى كيف ضاق أصحاب الدواوين ذرعاً باستعمال الجلود والرقوق للدفاتر والسجلات حتى أشار الفضل باستعمال الورق فأنشأنا له المصانع في بغداد. وأراني لو أردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الإتيان على آخرها، وأنت تعلم عصبيتي لبني هاشم، وغيرتي على هذه الدولة ورغبتي في سلامتها، فليس يعقل أن أنطق عن هوى أو غرض، وإنما أقول الحق الصراح. فلا يغرنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وأمثاله عليهم وطعنهم فيهم، فإنهم يفعلون ذلك

حسدا لتقصيرهم عن مجاراتهم».

وكان جعفر أثناء هذا الكلام مطرقاً ينظر في حركة الماء الملامس لجدران السفينة وهي سائرة الهويناء، فلما فرغ إسماعيل من كلامه انتبه جعفر وقد ضاقت نفسه باطرائه البرامكة الذين يكرههم كرهاً شديداً. ولكنه لم يجد سبيلاً لدفع أدلة إسماعيل فلم ير خيراً من استئناف الكلام عنهم. فقال: «هب أنهم ملائكة نزلوا من عليين، ألم يقتلوا أبي فأخرجو الحكم من يدي؟».

قال: «أما أنه قتله فلا ريب عندي في ذلك وأن خفي على الأكثرين. وأما أنه فعل ذلك لإخراج الحكم من يدي فيدلك عليه أنه بعد أن وافقه أبي على أن يبايع للرشيد قبلي، عجل بقتله قبل تمكين البيعة لي. ثم لما تم الأمر للرشيد، سارع إلى المبايعة لابنه ذلك المتهتك، وأظنه كان عازما أن يجعل الخلافة لي بعد الأمين فأغراه وزيره البرمكي بالمبايعة لابنه الآخر المأمون، فأصبحت صفر اليدين، والله لو..». وتململ.

فابتسم إسماعيل وقطع كلامه قائلاً: «أني لأعجب من تناقض أعمالك وأقوالك. كيف تكون ناقماً على هذا الغلام وتجالسه في مجلس المدام والغرام؟. ثم إني لا أفهم معنى لهذه النقمة، إذ كيف تصل إلى بغيتك والرشيد على كرسي الخلافة، وحوله الجند والأعوان، وبنو هاشم ينصرونه ويؤيدونه. وقد بايع بالخلافة بعده لولديه الواحد بعد الآخر. فأقلع عما يجول في خاطرك من الأفكار الصبيانية، ولا شك أن الرشيد إذا أطلع على شيء مما في نفسك فإن لحمك يتناثر نتفاً بين السماء والأرض. ولكني كتمت أمرك وأكتمه لأني أرجو صلاحك ورجوعك. أما إذا أصررت على ما أنت فيه، فإن حرصي على سلامة الدولة يبعثني على التضحية بك. إلا إذا رأيت في أعمالك سدادا. فقل لي كيف ترجو الوصول إلى الخلافة؟».

وكان لتهديد إسماعيل وقع شديد على جعفر لأنه كان يحترمه ويخافه، فضاقت نفسه وانحبست عواطفه وكاد يختنق ودمعت عيناه لشدة تأثره،

فأطرق خجلاً وظهرت الحيرة في وجهه، ثم تجلد وقال: « أراك يا عماه مستخفاً بي وبأعمالي، وتحسب أني لا أتحفظ في أقوالي، ولكني لا أجهل قصر باعي عن مناوأة الرشيد وهو في جنده وأعوانه، ولست أطمع في ذلك وإنما أطمع في ذلك وإنما أطمع في الخلافة بعده وهذا ليس بالعسير إذا سقط وزيره البرمكي، فاسمع كلامي إلى آخره. إن الرشيد إذا مات فالخلافة تفضي أولاً إلى الأمين، وهو لا يصلح لها ولا أراه يزداد إلا انغماسا في القصف والترف واللهو فلا يبقى عليه أهل الدولة. وأما المأمون فهو والحق يقال ذو عقل وحزم، ولكنني لا أرى أحداً من الهاشميين يحبه، لأنه ينتمي إلى أخواله الفرس. ولا أظنك تجهل أن جعفر البرمكي هذا هو الذي سعى في مبايعته بالخلافة لغرض في نفسه لا يقل عن إخراج الدولة من أيدينا. أرجو الإصغاء إلى آخر كلامي، فالعقبة الوحيدة في سبيل استرجاع حقي في الخلافة هي وجود هذا الفارسي، وهو يستحق القتل إن لم يكن انتقاماً من أبيه لأبي فلأنه استأثر بأموال الدولة لنفسه وأهله. وأنت ترى أن دخلهم من ضياعهم ربما ضارع دخل بيت المال. فقد أخبرني سهل بن هرون، وهو أعلم الناس بذلك، إن مبلغ جباية هؤلاء الموالي عشرون ألف ألف دينار في السنة من ضياعهم ومرافقهم. ولا يخفى عليك يا عماه إن جباية المملكة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب لا يزيد على هذا القدر كثيرا. فقد علمت من صاحب بيت المال أن مجموع جباية نحو أربعمائة ألف ألف درهم، أي سبعة وعشرين ألف ألف دينار. ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالألف والعشرة آلاف كأننا نستعطي! . ناهيك بأسباب الأبهة التي استأثروا بها حتى لترى الخيول الواقفة بباب جعفر أضعاف ما يقف منها باب الرشيد. فما أدرانا ما يكون من عاقبة هذا الاستئثار إذا مات الرشيد وتولى الأمين وهو على ما ترى؟. ألا تذهب الدولة من أيدينا؟. أما المأمون فإني أعترف بحزمه ولكنني لا أراه غيوراً على استبقاء الخلافة في أهل بيته ولعل سبب ذلك اتصال نسبة بالفرس من أمه، وانصياعه إلى مشورة مربيه جعفر».

أعجب إسماعيل بدهاء جعفر، ولعله رأى قوله صواباً، غير أنه كان يخشى سوء العاقبة على الدولة، فقال له: « لا أنكر ضخامة ثروة البرامكة، ولكن لا تنسى أنهم ينفقون ريعها على الناس، وأنت تعلم أنه ليس بيننا من لا يستولي على راتب أو هدية من جعفر أو إخوته؟. وقد علمت من صاحب بيت مالهم أن أثني عشر ألف ألف دينار - أي أكثر من نصف إيرادهم - يجعلونه بدرا عليها صكوك مختومة وعلى كل بدرة إسم واحد من أهل الدولة ليرسلوها هدية إليه. فالمال راجع إلى الدولة وأهلها، ولا أظن الخليفة يفعل أكثر من ذلك. ثم إن إزالة هذا الرجل خطر على الخلافة، وأرى أن الرشيد نفسه لو أراد قتله لما استطاع إليه سبيلا لأن أكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطاء والمعروف فأقلع عما أنت فيه واصغ لنصحي فإني ضنين بشبابك حريص على حياتك. والرأي عندي أن تقترب من الرشيد فذلك خير لك وأبقى، وأنا أضمن لك ما تستحقه من المنزلة وأسعى في ذلك بنفسي».

فلما رأى جعفر بن الهادي إصرار إسماعيل على رأيه تظاهر بالقبول مخافة أن يفشي أمره إذا أغضبه فقال: « وماذا تراه في أمر تقربي من الرشيد؟».

فسر إسماعيل لما آنس من اقتناع جعفر، وما يتبعه من زوال الخطر على الدولة فقال: « إن أقصى ما يطمع الناس في التقرب به إلى الخلفاء، أن يتزوجوا بناتهم. فما قولك في زواجك بالعالية بنت الرشيد؟».

فرأى جعفر أن هذا الزواج إذا تم لا يقف في سبيل مطمعه، بل قد يعنيه على تحقيقه، فأظهر الإستحسان وقال: « إنها قربى عزيزة ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل!». وضحك.

فقال: « لا تكن سيء الرأي في الرشيد إلى هذا الحد. فأنه أقوى عزيمة وأشد بأساً مما تظن. وأنا أضمن لك ذلك والآن أتقدم إليك أن ترجع إلى البصرة ريثما أوافيك بالخبر».

قال: « سأذهب طوع أمرك، ولكنني لا أرى ضررا من بقائي هنا حتى تنقضي هذه المهمة».

قال: « حسناً، فاذهب الآن إلى قصري، وأنا أمضي غداً إلى الرشيد فأكلمه في هذا الشأن».

فقال: « ألا تأذن لي بأن أعود إلى الأمين فأودعه وآتي ببعض الأمتعة التي تركتها عنده».

قال: « اذهب في حراسة الله».

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، فطلب جعفر إلى إسماعيل أن يأذن في إنزاله من السفينة ليركب زورقاً يعود به إلى قصر الأمين.

فأمر إسماعيل بإرساء الحراقة بجانب الشاطئ، ورأى جعفر هناك زورقاً ركب فيه وعاد إلى قصر الأمين وقد أقبل العشاء وأظلم الليل، فلما اقترب من المصطبة نبحت الكلاب وكانت كبيرة هائلة فخاف أذاها ولبث واقفا يتردد بين النزول من هناك أو الدخول من الباب الآخر وراء البستان، ولاحظ في أثناء وقوفه أن المصطبة خالية من الناس إذ لم يسمع فيها غناء ولا رأى نوراً، فعزم على المسير في الزورق إلى الباب الآخر والطريق إليه بعيد.

وفيما هو يفكر في ذلك رأى نوراً يظهر في المصطبة ويدنو من السور ثم سمع لغطا خفيفا، ورأى يدا امتدت فوق الحائط والمصباح في قبضتها، فلما رأت الكلاب المصباح سكتت، ثم أطل رجل جعفر من قيافته أنه قيم الغلمان فناداه فقال الرجل: « سيدي جعفر؟».

قال: « نعم، هل أدخل من هنا؟».

قال بصوت ضعيف: « تمهل قليلاً ريثما أعود إليك». وتركه وعاد بمصباحه وجعفر واقف في الزورق ينتظر رجوعه ويفكر في سبب هذا التستر، وبعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيم يقول: « هيا يا مولاي، ولكن أرجو أن تسير على مهل!».

فاستغرب جعفر هذا الطلب ثم هبط من الزورق ومشى حتى دنا من

الباب السري فقابله رجل بالمصباح وقال: « ادخل يا مولاي».

فدخل والرجل يمشي بين يديه بالمصباح، فمرا بالمصطبة فرأى آثار الشراب والطعام لا تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد. فتحير في أمره، وحدثته نفسه أن يستفهم عن سبب ذلك التغيير ثم أمسك، وظل الرجل يسير أمامه حتى تجاوز الدهليز إلى القاعة الوسطى في دار النساء، فرأى المنائر في زواياها وجدرانها قد أضيئت شموعها وليس هناك أحد فلم يتمالك أن سأل الرجل: « أين مولانا ولي العهد؟» قال: « إننا ذاهبان إليه يا سيدي».

***

مشى جعفر في أثر القيم وهو يدخل من قاعة إلى قاعة، وكلها مضيئة بالشموع على المنائر، وفيها الرياش الفاخر، يختلف في كل قاعة لوناً وشكلاً عما في القاعات الأخر، حتى وصل إلى باب مقفل وقف القيم عنده ونقر عليه نقراً خفيفاً، فسمع جعفر حركة ثم فتح الباب وأطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال بثوب المنادمة كما فارقه، وأمسك بيده وأدخله وهو صامت فدخل جعفر إلى غرفة لم يجد فيها إلا الأمين جالساً على طنفسة، وهو أيضاً ما زال بلباس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف، فعرف أنها جارية، ورأى على وجهها آثار الاهتمام، فحياهم ووقف فأمره الأمين بالجلوس قائلاً: « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب».

فجلس وجلس الفضل إلى جانبه فقال الأمين: « جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا، إنها من جوارينا وقد أقمناها رصداً لنا على ذلك الوزير، فاسمع ماجاءتنا به عن خيانته».

فاستبشر جعفر بما سمعه وتطاول بعنقه نحو الجارية ولبث صامتاً فوجهت هي كلامها إلى الأمين وقالت: « أنت تعلم يا مولاي أن يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج على الدولة في الديلم واجتمع

حوله جماعة الشيعة الناقمين على بني العباس يريدون إخراج الخلافة من أيديهم وتعلم أن أمير المؤمنين الرشيد بعث لحربهم غير واحد وهم يزدادون تمردا حتى أنفذ إليهم الفضل بن يحيى أخا الوزير جعفر، فلما وصل بجنده إلى (الطالقان) وعلم أن الرجل ممتنع في جبال الديلم، احتال عليه ووعده خيرا، فوثق يحيى بمواعيده لأنه من الشيعة مثله، فجاءه فتلطف في معاملته وحسن إليه أن يصحبه إلى بغداد ويستسلم لأمير المؤمنين، فأبى يحيى أول الأمر، ولكن الفضل ما زال يلح عليه حتى قبل على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه، واتفقا على صيغة أمان كتبها الفضل وبعث بها إلى مولانا الرشيد فوقع عليها، ولما وصل يحيى إلى بغداد استقبله أمير المؤمنين وأكرم مثواه وأجرى له أرزاقا سنية. ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين أنه يهم بالخروج، و. . ».

فقطع الأمين كلامها وقال وهو يهز رأسه: « نعم أنه ما زال على سوء قصده، وهل تصفو قلوب هؤلاء العلويين لنا بعد أن بلغ العداء بيننا وبينهم هذا الحد؟ ولا قلوبنا تصفو لهم! ».

فقال جعفر: « ومن أدرانا أن الفضل لم يتواطأ مع صاحبه يحيى العلوي سراً على أن يتربص حينا ريثما يخرجون جميعاً علينا؟ ».

فقال الفضل بن الربيع: « هذا ما تراءى لأمير المؤمنين، لأنه بعد أن أعطاه العهد عاد فأبطله كما ستسمعون».

فأتمت الجارية كلامها وهي تنظر إلى الأمين فقالت: « نعم إن مولانا الرشيد أبطل العهد لا أدري لماذا ولكنني علمت أن آل الزبير وشوا بالعلوي، فأمر أمير المؤمنين بأخذه وحبسه».

فاستغرب الأمين قولها وقال: « إذن لا بد أن يكون في الحبس الآن».

قالت وهي تبتسم: « بل هو الآن في طريقه إلى أهله».

فقال الأمين: « ماذا تقولين؟ ومن أطلق سراحه؟ ».

قالت: « أطلقه الوزير جعفر».

فقال: « وكيف ذلك؟ يا لها من جرأة لا تغتفر!».

قالت: « دعني أقص عليك ما رأيته رأي العين في غروب هذا النهار».

فتطاول لسماع حديثها فقالت: « كان الوزير جالساً عصر اليوم في قصره، والخدم والجواري لاهون بشؤونهم، إلا أنا فقد كنت حريصة على مراقبة الداخل والخارج، فرأيت يحيى بن عبد الله العلوي داخلاً وليس معه أحد من الحاشية، فعلمت أنه جاء مستخفيا فراقبته حتى دخل على الوزير وجلسا في غرفة خاصة وليس معهما ثالث، فقلت لأمر ما هذه الخلوة، ودرت من ناحية أخرى من غرفة بينها وبين غرفتهما باب مقفل يمكن النظر من بعض ثقوبه إلى ما فيها. فوقفت هناك فرأيت الوزير وقف ورحب بالعلوي وأجلسه إلى جانبه وأمر الخادم ألا يأذن لأحد. فلما استقر بهما المقام سأله الوزير عن حاله في الحبس فبكى وشكا إلى أن قال: « اتق الله يا جعفر في أمري، ولا يكن جدي محمد (صلعم) خصماً لك، فوالله ما أعرف أحدثت حدثاً يوجب حبسي».

فلما فرغ العلوي من قوله حتى رأيت الوزير يلاطفه ويخفف عنه بكلام لم أفهمه، ولكنني سمعت أخيراً قوله: « اذهب حيث شئت».

فلما قالت الجارية ذلك بدت الدهشة في وجه الأمين وقال: « قبحه الله على هذه الجرأة بل على هذه الخيانة، كيف يطلق أسيراً أمر أبي باعتقاله؟. ثم ماذا فعل؟».

قالت: « أبدى العلوي خشيته من أن يذهب فيؤخذ ويرد إلى سجنه».

فقال الفضل بن الربيع: « صدق والله . . . ».

وقال ابن الهادي: « وكيف أطلقه إذن؟».

قالت: « بعث معه رجالاً من حاشيته ليوصلوه إلى مأمنه، وقد رأيته خارجا يثني على الوزير والوزير يشجعه ويطمئنه».

فقال الأمين: « إذن نجا العلوي؟».

قالت: « نعم يا مولاي، وقد حاولت أن أسرع إليك لساعتي لأنقل

الخبر، ولكني لم أستطع الخروج قبل الآن».

فنظر الأمين إلى ابن الهادي كأنه يستطلع رأيه، فأومأ إليه بأن يصرف الجارية، فأشار إليها أن تمضي إلى قيمة الجواري لتقوم بمكافأتها، فنهضت وقبلت ثوب الأمين وخرجت.

فلما خلا جعفر بالأمين والفضل، أخذ في تعظيم ما سمعوه ليغريهما بالبرامكة فقال: «إن الصبر على هذا التطاول ضعف!». ولبث ينتظر ما يبدو من الأمين فإذا به يضحك ويقهقه. فاستغرب وقال: «ما الذي يضحك مولاي؟».

قال: «أضحك لما أتوقعه من دهشتك إذا سمعت ما قصه علي الفضل قبل مجيئك». والتفت إلى الفضل كأنه يأمره أن يتكلم، فقال الفضل للأمين: «أظن مولاي يعني خبر مولاتي العباسة». قال: «نعم».

فازداد جعفر بن الهادي شوقا لسماع الخبر، فأخذ الفضل يقص عليه ما جرى له فجر اليوم في دار الرقيق، وما قصه عليه أبو العتاهية، وما رآه وسمعه. وجعفر مصغ وقد تولته الدهشة. فما أن فرغ الفضل من حديثه حتى وقف وصاح: «يا للخيانة كيف تصبرون على ذلك؟. لماذا لا تطلعون أمير المؤمنين على هذه الخيانة؟».

فقال الفضل: «أما خبر العباسة فلا يجرؤ أحد على نقله إلى الرشيد إلا إذا جازف بحياته، لما يكون من غضبه والعياذ بالله».

فقال جعفر: «كيف نطلع على هذه الخيانة ونكتمها؟ إن كتمانها خيانة أخرى».

قال: «لا بد من الاحتيال في إبلاغه الأمر كأن يأتي على لسان مغنية بالإشارة أو التلميح أو التعريض. أما خبر فرار العلوي فيسهل نقله».

وكان جعفر يعلم أن خبر العلوي وحده يكفي للفتك بجعفر، وهذا ما يتمناه. فأخذ يحسن للفضل الإسراع في نقل هذا الخبر، ثم قال: «وأين ذهب الطفلان ابنا العباسة؟ عسى ألا يكون قد فاتكم إدراكهما وأخذهما

والاحتفاظ بهما، فإن الخبر إذا لم يكن مؤيداً بوجودهما فيا لشقاء ناقله وقصر عمره!».

فقال الفضل: «إني حالما سمعت القصة أنفذت جماعة من رجالي وأبا العتاهية معهم للقبض على الغلامين ولم يرجعوا إلي بالخبر بعد. على أني لا أخاف أن يفوتهم أخذهما».

وفيما هم في الحديث، سمعوا وقع أقدام في الغرفة المحاذية ثم قرع الباب قرعاً تعود الأمين سماعه من غلامه إذا جاء لشأن خاص، فنهض الفضل وفتح الباب، فدخل الغلام صامتاً، ففهم الأمين أنه يريد الخلوة به، وفهم جعفر والفضل ذلك أيضاً، فاستأذنا في الانصراف، فأذن لهما الأمين، وما خرجا حتى قال الغلام: «إن رجلا من الشاكرية جاءنا الآن». فعلم أنه رسول من أمه زبيدة لأنها أول من اتخذ الشاكرية من الخدم، يختلفون على الدواب إلى مختلف الجهات برسائلها، فقال: «وماذا يريد؟».

قال: «إن مولاتنا السيدة زبيدة تدعوك إليها غداً صباحاً لأمر ذي بال».

فقال: «قل له إني موافيها صباح غد إن شاء الله».

وكان الليل قد أسدل نقابه فذهب إلى فراشه.

-١٠-

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، ابنة عم الرشيد وزوجته، وقد تزوجها سنة ١٦٥ هـ. وفضلها لنسبها الهاشمي على سائر نسائه، لأنهن من أمهات الأولاد فكانت لها عنده المنزلة الأولى، وكانت جميلة الصورة، واسمها الأصلي «أمة العزيز» فسماها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها. وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد يأخذ برأيها، ولها مآثر إسلامية لم يسبقها إليها أحد، مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل حتى

أخرجتها مسافة اثني عشر ميلا إلى مكة، فبلغ ما أنفقته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، فضلاً عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الألوف فيه، وغير ما كانت تنفقه في مساعدة أهل الفاقة. وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، وعلى كل منهن أن تقرأ ما تيسر منه كل يوم، فكانت قراءتهن تسمع في قصرها كدوي النحل.

وهي كذلك أول من اتخذ الآنية من الذهب والفضة مكللة بالجوهر، وأول من اتخذت الثياب من الوشي الرفيع حتى بلغ ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، واصطنعت القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر ،الأزرق. كما أنها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر، وأضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب. وقد تشبه الناس بها في ذلك وغيره.

وكان لها قصر في بغداد على شاطئ دجلة الغربي يعرف باسمها كما يسمى «دار القرار» وهو إلى جنوبي قصر الخلد، وشرقي مدينة المنصور، وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه حينذاك.

وكانت زبيدة شديدة التعصب لبني هاشم، وفي صدرها حزازات على البرامكة، ولا سيما جعفر بن يحيى الوزير، لأنه كان يحط من قدر ابنها الأمين ويرفع من شأن أخيه المأمون مع أن أمه جارية. وآخر ما زاد في نقمتها عليه أنه حمل الرشيد على أن يبايع للمأمون بولاية العهد مع ابنها الأمين، وكانت تحب أن تكون البيعة له وحده. هذا إلى أن الرشيد لما سار سنة ١٨٦ هـ. إلى الكعبة حاجاً ومعه أبناؤه ووزراؤه وقواده وقضاته، أراد أن يعهد إلى الأمين والمأمون هناك في ولاية العهد وشهد ذلك جعفر البرمكي، فلما كتبوا بذلك كتابين وعلقوهما في الكعبة، وحلف كل من الأمين والمأمون على تنفيذ العهد، هم الأمين بالخروج من الكعبة بعدئذ، فرده جعفر وقال له: « فإن غدرت بأخيك خذلك الله!». وطلب منه أن يحلف على ذلك

ثلاثا، ففعل. فأسرتها زبيدة في نفسها، وما برحت من ذلك الحين تترقب الفرص للإيقاع بجعفر، وصارت من أشد أعداء البرامكة نقمة عليهم، لا تدخر وسعا في استطلاع أخبارهم لعلها تجد مقتلا تتمكن به منهم. وكانت عالمة بأمر جعفر والعباسة ولكنها تجهل خبر الطفلين، ولو علمت ما سكتت عن كشف أمرهما لزوجها لأنها لا تتهيبه لما تعلمه من منزلتها عنده.

فلما كان صباح ذلك اليوم وقامت الضوضاء عند دار الرقيق أطلع بعض جواسيسها على العباسة على خبر الطفلين فنقله إليها، فرأت أن تنتهز أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه، ولكنها أحبت أن ترى رأي الأمين في ذلك فأرسلت في طلبه كما تقدم.

وفي صباح اليوم التالي، امتطى الأمين جواده، وسار إلى « قصر زبيدة» وعليه السواد والقلنسوة والغلمان يسيرون في ركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين. فسار الموكب محاذياً الشاطئ الشرقي حتى وصل إلى الجسر الأدنى فقطعه، وسار بعده على الشاطئ الغربي حتى أطل على القصر، والناس يقفون له في الطريق يحيونه ويدعون بطول بقائه، ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم في العصبية العربية، فيرد تحيتهم مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك.

وكانت زبيدة تنتظره وقد أعدت له كل أسباب الراحة والأنس والترحاب لشدة تعلقها به نظراً إلى أنه وحيدها وكل آمالها فيه، فأمرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالأزهار والرياحين، وأعدت له مجلساً فاحت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر، في غرفة من قصرها سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل مكسوة بالوشي والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية، وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتا من الشعر أو حكما مأثورة وعلقوها في مواضعها بكلاليب من الذهب. وفي أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم ملك من ملوك الفرس يصطاد السباع توهم الناظر لإتقان صنعها أنه يرى منظراً حقيقياً. وعلى

حواشي البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب. وفي وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت.

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص. وكان فرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالأرمني، إشارة إلى أنه من صنع أرمينية، وهو عشر قطع بمخادعها ومساندها ومطارحها، وبساطها كما وصفناه. فمثل هذا الفرش لا يقوم بأقل من خمسمائة ألف دينار، غير البساط وغير ما يكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش، وغير ما في جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب، وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون ولم يستخدمه أحد قبلها إلى ذلك العهد.

***

وصل الأمين إلى الحديقة، فاستقبله جماعة من الخدم الشاكرية أعانوه على الترجل عن جواده، ثم تحول صاحب الحربة ومشى بين يديه حتى وصلا إلى مفرش الأزهار وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الأطياب. فتنحى صاحب الحربة ومشى الأمين وحده حتى وصل إلى باب القصر فرأى أمه واقفة هناك في انتظاره، فلما دنا منها همت به فضمته إلى صدرها وقبلته قبلة المشتاقة. فقبل يدها. وكانت زبيدة مشرقة الوجه بيضاء، عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال، سوداء العينين كبيرتهما فيهما ذكاء وحدة، وقد استدار خداها وانبسطا من الترف والرغد. وكان فمها صغيرا باسماً يعلوه أنف فيه شمم، وذقن قليل البروز ليس بينه وبين الترقوة غور ولا ثنية، واستدار عنقها واشتد بياضه وليس فيه بروز.

وكانت ربعة القامة أميل إلى الطول، مع سمن قليل، فإذا أسرعت في مشيتها ارتج كتفاها ووركاها ارتجاج الدلال والرخاء. وقد تزملت برداء من الحرير أرجواني اللون يستر كل أثوابها، وتمنطقت بمنطقة مذهبة شدت طرفيها بعروة مرصعة بالجوهر. وأرسلت شعرها ضفيرة واحدة على كتفيها، وعصبت حول رأسها عصابة ليس عليها شيء من الجوهر، وكانت

العصائب لا تزال حديثة لم يعرفها نساء العامة بل كانت محصورة في دور الخلفاء والأمراء شأن الأزياء الحديثة في كل عصر، إذ تظهر بها أول الأمر إحدى الوجيهات فتقلدها أترابها، ثم يشيع الزي الجديد بين العامة. والعصائب استنبطتها أخت الرشيد لتستر بها عيبا في جبينها فاصطنعتها مرصعة بالجواهر كما تقدم، فاستحسن النساء ذلك فقلدنه. أما زبيدة فكانت لفرط إعجابها بمنزلتها عند الرشيد حسباً وجمالاً وتعقلاً تستنكف من أن تقلد سواها، ولا سيما علية. فاتخذت عصابة بسيطة لا جوهر عليها ترفعا عن التقليد، ولم تضع في عنقها ولا في أصابعها خاتماً ولا في معصمها سواراً تنزهاً عما يستطيع سواها تقليدها به. فلم يتمالك الأمين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسام وقال: « أراك تقلدين عمتي علية، إن هذه العصائب جميلة يا أماه، لكني لا أرى على عصابتك شيئاً من الجوهر».

فابتسمت وأشارت بسبابتها إلى قدميها فنظر إلى قدميها فإذا هي قد رصعت خفيها بالجوهر، فأعجب بترفعها وبذخها، وهي أول من لبس الخفاف المرصعة.

وكان الأمين يمشي بجانب أمه لا يدري إلى أين تسير به، فقطعت الممر حتى بلغت إلى درجات صعدت عليها وهو يتبعها، حتى وصلا من ممر آخر إلى القاعة التي ذكرناها. فلم يبهره ما هنالك من الفراش الثمين ولكنه استغرب لما أطل على القاعة فازدادت رائحة المسك، ورأى عند مدخلها صفين من الجواري الحسان على رؤوسهن العمائم، وقد سوين شعورهن بأشكال الطرر والأصداغ والأقفية، ولبس الأقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة، فبانت قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب، وفي أيدي بعضهن جامات المسك، وفي أيدي بعضهن قوارير الطيب، فلم يملك الأمين نفسه عند هذا المنظر عن إبداء الدهشة والإعجاب، وأمه تمسك نفسها عن الضحك، فالتفت إليها فضحكت فقال: « ما هذه الملابس يا أماه؟ أراك قد جعلت الجواري غلماناً؟».

فقالت: « فعلت ذلك تشبهاً بك يا بني. رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت في تزيينهم كأنهم من الجواري الحسان، فاتخذت هؤلاء الجواري أقلد بهن الغلمان كما ترى وقد سميتهن الجواري المقدودات، وسأبعث بهن هدية إليك».

فسر الأمين وشكر، وكانا قد وصلا إلى مجلس معد لهما على سرير من الآبنوس في صدر القاعة محلى بالذهب. فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الحرير المزركش محشوة بريش النعام، وأجلست الأمين إلى جانبها وهي تنظر إليه. ثم أشارت إلى من كان هناك من الجواري والغلمان فانصرفوا.

فلما خلت إليه تغير وجهها من الابتسام والأنس إلى الهيبة والجلال، وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء وحدة الذهن والجد، ثم قالت: « كيف قضيت نهارك أمس يا محمد؟».

قال: « قضيته كما تحبين يا سيدتي في أمن وطرب».

قالت: « وفي الليل. لماذا كنت مستتراً في خلوة؟».

قال: « من قال لك ذلك؟».

قالت: « أخبرني به الشاكري الذي بعثته إليك ففيم كانت هذه الخلوة؟».

قال: « هي خلوة يحلو لك سماع خبرها، وقد كنت عازما على المجيء إليك لأطلعك على سر يسرك علمه ولكن فيم بعثت إلي؟».

وكانت متكئة على كتفه ويدها على خده تلاعب بأناملها شعرات في عذاره وتنظر إليه نظر الحنو والانعطاف. فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت: « عندي أنا أيضاً ما يهمك الاطلاع عليه، وأرجو أن تتخلص به من ذلك الفارسي».

فعلم أنها تشير إلى جعفر البرمكي فدهش وقال: « وخبري أيضاً يتعلق به قبحه الله، هل تعنين خبره مع العلوي، أم مع عمتي العباسة؟».

فأجفلت زبيدة وتصاعد الدم في وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت: « هل علمت بخبر العباسة أيضاً؟ ».

قال: « نعم علمت به وكدت أحترق غيظاً، ولكني لا أرانا نستطيع أن تنتفع به عاجلاً. أما خبر العلوي فأقرب استثماراً ».

فقالت: « وأي علوي تعني؟ وما خبره إني لم أسمع بشيء من هذا القبيل ».

فاعتدل في مجلسه وقص عليها ما سمعه مساء الأمس من الجارية حتى أتى على آخره، وكانت تنظر إليه وعيناها تبرقان استغراباً ودهشة. فلما فرغ من حديثه وتنهدت وقالت: « ذلك جزاء من يستهين بسلطان فوضه الله إليه. أن أباك على تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسي حتى أصبحت الخلافة له ولم يبق لأبيك إلا اسمها. ولكن سوف يلقى الباغي عاقبة بغيه ».

فقال: « لا أنكر على أبي إطلاق يد هذا الوزير في أمور الدولة، فهذا لا بد منه، لأن الخليفة لا يستطيع أن يتولى كل الشؤون بنفسه! ».

فقالت والجد في عينيها: « قد يكون إطلاق يده في الأحكام مما يجوز، ولكن ما عذره في إدخاله محرماً على حرمه، إن جدك المهدي استخدم البرامكة ووثق بهم ولكنه لم يبلغ هذا الحد من إطلاق أيديهم، وعمك الهادي لم يفعل شيئاً من ذلك، ولا أظن أحدا يفعل ما فعله أبوك! ». قالت ذلك وقد بان الغضب في وجهها فزادها هيبة.

فقال الأمين: « وماذا تعنين يا أماه بدخوله الحرم؟ ».

قالت: « أعني أن أباك حفظه الله أمر بأن يباح لجعفر دخول دور النساء في السفر والحضر، وأبرز إليه جواريه وأخواته وبناته، لزعمه أن بينهما رضاعا يحلل ذلك، فهو يدخل قصور نساء الخليفة وبناته وأخواته بلا حرج. فلا عجب إذا ظهر ما ظهر من جرأته ». وتنهدت وأخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً. وكان في يدها جام فيه مسك تتشاغل بتفتيته أثناء الحديث، فلما غلب عليها الغضب ارتعشت أناملها فوقع الجام من يدها وانتثر فتات

المسك على البساط، فهم الأمين بالتقاطه وهو يقول: « وهل بلغ من إطلاق يده في دور النساء أن يدخل قصرك ويراك؟ ».

وبانت الغيرة في وجهه.

فصاحت: « كلا . . وهل يجرؤ هذا المولى على أن يرفع بصره إلي؟ إنه لم يطأ أرض قصري هذا ولا كلفته بحاجة يقضيها لي، ولن أكلفه! ».

وكان الأمين قد فرغ من التقاط المسك فأعاده إلى الجام ودفعه إلى أمه وهو يقول: « وما هو الرأي الآن؟. إن هذا الرجل لا ينبغي أن يترك وشأنه، وإلا ذهب الأمر من أيدينا واكتسبنا العار الذي لا يمحى ».

فقطعت كلامه وقالت: « إن أكثر اللوم في أمر عمتك يقع على أبيك، لأنه أباح لوزيره الدخول إلى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها، وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة، وهي لم تر رجلاً غيره. ذلك جزاء من جمع بين النار والحطب. على أن هذا لا يبرئه من الخيانة! ».

وعادت إلى التشاغل بفتات المسك وهي تنظر إلى البساط تتفرس في الطاووس المنقوش في وسطه. والأمين صابر وقد انقبضت نفسه وضاق صدره، لأنه لم يصل إلى الغرض المطلوب ولا جرؤ أن يفاتحها بأمر قتله أو الوشاية به. فلما ضاق ذرعاً أطرق وبانت الحيرة في وجهه. ولحظت أمه ذلك فيه فأسرعت إلى تطييب خاطره فقالت: « أظنك تريد أن تعرف رأيي في هذا الرجل؟ ».

فقال: « نعم يا أماه لقد ضاق صدري ».

فقالت: « هل ترى أن نبلغ أباك خبر أخته العباسة؟ ».

قال: « لا أدري. كل ما أطلب أن يقتل هذا الرجل والسلام ».

فضحكت وأدارت ذراعها حول عنقه وقبلته ودموع الحنان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الأمر الذي أدخلت نفسها فيه، وقالت: « قد كنت عازمة على أن أطلعه على خبر أخته ولكن مفاجأة الرشيد بذلك لا تخلو من الخفر، فلنكتف الآن بخبر العلوي ». ثم خفضت صوتها ومدت يدها إلى جيبها

فأخرجت بطاقة دفعتها إليه وتقول: « لا تظنني غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى. إني لا أنسى تشديده عليك بالحلف على تنفيذ كتاب العهد في العام الماضي، فقد بلغ من قحته وسوء أدبه أن يستهين بك أمامي. وقد أعددت أبياتاً من الشعر بمعنى ما نحن فيه، على أن أوصلها إلى أبيك سراً من حيث لا يعلم، فنكون قد أبلغناه الخطر الذي يهدد الدولة من هذا الرجل، فإذا لم يستيقظ الرشيد عمدنا إلى ما هو أبلغ».

فتناول الأمين البطاقة وقرأها فإذا فيها:

قل لأمين الله في أرضه ... ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلك ما بينكما حد
وقد بني الدار التي ما بنى ... الفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها ... وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ... ملكك إن غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه ... إلا إذا ما بطر العبد

فلما فرغ من قراءتها ارتاح إليها وقال: « أظنها تقتله، ولكن كيف توصلينها إلى أبي؟».

قالت: « سأكلف أحد جواسيسنا بأن يلقيها عند مصلى أبيك، فإذا رآها قرأها. وأظنها تفي بالغرض المطلوب، وإلا فالدواء الناجع عندي». ثم سكتت ووقفت، فوقف الأمين وقد علم أنها تنوي الخروج من تلك القاعة، فمشيا معاً فقالت: « أظنك جائعاً، فهلم بنا إلى غرفة الطعام».

قال: « صدقت فإني جائع. وهل أعود بعد الطعام إلى قصري؟».

قالت: « إني مشتاقة إليك يا محمد فدعنا نقض هذا اليوم معاً».

-١١-

في مجلس الرشيد

تركنا إسماعيل بن يحيى بعد أن فارق جعفر بن الهادي وهوعازم على

زيارة الرشيد ليكلمه في خطبة ابن الهادي للعالية. فلما أصبح لبس سواده وقلنسوته وركب إلى قصر الخلد، وأخذ في طريقه إليه يفكر ويهيء الأسلوب الذي يتطرق به إلى ذكر أمر ابن عمه فقد كان يعلم شدة الرشيد إذا غضب، فقد يسبق إلى ذهنه إساءة الظن به فتعود العائدة وبالاً عليه. فما أطل على القصر حتى رأى الناس يهرعون من الأسواق نحو الطريق الأعظم المؤدي من القصر إلى الجسر، فأمر أحد الغلامين السائرين في ركابه أن يستفهم سبب هذا الهرج فعاد يقول: « إن أمير المؤمنين ذاهب إلى الشماسية لمشاهدة حلبة السباق». فتشاءم إسماعيل وأيقن بفشل مهمته لأنه لم يوفق في عزمه في الصباح ولا هو يستطيع أن يرى الرشيد في المساء لأن الشماسية في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار. فترجل وتنحى جانباً بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد. فرأى الناس يدفع بعضهم بعضا كأنهم يساقون سوقا. ثم رأى خدما صغاراً يركضون وفي أيديهم قسي البندق يرمون بها العامة في الطريق. وهم فرقة من الخدم يسمونهم النمل، ومن ورائهم رجال مشاة عليهم شارة الدولة وفي أيدي بعضهم السيوف المرهفة، وفي أيدي الآخرين الأعمدة، ووراءهم رجال في أيديهم القسي الموتورة يمشون بوقار وسكون. وجاء الخليفة بعدهم على جواد مخصوب بالحناء عليه سرج مذهب مغطى بالديباج المخوص بالذهب، وعلى رأس الرشيد قلنسوة مسرفة في الطول ليس حولها عمامة. لأن الخلفاء إذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس غيرهم.

وكان الرشيد في الحادية والأربعين من عمره، وقد أشرق وجهه بياضاً وأبرقت عيناه الكبيرتان ذكاء ولحيته خفيفة كستنائية، وشارباه مستطيلان دقيقان، وفي فمه ابتسامة، وفي يده اليمنى قضيب من الأبنوس طرفة من الذهب. وكان الجواد يمشي الهوينى يتبختر كأنه عالم بمن يعلوه، ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها

لتظلل الخليفة من الشمس. ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب، إلا جعفر الوزير فإنه لم يكن معهم. ويلي ذلك أفراس الحلبة عليها سروج خفيفة وسياس يقودونها بالأرسان، وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركي ذو مهارة في تربية الخيل. وأخيراً فرقة أخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الوراء.

وظل إسماعيل واقفاً ينظر إلى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المعتبر، يعجب لغرور الانسان واشتغاله بالظواهر المبهرجة عن الحقائق الدامغة. ونظر فيمن يحفون بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين، وهو يعلم ما في نفوسهم، وإن منهم لمن يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت، ومنهم من يحبه ويتفانى في خدمته، والمرجع في هذا إلى حب الذات. ثم فكر في نفسه وفيما هو قادم فيه، فتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة في سلامتها، وأسف لفشل مهمته فعاد إلى منزله على أن يعود في صباح الغد.

وفي الصباح التالي ركب وغلاماه في ركابه وعليه السواد والقلنسوة حتى أقبل على قصر الخلد وللقصر أربعة أسوار متتالية لا يستطاع الوصول إلى مجلس الخليفة إلا بعد المرور بباب كل منها وعنده حرس من الشاكرية وقفوا بسلاحهم. فاجتاز الباب الأول راكبا، فوقف الحرس إكراما له ولم يعترضوه لعلمهم أنه من كبار بني هاشم فضلاً عن منزلته عند الرشيد. ودخل الباب الثاني فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه، حتى إذا وصل إلى الباب الرابع أخذ الفرس أحد الغلامين ومشى إسماعيل في طريق واسع يؤدي إلى دار العامة، وغلمان القصر يسيرون بين يديه، وظل يمشي الهوينى حتى أقبل على الدار التي يجلس فيها الخليفة للعامة، وبجانبها غرف رأى فيها الشعراء والأدباء والندماء ينتظرون ريثما يؤذن لهم أو يطلب الرشيد أحدهم. ورآهم في جلبة وضوضاء وليس في المكان أحد من الحرس، فعلم أن الرشيد ليس هناك، واستغرب ذلك وأحب أن يستفهم فإذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعاً وسيفه يضرب فخذه لشدة سرعته. فلما رآه

إسماعيل لم ينشرح صدره له ولعلمه بفظاظته وقسوته، وهو فرغاني الأصل.

فأكب مسرور على يد إسماعيل ليقبلها فجذبها منه وسأله عن أمير المؤمنين فقال: « هو في دار الخاصة يا مولاي».

قال: « وكيف ذلك واليوم يوم جلوسه للعامة».

فقال: « لقد كان عازماً إليها، فجاءه وفد من ملك الهند فأحب أن يجلس لهم في دار الخاصة لأن ذلك أقرب للرهبة والعظمة».

فمشى إسماعيل نحو تلك الدار، فرأى في طريقه إليها صفين من جند الخليفة الأتراك وقفوا بنظام وقد لبسوا الجديد حتى لا يرى منهم غير الحدق، فقال لمسرور: « ما شأن هؤلاء، وفيم وقوفهم بالحديد كأنهم في ساحة الحرب؟».

فقال: « لما علم أمير المؤمنين بقدوم وفد ملك الهند أحب أن يوقع الرعب في قلوبهم ليبلغوا ملكهم ما شاهدوه من قوة الإسلام، فأمر بعرض هؤلاء كما ترى».

فارتاحت نفس إسماعيل لما رآه من رغبة الرشيد في أبهة الدولة، ولكنه خامره ما يخافه عليها من الدسائس فانقبض صدره فمشى بين الصفين إلى الدار حتى دنا من بابها، وكان مرتفعاً يصعد إليه على درجات عريضة من الرخام الأبيض يتخللها قطع من البلاط الأخضر، والحراس وقوف إلى الجانبين وفي أيديهم السيوف. فدخل مسرور أمامه ليخبر صاحب الإذن (الحاجب) بقدومه ليستأذن له في الدخول.

فصعد إسماعيل في أثره يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له، فما لبث أن جاد الآذن يدعوه للدخول، فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط أحمر مشدود بعضه إلى بعض بقضبان الذهب، والآذن يسير بين يديه، فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الأبدان كأنها أسود، وقد أوثقت من أعناقها بسلاسل الحديد وأمسك السلاسل ثلاثة رجال مكشوفو الرؤوس،

ضخام الأبدان، عرف من قيافتهم وألوانهم أنهم من أهل الهند، فهاب توقد أبصارها وكبر أبدانها. ثم جاز عدة مقاصير وأروقة ودهاليز والخدم يقفون له حتى انتهى إلى دار قوراء مفروشة بالبسط الثمينة فوقها جلود النمور والسباع وفي جوانبها قضب المناور عليها الشموع الملونة. فوقف إسماعيل وأخذ يقرأ ما نقش على الجدران من أبيات الشعر أو الحكم منتظراً لعله يحتاج إلى أذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة، فإذا بالآذن عاد يشير إليه أن يتقدم لأن مثله لا يحتاج إلى أذن ثان.

فتقدم إلى باب عليه ستر من الديباج المخوص بالذهب، آماله الآذن بيساره وأشار إلى إسماعيل بيمينه أن يدخل، فدخل إلى إيوان كبير طوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين، قائم على أساطين من الرخام، وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ممثلة بالذهب يتخللها أبيات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب. وفي أرضه بساط من الديباج الأصفر قلد به صانعه لقطيف بساط كسرى، وعليه نقوش بألوان زاهية بينها خيوط القصب تمثل أشجاراً وأنهاراً وطيوراً وأسماكاً توهم الناظر أنه في حديقة يانعة الأغراس جرت فيها الجداول وتغنت فيه الأطيار. وعلى حواشي البساط وشي جميل، وسقف الإيوان قبةً عظيمة الإتساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة أساطين وعلى سقف القبة نقوش وكتابة وفي وسط الإيوان ستر من الحرير الصيني يعترض الحائطين ويحجب الخليفة عمن يجالسه على عادتهم في مجالسة الخلفاء يومئذ إلا من اختار الخليفة أن يرفع الستر بينه وبينه.

ورأى إسماعيل الكراسي المنصوبة خارج الستر لجلوس بني هاشم وليس عليها أحد منهم، وكان الهاشميون يدعون في اصطلاح تلك الأيام أبناء الملوك أو الأشراف، وأما الوسائد المصروحة بين الكراسي لجلوس الخاصة من الأمراء والقواد فرأى على بعضها أناساً من الهنود عليهم القبعات المزركشة. وأثوابهم من نسيج الهند عليها صور ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولا سيما الفيل. وفي أعناقهم عقود من الجوهر الثمين

بينها تعاويذ من الذهب تمثل بعض أصنامهم. وقد جلسوا خاشعين متهيبين ينتظرون أمر الخليفة، وبين أيديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلمية. فعلم أنهم الوفد القادم من ملك الهند وأن أصحاب الكلاب في الدهليز من أتباعهم.

فتقدم صاحب الستارة إلى إسماعيل أن يدخل إذا شاء أو يجلس على كرسي من الكراسي ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود، وكان إسماعيل قد سمع الرشيد يتنحنح فعلم أنه جالس هناك على سريره وراء الستار فآثر الجلوس حتى يفرغ الخليفة من الوافدين، وهو يخاف أن يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبته ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستار على لسان الترجمان وهو صاحب الستار لأنهم كانوا يختارون أصحاب الستار من العارفين باللغات لمثل هذا الغرض. فقال الرشيد لرئيس الوفد: « ما الذي اتيتمونا به؟ ».

قالوا: « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا ».

فدعا الرشيد بالصمصامة، وهي سيف عمرو بن معدي كرب، وأمر بعض رجاله الأتراك فقطع بها تلك السيوف واحدا واحدا ثم أمر بعرض ذلك السيف عليهم فإذا هو لا فل فيه، فسقط في أيديهم ونكسوا رؤوسهم. ثم قال: « وما عندكم غير هذا؟ ».

قالوا: « آتينا بكلاب لا يلقاها سبع إلا عقرته ».

فلما سمع إسماعيل قولهم زاد تهيبا من رؤيتها، ثم سمع الرشيد يقول: « إن عندنا سبعا فإن عقرته كلابكم فهي كما ذكرتم. أخرجوها إلى السباع في أقفاصها ليخرج السبع عليها ونحن ننظر قتالها ومن الروشن ».

فخرج صاحب الستار، وأشار إلى الهنود فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب في الدهليز فساقوها معهم، وسار بعض الغلمان بهم إلى خارج الدار، وسبق أحدهم إلى السبَّاع فأمره بإخراج أسد عظيم فأخرجه وجاءوا به إلى ساحة أطلق فيه الكلاب الهندية. ورأى إسماعيل الأسد يخطر ويزأر فما

شك أنه سيمزق الكلاب إربا إربا فإذا هي قد مزقته. ورأى الرشيد ذلك من الروشن فأرسل إلى الوفد أن يعودوا إلى الإيوان كما كانوا، فعادوا وعاد إسماعيل مشدوها مما رآه من الكلاب، فلما عادوا قال الرشيد للوفد: « من أين لكم هذه الكلاب وما جنسها؟ ».

قالوا: « هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا لا شبيه لها في الأرض ».

فقال: « أحب أن أحتفظ بها، فتمنوا ما شئتم من طرائف بلدنا مقابلاً لها ».

قالوا: « نتمنى السيف الذي قطعت به سيوفنا ».

قال لهم: « لا يجوز في ديننا أن نهاديكم بالسلاح، ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم فتمنوا غير ذلك ما شئتم ».

قالوا: « لا نتمنى سواه ».

قال: « لا سبيل إليه ». ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم. وانصرفوا وفي نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة.

***

أما إسماعيل فما صدق أن فرغ الخليفة من الوفد حتى عاد إلى التفكير فيما جاء من أجله، وأحب التحدث إليه على انفراد قبل أن يأتي أحد من بني هاشم أو سواهم فيحول بينه وبين ما يريد فتذهب منه الفرصة. فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستار ودعاه إلى الدخول على الرشيد إذ لا حجاب عليه وقال: « لما علم أمير المؤمنين بقدومك أمرني أن أدخلك عليه ».

قال: « وأحب ألا تدخل علينا أحداً حتى أنتهي من كلامي معه ».

فوسع له ما بين شطري الستار فأطل إسماعيل على الرشيد فرآه جالساً الأربعاء على سرير من الذهب الإبريز مرصع بالجواهر، فوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من أساطين الإيوان مجللتين بالوشي المنسوج بالذهب، وقد وقف عند كل منهما وصفاء في أيديهم المذاب أو المناديل، ووراء السدة من الجانبين شاكريان بيد كل منهما سيف مسلول.

والسدة مظلة قائمة على عمد من الأبنوس المنزل فيه العاج، سقفها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم جميلة. وفي حاشيته من الأمام والجانبين أهلة من لذهب مدلاة، في كل هلال منها أترجة ذهب مسبك، يتدلى من كل أترجة درر كبار، بينها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام بديع يبهر المنظر. والرشيد جالس على السرير في السدة تحت المظلة وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من الملوك ونوابهم إذا أراد إرهابهم بعز الإسلام وجلال الدولة وأبهة الخلافة. وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندي فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى، وبين ثناياها عقود من الجوهر بشكل سبحات تملأ الأخلية بين تعاريج العمامة. وفي مقدمتها فوق الجبهة طرة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت والزمرد، يبرز منها كعرف الطاووس من أسلاك الذهب، وقد نظمت بها لألئ بينها ثلاث كبيض الحمام عند قاعدة العرف. وعليه جبة سوداء فوقها بردة النبي. فلا يسع المقبل على تلك السدة إلا التهيب. أما إسماعيل فكان قد تعود ذلك، وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة، وكان مع ذلك في شاغل من أعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخافه عليها من التضعضع، وهو يعلم شدة الرشيد وتسرعه إذا غضب.

فلما أطل من بين شطري الستر قال بأعلى صوته: « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

فتحرك الرشيد كأنه يتحفز للقيام إجلالاً لإسماعيل، وابتسم له وقال: «وعليك السلام يا عماه، مرحباً بك».

فدخل وأسرع في خطوه ليمنع الخليفة من الوقوف له. أما الرشيد فنهض عن مقعده قليلاً ومد يده وصافح إسماعيل وقال: «لقد أتيت أهلاً يا عماه، أمثلك يستأذن في الدخول؟». ثم أومأ إلى الوصفاء فقدموا له كرسياً وضعوه بجانب السرير، وأشار الرشيد إليه بالجلوس وهو يبتسم ترحاباً واستئناساً. فجلس وأثنى على ما لقيه من الرعاية والحفاوة، ودعا للرشيد

ولبث ساكتاً على عادة مجالس الخلفاء فإنهم لا يبدؤون الخليفة بكلام. فسر الرشيد من تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال: « لقد أتيتنا لخير إن شاء الله، فإنك منقطع عنا منذ أيام لا تأتينا إلا لنصيحة أو مهمة».

قال: « إني يا أمير المؤمنين أقيم بالبصرة وقلما آتي إلى بغداد، ولو رأيت في دخولي على الخليفة نفعاً لقضيت سحابة عمري بين يديه. وأما الآن فقد أتيت ألتمس منه فضلاً نضمه إلي مننه المتوالية ونعمه السابغة».

قال: « قل طلبتك فإنك صاحب الأمر».

فأكبر إسماعيل تلك المجاملة وحنى رأسه شكراً ويداه ملمومتان في حجره وقال: « إن الأمر لمولاي جعله الله له وحده لا ينازعه فيه أحد. وهو ينعم بما يشاء من فضله، فإذا سمح لي مولاي بكلمة أقولها فإني أستأذنه في الخلوة».

فأومأ الرشيد فخرج الوصفاء والشاكريان، وأقبل هو بكليته على إسماعيل وقد أبرقت عيناه اهتماماً، لعلمه أن إسماعيل لا يطلب الخلوة إلا لأمر ذي بال.

فنظر إسماعيل إلى الرشيد وقال: « أأتكلم؟».

قال: « تكلم اطلب ما تشاء».

قال: « لا يخفى على مولاي أن جعفر ابن أخي الهادي من خيرة بني أعمامنا».

فلما سمع الرشيد اسم جعفر استنكف مما قد يأتي بعد ذلك من اقتراحات لا يروق له تنفيذها، ولكنه تلطف وقال: « نعم إنه ابن أخي فهل هو في حاجة إلى عطاء؟».

قال: « كلا يا مولاي فإن نعم أمير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى على سائر بني هاشم، ولكنه يود الزيارة في شرفه».

فأدرك الرشيد بفراسته أن إسماعيل إنما جاء خاصا فتجاهل وقال: « إن قرابة الرسول أعظم أسباب الشرف له ولنا».

قال: « نعم هو كذلك، ولكنه يحب التقرب من عمه أمير المؤمنين وخليفته سيد المرسلين».

فلم يبق عند الرشيد شك في أنه جاء يخطب ابنته لجعفر، فابتدره قائلا: « كل ما تقترحه نافذ يا عماه إلا خطبة العالية!».

فاستغرب إسماعيل هذه المفاجأة وقال: « وأنا لم آت إلا في طلبها، فإذا كان ذلك ممتنعاً فالأمر لأمير المؤمنين، ونحن مطيعون لإرادته ندعو بطول بقائه، على أن ما خولنيه من الدالة يجرئني على سؤال أرجو ألا يثقل على مولاي».

قال: « قل فإن لك رعاية وحقا».

قال: « لعل أمير المؤمنين لا يرى ابن أخيه كفؤا لمولاتنا العالية؟. فمن أكفأ لها من ابن عمها أخي أبيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل». يريد المنصور.

فقال الرشيد وهو يعبث بقضيب الخلافة بين أنامله: « أما الكفاءة فلا ينازعه أحد فيها. ولكن سبق السيف العدل، فإن العالية مخطوبة!».

فاستبعد إسماعيل أن تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو بخطبتها، وظن الرشيد يقول ذلك ليدفع طلبه فقال: « العالية مخطوبة؟. إني لم أعلم ذلك ولو علمته ما أقدمت على طلبها ولم أكن أظن أحداً ينال ذلك غير ابن عمها».

فتحرك الرشيد في مجلسه ونظر إلى البساط أمامه وقال وهو يحاول إخفاء ما كاد يظهر في وجهه من الانفعال: « نعم، ولكن وزيرنا جعفر طلبها لإبراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا فلم نرد طلبه».

فلما سمع إسماعيل قوله أطرق وقد عظم عليه فشله. وكان غضبه من نفوذ جعفر إلى هذا الحد أعظم عليه من فشله. على أنه كبت شعوره مخافة أن يظهر فيغضب الرشيد عليه، وظل مطرقاً والرشيد ينظر إليه ويراقب ما يبدو منه ويود الاكتفاء فلما طال سكوت إسماعيل قال الرشيد: « إنه ليسوءني

أن أرد طلبك، ولكنك تعلم أن الرجوع في ذلك لا يليق، فاطلب لابن أخينا منه أخرى».

فرفع إسماعيل بصره واغتنم فرصة رغبة الرشيد في تعويضه عن فشله وقال: «صدق مولاي إن الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه، وأنا أعلم ذلك لثقل ما أقاسيه من رجوعي بخفي حنين بعد أن وعدت ابن أخي بهذا الشرف. وقد تسرعت بوعدي ولكنني لم أفعل ذلك إلا رغبة في صيانة الدولة لما يعلمه مولاي من غيرتي على سلامتها».

فأدرك الرشيد ما يلمح إليه من الرغبة في إرضاء ابن اخيه الهادي ليشغله عن طلب الخلافة أو الوقوف في سبيلها. وقد تعود الرشيد أن يسمع من إسماعيل ما هو أكثر صراحة من ذلك مما لا يجرؤ سواه على عشر معشاره، ومع ذلك فإن هذا التلميح أثار غضبه لأنه لم يكن هناك شيء يثيره مثل ما يشتم منه رائحة التعرض للملك ولو تلميحا. ولكنه كظم وتجاهل وقال: «إنك معروف بغيرتك على دولتنا، وهي إنما تتأيد بآراء أمثالك من شيوخ الحكمة وأرباب الرأي السديد، وهم قليلون. وأما ابن أخي فإنه من لحمي ودمي وأحب له ما يرضيه، فهل من شيء تطلبه له غير العالية؟».

قال: «أطال الله بقاء أمير المؤمنين فإني أراه يبالغ في مجاملتي ويسرني أنه عالم بالغاية التي أرمي إليها. فأتقدم إليه أن يتولى ابن أخيه عملا يشغل به. فأطلب له ولاية مصر أو خراسان».

فوجم الرشيد، وبدت الدهشة في عينيه وهز رأسه استغراباً وقال: «وهذا أيضاً لا سبيل إليه يا عماه فإني وعدت وزيري صباح الأمس بولاية مصر لإبراهيم، وأما خراسان فقد وعدته بها هو منذ أيام، وقد كتمت ذلك ولم أخبر أحداً به، ولولا أنك إسماعيل ما بحت به لك».

فضاق إسماعيل ذرعاً من توالي فشله، وعاد إلى الأطراق وأعمال الفكرة، ولم ير بدا من التصريح بغرضه من تلك الاقتراحات فعاد إلى ما فطر عليه من حرية القول ونسي موقفه وما يعلمه من سوء العقبى إذا غضب

الرشيد فقال: « يأذن لي أمير المؤمنين في أن أبوح له بما في ضميري فأخاطبه على أنه هرون بن محمد وأنا ابن عمه إسماعيل بن يحيى». وتنحنح واعتدل في قعوده والرشيد يتجلد لسماع كلامه ويحدق فيه بعينيه.

فقال: « إنك تعلم شدة غيرتي على سلامة هذه الدولة وشدة رغبتي في بقاء هذا الخاتم بيد هرون وهذه البردة على كتفيه، وتعلم أيضاً ما قد يجول في خاطر ابن أخيك. وأنا أعلم قصر باعه عن نيله ولكن حسن السياسة تقتضينا ملافاة أسباب الفتن لئلا يرى أعداؤنا غرة منا فيغتالونا وهم كثيرون، ومنهم الروم في القسطنطينية والأمويون في الأندلس. وأنا أعتقد عجزهم عن الفوز ولكن الحكمة تستدعي التكاتف وجمع الكلمة، وهذا يسير على الرشيد إذا استخدم ذكاءه ودهاءه فيشغل أهل المطامع من أهله بخدمة دولته بدلاً من أن يتفرغوا لإقلاق راحته».

فبادر الرشيد إلى قطع كلامه خوفاً من أن يسترسل في الحديث ويصرح بأكثر من ذلك، فلا يقوى على كبت شعوره فقال: « قد كان بودنا أن نولي ابن أخينا مصر لولا ما سبق من الوعد بها لإبراهيم، فهل ترى لي حيلة في الأمر؟».

فأسرع إسماعيل بالجواب قائلاً وقد غلبت عليه الأنفة والاستقلال بالرأي: «لي حيلة واحدة».

قال: « وما هي؟».

قال وكفاه على ركبتيه كأنه يتحفز للقيام: « تبايع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الأمين والمأمون) - افعل ذلك مجاملة وترضيه له».

فلما سمع الرشيد قوله ألقى القضيب من يده على السرير، ونهض فجأة ونزل إلي البساط بسرعة حتى انحرفت البردة عن كتفيه فكادت تسقط وقد نسي موقفه ومنزلة إسماعيل عنده، ثم أصلح البردة وجعل يخطر في الإيوان. فنهض إسماعيل وأدرك أن بقاءه هناك أصبح خطرا ولا فائدة منه، وأجل التصريح بما في نفسه لفرصة أخرى. فتراجع في موقفه، وقد رأى في

نهوض الخليفة مسوغاً لخروجه من حضرته لأن ذلك من علامات الصرف عند الخلفاء، ولكنه لم يشأ الخروج على تلك الصورة لئلا يسيء الرشيد الظن به فقال: « أظن أمير المؤمنين ندم على ما أباحه من إطلاق لساني بين يديه، وأظنني تطاولت في الدالة عليه إلى أبعد مما ينبغي فدخلت فيما لا يعنيني؟ ».

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على حائط الإيوان، فلما سمع قوله تحول إليه وتكلف ابتسامة لم تخف غضبه وقال: « إن إسماعيل عندنا في المقام الذي تعلم، وله فضل النصح والمشورة، فلا يزعجك ما رأيته من وقوفي فجأة. وإذا غضبت فإن غضبي لك لا منك، وكيف أغضب من شيخ بني هاشم وحكيم بني العباس؟ ولكن ساءني إنك لم تطلب أمراً أستطيع أن أجيب سؤالك فيه على رغبتي في إكرامك! ».

فأدرك إسماعيل من خلال كلامه ما كان يحاول إخفاءه من الغضب ويتكلفه من التلطف في الجواب فقال: « أشكر لمولاي تفضله وحسن قصده، والظاهر أن سوء طالع الرجل قد أوجب هذا الاتفاق. إذ لكل وقت طالع وكأن طالع هذه الساعة لا يوافق حظه. فهل يأذن مولاي لي في الانصراف؟ ونؤجل الأمر إلى ساعة أبرك من هذه؟ ».

فسر الرشيد وقال: « لا بأس من انصرافك يا عماه ».

فرجع إسماعيل يمشي القهقري بين يدي الرشيد، على العادة في الخروج من مجالس الخلفاء، حتى وصل إلى الستار، فخرج والرشيد واقف ينظر إليه وقد قام في نفسه من الغضب ما أقلقه وحبب إليه الخلوة بنفسه.

خرج إسماعيل فركب لساعته جواده وقد ندم على مجيئه، ومشى الغلامان في ركابه وهما غافلان عما يتقد في قلبه من الغضب وما يتردد في ذهنه من الأسف على حال تلك الدولة لما يعلمه من تضارب الأحزاب

واختلاف الأغراض. فوصل إلى قصره والشمس قد تكبدت السماء، فوجد ابن الهادي في انتظاره، فاستفهمه عما جرى، فقص عليه بعض الخبر وأخبره عذر الرشيد من امتناعه عن تزويجه بالعالية، وبالغ في الاعتذار عنه لئلا يهيج غضبه. ولم يخبره بطلب ولاية مصر ولا ولاية العهد إلى أن قال: «وإني آسف لما نابني من الفشل والرشيد أشد أسفاً مني على ذلك، ولكن لا حيلة لنا في الواقع فاصبر وكن عاقلاً وسنغتنم فرصة أبرك من هذه، فإن الرشيد حسن الظن بك».

فلم يخف على جعفر غرض إسماعيل من تلطيف الخبر، ولكنه جاراه وقال: « إني صادع بأمرك، ولكن هل تعلم السبب الذي بعث على خطبة العالية لإبراهيم؟».

قال: « كلا ولكن للوزير دالة على الخليفة، ولعبد الملك دالة على الوزير، فلعله تقدم إليه أن يتوسط في خطبة العالية له، فأجاب الرشيد طلبه».

قال: « لو كان الأمر كذلك لهان، ولكنني أقص عليك السبب فتتحقق ما قلته لك من استخفاف هؤلاء الموالي بالخليفة وأهله. أخبرني جاسوس لي عند جعفر صباح اليوم بأن هذا الوزير كان في مجلس أنس خلا فيه بندمائه فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وكذلك فعل سائر جلاسه، وأمر حاجبه أن يحجب عنه كل أحد إلا عبد الملك بن بحران قهرمانه. فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بحران. وكان ابن عمنا عبد الملك بن صالح يرقب فرصة يخاطب بها الوزير في بعض حوائجه فلما سمع بذلك المجلس قدم إلى داره، فجاء الحاجب وقال لجعفر إن عبد الملك بالباب، فظنه ابن بحران فأمر بإدخاله، فدخل وهو في سواده وقلنسوته فرأى القوم في لباس المنادمة، ولما رآه جعفر أربدّ وجهه وأنت تعلم أن عبد الملك لا يشرب النبيذ، فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب المنادمة ودخل وسلم وقال: (أشركونا في أمركم وافعلوا بنا مثل فعلكم بأنفسكم).

فجاء الخادم وألبسه ثياب المنادمة، ثم أكل معهم وأتوه برطل نبيذ فشربه وقال لجعفر: (والله ما شربته قبل اليوم). فزاده جعفر من النبيذ، وأتوه بالخلوق فتضمخ، ونادم القوم أحسن منادمة. فذهب عن جعفر خجله، فلما أراد عبد الملك الانصراف قال له جعفر: (أذكر حوائجك فإني لا أستطيع مقابلة ما كان منك). فقال: (إن في قلب أمير المؤمنين موجدة علي، فتخرجها من قلبه وتعيد إلي جميل رأيه فيّ). فقال: (قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك). فقال: (وعلي أربعة آلاف درهم ديناً). قال: (تقضي عنك وإنها لحاضرة، ولكنها كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك). قال: (إبراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة). قال: (قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته). قال: (وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه). قال: (وقد ولاه أمير المؤمنين مصر). فانظر إلى هذه الجرأة التي ليس أغرب منها إلا رضاء الرشيد بها، وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبيذ، ونحن نلوم ابن عمنا الأمين على صغر سنه على شربه ونعده خليعا، وهذه هي الخلاعة ولا يخفى عليك إضرارها بالملك. ومع ذلك فإن الرشيد أطاع جعفر ولم يهمه ما يترتب على ذلك من إضعاف الملك».

وكان إسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظاً، ولكنه اختصر في الجواب وأظهر الاستخفاف بالقصة وقال: « هكذا أبلغك الجاسوس، ولا يخلو كلامه من مغالاة، ومهما يكن من شيء فاكتم مما دار بيننا واصبر لنرى ما يكون».

فسكت جعفرعن احترام لا اقتناع فقال إسماعيل: « ذهب إلى البصرة وأنا موافيك إليها بعد يومين».

قال: « سمعاً وطاعة». فودعه وأظهر أنه يتأهب للسفر، فاختفى يوماً ثم أتى إلى الفضل بن الربيع في منزله، وكان الفضل لا يزال يفكر في أسلوب يبلغ به خبير العلوي إلى الرشيد، وقد عاد محمد الأمين وأخبره بحديث أمه

وما دار بينها وبينه عن خبر العلوي، وما في نفسها على البرامكة. ولم يكن الفضل يجهل ذلك. فلما جاءه ابن الهادي رحب به، فأخبره بما سمعه من أمر عبد الملك بن صالح وزواج العالية وما في ذلك من الدلالة على ضعف الخليفة واستبداد البرامكة، وحرضه على إبلاغ خبر العلوي إلى الرشيد.

فقال له الفضل: «قد أعددت كل شيء».

قال: «وهل وقعت على من يذهب بالخبر؟».

قال: «ليس لنا إلا أبو العتاهية فإنك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة».

قال وقد تذكر أمراً نسيه: «وهل عاد من اقتصاص أثر الطفلين؟»

قال: «عاد وقد أخذهما وحبسهما في مكان أمين لوقت الحاجة».

فأبرقت أسرة جعفر وقال: «لقد قتل البرمكي والله. والآن انظر ما تفعل لإبلاغ الخبر إلى الرشيد، فإني راحل عن بغداد وقد ألح علي عمي إسماعيل بذلك، وأنت كفؤ لإتمام العمل».

قال: «كن مطمئناً».

فودعه وذهب وهو يظن أنه أغرق الفضل بالبرمكي واستخدمه في غرضه، بينما الفضل يعتقد أنه استخدم ابن الهادي لغرضه، لأنه إذا سقط البرامكة عادت الوزارة إليه، ولم يخف عليه ما في نفس ابن الهادي على الرشيد وإنه إنما يسعى لإرجاع الخلافة إلى نفسه، ولذلك كان يوهمه أنه ساع في معاونته على نيل الخلافة، وهو إنما يعمل لاسترجاع الوزارة ولا يبالي أكانت وزارته للرشيد أو لسواه. فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعي متضاربة. ولكن الهدف متفق فيها كلها وهو إسقاط البرامكة بأية وسيلة كانت. وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه.

تركنا الرشيد في الإيوان وحده، وقد ساءه خروج إسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلالة قدره فأخذ يفكر فيما دار بينهما ويردد ما قاله له، فلم يجد في إمكانه أن يفعل غير ما فعله. فجعل يخطر في الإيوان وقد

تراكمت عليه الهواجس، فتذكر حاله مع وزيره وما بلغ إليه من نفوذ الكلمة عنده حتى أصبح أكثر وجاهة ونفوذاً من أبناء عمه، ثم رجع إلى صوابه فرأى أنه محمول على ذلك ببواعث الأحوال، لأن الوزير قابض على زمام الدولة يدير شؤونها ويصرف أعمالها بحكمة ودراية. وقد أراحه من مشاغلها وخفف عنه أثقالها، فضلاً عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لأبيه يحيى من الفضل عليه، وهو الذي أقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره، ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمه من ميله إلي الشيعة العلوية وما يراه من كثرة الطاعنين عليه ولكنه كان يحمل طعنهم على محمل الحسد منه.

وبينما هو يمشي في الغرفة ويفكر، لاحت منه التفاتة إلى السرير فرأى القضيب الذي كان قد وضعه هناك، فتقدم ليتناوله فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فإذا فيها الأبيات التي قرأتها زبيدة زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها. فلما بلغ إلى قوله:

ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه إلا إذا ما بطر العبد

توارد الدم إلى رأسه وحمى غضبه، فأعاد نظرة إلى البطاقة فقرأها ثانية، وهو يعمل الفكرة، وقد نسي البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها في ذهنه فعاد إلى التفكير في جعفر وما بلغ إليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخليفة ويولي الأمصار لمن يشاء ويهب الأموال بلا مشورة، ولا يخشى بأساً ولا يخاف اعتراضاً. فقال في نفسه: «لقد آن لك يا هرون أن تستيقظك من رقادك، وتنظر في أمر هذا المولي وما بلغ من تطاوله، فإنه لا يلبث أن يمد يده إلى أعظم من ذلك والعياذ بالله». ثم وثب من موقفه والقضيب مشهر بيده كأنه يهاجم عدوا وهو يقول:

وإذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبة

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيه من النعيم والأبهة، وتصور إنه إذا مات أفضى الأمر إلى جعفر لأنه يعرف ضعف ابنه الأمين، ويعرف أن

المأمون أقوى منه، ولكنه ضالع مع الفرس لأنه ربي في حجر جعفر وشب على حب الشيعة، فإذا أفضي الأمر إليه وجعفر حي خرجت الخلافة من بني العباس. فندم على تسليم المأمون إلى جعفر وإهمال الأمر الذي كان ينبغي فيه كل شيء وهو بقاء الدولة لبني العباس. ثم تذكر كيف حرضه جعفر على المبايعة للمأمون ولم يكف عنه حتى أطاعه فتوهم إنه إنما فعل ذلك لينقل الخلافة إلى الشيعة بعد ذهابها من يد الأمين، فحرق أسنانه ندماً ثم عض أنملته وهز رأسه وقال:

لقد بان وجه الرأى لي غير أنني عدلت عن الأمر الذي كان أحزما
فكيف يرد الدر في الضرع بعد ما توزع حتى صار نهبا مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وعاد فاسترجع رشده وأعمل فكرته في حقيقة الواقع، فغلب عليه الخوف من جعفر لما يعلمه من كثرة مريديه وأنصاره، وفيهم جماعة كبيرة من نخبة رجال الدولة، ومن بعض بني هاشم الذين غمرهم بالعطاء وقيدهم بالأنعام. فكانت هذه الهواجس تتردد في مخيلته وهو يمشي في الإيوان ويداه وراء ظهره. واتفق وهو في ذلك أن وقف أمام الستر فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب هما:

وإياك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له سائر الناس عاذر

فلما قرأهما أمسك نفسه وعاد إلى صوابه ونظر إلى البطاقة في يده وقال: « لعل الذي كتب هذه الأبيات من حساد جعفر وهم كثيرون، وإني على كل حال صابر أترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة».

وقضى في تلك الخواطر وأمثالها حينا، وهو يقف تارة ويمشي أخرى، وعليه ذلك اللباس الفخم، ثم إذا الحاجب دخل يقول: « إن الشعراء والندماء بباب العامة منذ الصباح، وهذا يوم الجلوس لهم فهل يأذن مولاي في دخول أحد منهم؟».

فلما سمع الرشيد قوله انتبه كأنه هب من رقاد، وتحير في أمره لأنه في حال لا يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء، وإنما يفضل الخلوة. ولكنه استنكف من أن يشعر أحد بقلقه إذا صرف الشعراء فقال: « من في الباب من هؤلاء؟ ».

قال: « كثيرون وفيهم المقيمون ببغداد من أهل العيش الراتب والأرزاق الجارية وفيهم الوافدون للاستجداء من أطراف البلاد ».

فقال: « أما الوافدون فنأذن لهم في وقت آخر، اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال أن يحسن جوائزهم ويطيب خواطرهم. ومن الباب من أهل الرواتب؟ ».

قال: « فيهم من العلماء الأصمعي والكسائي وأبو عبيدة ». فقطع كلامه وأشار إليه بيده ولسان حاله يقول: « دعني من العلماء واذكر غيرهم ».

فقال: « أما الشعراء فمنهم الحسن بن هانئ (أبو نواس) وأبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة... وأما.. ».

فأشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لأنه كان يستلذ شعره لما فيه من الطعن على العلويين، ولكنه لم يجد في نفسه راحة لسماع الشعر أو الأدب وعلم أنه لا يجلو ما في خاطره غير الغناء فقال: « ادع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلوا إلى قاعة الشراب، وهل ببابنا أحد من الندماء والمغنين والملهين؟ ».

قال: « أما المغنون فرأيت منهم بعض أصحاب مولانا إبراهيم بن المهدي أخي أمير المؤمنين، ممن هم على طريقته في الغناء كابن جامع وابن نابة، وابن أبي العوراء، ويحيى الملكي. ورأيت بعض أصحاب اسحق الموصلي المعجبين بطريقته، وسمعتهم يتقارعون في أي الطريقتين أفضل ».

فقطع الرشيد كلامه وقال: « دعنا من هذه الطبقات فإني لا أرى الاجتماع للمناظرة في طرق الغناء اليوم، فادع برصوما الزامر، وأبا زكار

الربابائي الأعمى، وحسينا الخليع. وأما الغناء فأحب سماعه من قيان القصر». ثم أطرق وقال: « ولكن ذلك لا يحلو لا بوجود إبراهيم الموصلي، ادع لي مسروراً الخادم».

فأشار مطيعاً وخرج، ثم أتى مسرور بسيفه وفظاظته وحيى، فقال له الرشيد: « إلي بإبراهيم المغني على عجل».

فظل مسرور واقفا، فعلم الرشيد أنه يطلب أن يتكلم فقال: « ما بالك لا تذهب؟».

قال: « لا أدري أين أجد إبراهيم الآن، وأمير المؤمنين قد أذن له في أن يختلي بأهله يوماً في الأسبوع لا يطلبه فيه. . وهو هذا اليوم».

قال: « هاته حيثما وجدته».

فأطاع وخرج، وصفق الرشيد فجاءه خادم فقال له: « إلي بصاحب الثياب». - يريد الذي يلبسه ثيابه - فأتى به فقال له: «عزمت على مجلس منادمة فألبسني ثيابها». فخرج ثم عاد ومعه عدة وصفاء يحملون تلك الثياب، وهي غلالة وشي منسوجة بالذهب، وعمامة صغيرة موشاة، وأزار رشيدي عريض العلم مضرج. وهذه كانت ملابسة الصيفية في مثل هذا المجلس. وجاء غلمان آخرون في أيديهم المباخر فيها العود والند، في أيدي آخرين جامات الطيب. فبدأ صاحب المنزل ينزع ما على العمامة من الحلي حتى حل العمامة وأخذ البردة والجبة، ثم ألبسه الغلالة وعممه وناوله الأزرار فاتشح به. فلما فرغ من لباسه خرج من باب في الإيوان يؤدي إلى دار النساء وما زال ينتقل من رواق إلى آخر ومن دار إلى أخرى حتى دخل دارا مفروشة الصحن بالرخام، وملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب. ثم انتهى منها إلى قاعة أرضها وحيطانها ملبسة بالوشي المذكور، وقد نصبوا له هناك سريراً من الصندل، وأرخوا في منتصف الغرفة سترا من ذلك الوشي المطرز، وليس عليها أحد لأن الشعراء يجلسون في القسم الآخر من الغرفة وبينه وبينهم الستر.

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه، تذكر أنه لم يتناول الطعام منذ الصباح، فأمر صاحب الطعام أن يأتيه ببعض الأطعمة، فنصبوا له سماطاً وأتوه أولاً بالمرق من السكباج تنشيطا لجسمه، ثم جاءوا بمطبوخات البقول، ثم الدجاج، فالشواء من الحمام أو الدراج، فأنواع السمك، فبعض ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول. ثم قدموا له رقاقا من السنبوسج المحشوة باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل، ثم الحلوى من الفالوذج واللوزينج. وأخيرا النقل للتعلل بعد الطعام. وكان يأكل وخاطره قلق، حتى إذا فرغ من الطعام سمع عودا يضرب ضربا مطربا على نغم لم يسمعه من قبل.

فأصاخ بسمعه فأطربه ذلك الصوت وعلم أنه آت من الرواق وبينه وبين ذلك المكان ستر فشعر بذهاب الانقباض عن صدره، شيئاً فشيئاً وهو يعجب لذلك النغم الغريب، وقد أدرك من نعومته أنه صوت جارية فصاح: « من يغنينا في الرواق جزاه الله خيراً؟ ».

فسمع الجواب من وراء الستر: « هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها» فعلم الرشيد أن الذي يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه: «قبحك الله وأي قرنفلة؟».

فقال: « هي جارية أرسلها مولانا ولي العهد هدية لأمير المؤمنين هذا الصباح. غني يا قرنفلة إن الخليفة طرب لصوتك... يا ليتني كنت مكانك فيغنيني ذلك عن اللطم والصفع».

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك، وضحك سائر السامعين فاستأنف الخليع الكلام قائلاً: « هذا هو حظي بتقربي من الخلفاء، أنا أبكي وهم يضحكون، فعسى أن يسعدني الحظ وأصير قرنفلة أو وردة يشمني الناس ويسمعون صوتي أو يرفقون بجلدي. ولكنني أخاف لادبار سعدي أن يجاب دعائي ويقع الالتباس في طلبتي فيجعلني القضاء بطيخة أو سكباجة فيأكلني الناس ويتمتعون بي وأصير أنا إلى ظلمة الأحشاء وبئس الظلمة. غني يا

قرنفلة غني . . أطلب من الله أن يبقيني على ما أنا . وقد قيل نحس تعرفه ولا سعد تتعرف إليه ! » .

فأغرب الرشيد في الضحك ، ولم يبق أحد هناك إلا قهقه . ثم سكتوا جميعاً ينتظرون ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده أحد من الندماء أو الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب ، فلم يكن يرى وجهه في ذلك المجلس إلا الغلمان والوصائف الوقوف في خدمته أو الترويح له . وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجساً مما كان فيه ذلك الصباح ثم قال : « وقد علمت أن هذه القينة جديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من في هذا القصر من القيان . قبح الله إبراهيم الموصلي أين هو ؟ » .

فقال الحاجب : « ذهب مسرور في أثره ولم يأت بعد » .

فقال انصبوا الستار لهذه المغنية ، وضموا إليها أحسن من في قصرنا من القيان ممن أتقن الصناعة على يد إبراهيم ، وهاتوا الشراب » .

***

كان في قصر الرشيد ثلاثمائة قينة ، فيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية ، وغيرهن من المتقنات للعزف على آلات الطرب وإن تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصناعة . غير ألفي جارية لا يحسن الغناء وهن السراري . وكان لمنوط به أمر السراري . والقيان مسرور الخادم ، فناب عنه قيم الجواري ، ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج إليه من الأباريق والأقداح من البلور والذهب والفضة ، وعليها النقوش على نحو ما وصفناه في مصطبة الأمين . وأما الأشربة التي تعاطوها في ذلك المجلس فأنواع الأنبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر أو التفاح أو المشمش أو غيرها من الفاكهة اللذيذة ، وأشربة من محلول العسل أو الدبس أو غيرهما . فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد ، فشرب قليلاً وهو محجوب على القيان بستارة ، وعن الشعراء بستارة أخرى ، ومع القيان برصوما وأبو زكار . وكان كلما غنت إحداهن

صوتا عرفها وطرب لها ونادها باسمها. ثم صاح بالحاجب فأتى فقال له: «قل للحسن بن هانئ ينشد ما عنده».

فبلغه أمر الرشيد فقال أبياتاً كان قد هيأها فأنشدها إنشاداً على عادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح: « وأنت يا ابن أبي حفصة».

فقال: « لبيك يا أمير المؤمنين». وأخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلويين. فأذكره ما كان ينساه من هواجسه فصاح فيه: « دع عنك هذا الآن، قل لأبي العتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر؟».

فأجاب أبو العتاهية: « إن ما نسمعه يا أمير المؤمنين من أسباب الطرب يرمي الزهد بالمنجنيق. وقد صدق القائل أن الغناء رقية الزناء».

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول: « هذا هو الشعر بعينه. فقل بيتاً أو بيتين».

قال: « سمعاً وطاعة، وسأتلو ما يحضرني بعد قليل لأني تركت النظم من زمن طويل».

وبينما هم في ذلك دخل مسرور فلما رآه صاح فيه: « ويلك أين ابراهيم».

قال: « هو بالباب يا مولاي، لقد أتيت به من أقاصي الأرض!».

قال: « ادخله إلي ليكون قريباً من هؤلاء القيان يعلمهن أو يساعدهن».

فدخل إبراهيم وسلم فأمر له الرشيد بالجلوس وقال له: « أظننا أزعجناك لدعوتنا إياك على غير انتظار، ولكننا آثرنا لذتنا على راحتك. فاعذرنا».

فخجل إبراهيم لهذه المجاملة وقال: « نحن عبيد أمير المؤمنين، وإذا دعانا إلى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا».

فقطع الرشيد كلامه وقال: « اسمع الغناء الجديد». والتفت إلى صاحبة

ستار القيان وقال: « إن إبراهيم أستاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد».

فصاحت الجارية: « غني يا قرنفلة».

فلما سمع الموصلي اسمها ابتسم وقال: « قرنفلة هنا. إن هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت وإتقان الصنعة وطالما كنت أتمنى دخولها في جملة قيان القصر. وهي من جملة الجواري البيض اللواتي تعلمن الغناء على يدي ومن أكثرهن براعة واتقاناً».

قال الرشيد: « إن ولدنا محمدا أهداها إلينا اليوم، ولم أر وجهها بعد».

قال: « وجهها جميل يا مولاي».

فصاح حسين الخليع من وراء الستر: « نحمد الله على أن أستاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال».

فضحك الرشيد، وأمر الساقي فصب له قدحا ولإبراهيم قدحا وقال: «إن حسينا خفيف الروح، اشرب هذا القدح يا إبراهيم».

فصاح حسين الخليع من الداخل: « جزى الله أمير المؤمنين خيرا لأنه أنصف بيني وبين مغنيه، فأعطاني خفة الروح وأعطاه القدح، كأن خفاف الروح لا يشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا».

فضحك الرشيد وقال لإبراهيم بصوت منخفض: « قبحه الله رمى حجراً فأصاب اثنين، فجعلني من الثقلاء وهو لا يدري».

فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال: « أستميح عذراً أمير المؤمنين فإن منع الشراب عني أسكرني فخلطت. ورميت القول جزافا. ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ولذا لم يتجاوز كلامي إبراهيم خطوة واحدة».

فضحك إبراهيم وقال: « اطمئن يا حسين فإني قد حبسته عندي فاكفف عني».

ثم قال الرشيد: « نسمع يا قرنفلة».

فأخذت تضرب علي العود وحدها وتغني، والرشيد يبالغ في استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها وفيها من كانت لها حظوة كبرى عند الرشيد، فسمع الخليفة لغطاً وراء الستار أعقبه ضحك فقال: « على أي شيء يضحكن؟ ».

قالت صاحبة الستار: « تقول ضياء المغنية أن أمير المؤمنين معجب بقرنفلة وهي لا تحسن إلا صوتاً أو صوتين بعودتهما، فإذا أمر بعض الشعراء ينظم بيتين لتغنيهما ارتجالا ».

فصاح الرشيد: « أحسنت أحسنت . . إلى أبي العتاهية ببيت أو بيتين مما نظمته الآن ».

قال: « لبيك يا أمير المؤمنين. هل أقول وعلي الأمان مما قد يكون؟ ».

فاستغربوا سؤاله ولا سيما الرشيد، ولكنه ظنه يقول ذلك متماجنا خوفا من القيان فقال: « عليك الأمان ».

قال: « وتجيزني يا أمير المؤمنين غير إجازة الشعراء، لأني لم أقل الشعر من زمن مديد ».

فازداد الرشيد استغراباً لهذه الشروط، ولكنه ما زال يحسبه مازحاً فقال: « ونجيزك ».

قال: « وتسمح لي أن أرى وجهك على حدة؟ ».

فضجر الرشيد من شروطه ولكنه تحمله وقال: « ولك ذلك أيضاً. قل ».

فقال: « لا تعجب يا مولاي لجرأتي هذه. فقد قيل:

ولن يباهي العبد أربابه إلا إذا ما بطر العبد »

فلما سمع الحضور هذا البيت ظنوه يشير إلى جرأته في شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل. وأما الرشيد فحالما سمع قوله تذكر أنه قرأه منذ ساعة في تلك البطاقة، فانقبضت نفسه، وأدرك أن أبا العتاهية لم يقدم على ذلك إلا وفي نفسه شيء يريد أسراره إليه ولا سيما بعد أن اشترط أن

يرى وجهه كناية عن طلب مقابلته، فتغير الرشيد ونسي ما كان فيه من الطرب وأصبح همه الاطلاع على سر تلك البطاقة، فنهض الحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئاً مما في خاطره، لأنهم خليو الذهن من أمر تلك القصيدة. ثم صفق فجاء مسرور فأسر إليه أن يجيز الشعراء والقيان، وأن يأتيه بأبي العتاهية وحده. فاستأذن من المجلس وخرجوا جميعا. وتحولت تلك الضوضاء إلى سكوت ووقار. أما مسرور فدخل ومعه أبو العتاهية وقد قبض على عنقه لظنه أنه السبب في انقلاب سرورهم إلى كدر ولم يكن يشك في أن الرشيد سيأمر بقطع رأسه.

أما أبو العتاهية فإنه أقدم على هذا الأمر الخطير طمعاً في مال كثير وعده به الفضل بن الربيع، فدبر هذه الوسيلة وكان عالماً بالقصيدة ولا يبعد أن يكون نظمها لأم جعفر فبعثت بها فوضعت على سرير الخليفة في دار الخاصة، ولا بد من أن يكون الرشيد قد قرأها فالإشارة إلى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فإذا استزاده قص عليه خبر تسريح العلوي. على أنه لم يشعر بالخطر الذي تعرض له إلا لما رأى انقلاب المجلس من الغناء والهرج إلى الانقباض والسكوت، فخفق قلبه وخاف على حياته ولا سيما بعد أن قبض مسرور على عنقه وجاء به بين يدي الرشيد، وقد انحرفت عمامته وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف. فلما وقع نظره على الرشيد ارتمى على قدميه وأخذ في تقبيلهما وغلب عليه البكاء، فتحقق مسرور عند ذلك أنه مذنب ولا يلبث أن يسمع أمر الخليفة بقتله، فوقف ويداه على قبضة الحسام وعيناه إلى شفتي الرشيد.

فلما رأى الرشيد ما استولى على أبي العتاهية من الرعب وما أظهره من التذلل والاستعطاف بعد أن أعطي الأمان أشفق عليه وقال: « لا بأس عليك يا أبا العتاهية، إنك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء. قم لا تخف».

فما صدق أن سمع تلك العبارة حتى وقف وتكتف وأطرق لا يرفع بصره عن الأرض والرعشة ظاهرة في ركبتيه ويديه من الخوف، إلى أن سمع

الرشيد يأمر مسروراً بالخروج فرمقه بطرف عينيه، فلما تحقق خروجه اطمأن قلبه ورفع بصره إلى الرشيد بخشوع.

فاتكأ الرشيد في مجلسه، وأومأ إليه أن يقعد فقعد جاثياً على البساط والدموع لا تزال في عينيه فقال له: «لا تخف يا أبا العتاهية إنك في أمان».

فقال وصوته مختنق: «آآمن أنا يا أمير المؤمنين؟».

قال: «أنت آمن إذا صدقتني».

قال: «آمن منك ومن وزيرك؟».

قال: «لا تكثر السؤال، إذا أمنك أمير المؤمنين فلا خوف عليك».

فتنفس الصعداء وهدأ روعه وقال: «سيعلم مولاي إني إنما ركبت هذا المركب الخشن تفانيا في خدمته».

قال وقد مل الانتظار: «قل من أين عرفت هذا الشعر ومن أطلعك عليه».

قال: «لم يطلعني عليه أحد».

قال: «وكيف عرفته، لعله من نظمك؟».

قال: «نعم».

قال: «وما الذي حملك على نظمه؟».

قال: «حملني على ذلك أمر عرفته، وعلمت أن ليس بين رجال بطانتك من يجرؤ على أن يطلعك عليه، فاحتلت هذه الحيلة في إيصاله إليك فأرجو ألا أكون قد أسأت إلى نفسي وإلى أهلي».

قال: «لا بأس عليك، وما هو ذلك الأمر وما دخل وزيرنا فيه؟».

قال: «هو صاحبه وحده يا سيدي، وسأقصه عليك فإذا كذبتني الوقائع فدمي مهدور».

قال: «اقصص الخبر ولا تخف».

فروى حكاية العلوي ونجاته على يد جعفر إلى آخر الحديث.

وكان أبو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف ويتقطع، والرشيد مصغ بكل

جوارحه وجأشه رابط. فلما سمع حديثه سأله: « أواثق أنت من صدق الرواية؟ ».

قال: « لو لم أكن واثقاً، بل لو لم أكن على يقين من الأمر، لما عرضت حياتي لهذا الخطر العظيم! ».

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده، فأكبر أن يدخل ذلك الشاعر بينهما، ورأى من الحزم والحكمة أن يغالطه فاغتصب ضحكة وقال: « لا ريب عندي إنك أقدمت على كشف هذا الأمر غيرة منك على الدولة، ولذلك فأنت أهل للشكر والجائزة. ولكنك كلفت نفسك عناء عظيماً باطلاً، لأن وزيرنا لم يأت شيئاً من عند نفسه فهو لم يطلق سراح العلوي إلا بإشارتي ».

فلما سمع أبو العتاهية ذلك سقط في يده، وتولاه الخجل. ولكنه اطمأن بالا على حياته وعلى ربح المال الذي وعده الفضل به. ولكنه ظل خائفا من جعفر إذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال: « أحمد الله على أن ما حدث كان برأي أمير المؤمنين. وقد اطمأن بالي على حياة الوزير ولكنني أصبحت خائفاً على حياتي منه إذا اتصل به إني نقلت هذا الخبر فيحسبني من أعدائه! ».

فقطع الرشيد كلامه قائلاً: لا تخف، فإني سأكتم ذلك عنه. كن مطمئناً». قال ذلك ونهض، فنهض أبو العتاهية وقد هدأ روعه، أما الرشيد فكظم غيظه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه. فعل ذلك رغبة في إخفاء ما في نفسه عن أعداء جعفر - ولم يخف عليه أن أبا العتاهية لم يقدم على فعل من تلقاء نفسه. ولكنه اكتفى بما سمعه وصفق فجاء مسرور مسرعاً كالبرق الخاطف فقال له الرشيد: « خذ أبا العتاهية وأمر صاحب بيت مالنا أن يعطيه ألف دينار وأطلق سبيله».

فقال: « سمعاً وطاعة أمير المؤمنين». وأمسك أبا العتاهية وخرج به.

فلما خلا الرشيد إلى نفسه هاج بلباله وعادت إليه وساوسه فتذكر ما دار

بينه وبين إسماعيل في الصباح، وكيف رده خائباً مع قرابته وجلالة قدره مراعاة لحق جعفر. فكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق أسيرا عهد به إليه. فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل إلى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين. فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسي موقفه وجعل يمشي ذهاباً وإياباً على غير هدى ويخاطب نفسه قائلاً: « هل أنا في حلم؟ أيرتكب جعفر هذه الخيانة وقد أحببته وأكرمته ورفعت قدره وسلمت إليه مقاليد الأحكام وأطلقت يده في شؤون الدولة؟. وهل يعقل أن يكون ما سمعته من الحساد؟.. ولكن كيف يغدر بي جعفر ويطلق عدوا سلمته إليه على ما يعلمه من كرهي للعلويين. بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته؟. إن هذا أيضاً لا يعقل، إلا أن يكون الرجل مصاباً في عقله لأنه يعلم بطش هرون إذا غضب!».

-١٢-

بين الرشيد وجعفر البرمكي

قضى الرشيد ساعة في هذه المناجاة وهو لا يقر له قرار، ثم رأى إن خير ما يجلو عنه هذه الشكوك أن يسأل جعفر نفسه عن صحة الخبر. فإذا كان صحيحاً بادر إلى الانتقام. فأمسك غضبه. وكان مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوي الإرادة ذا اقتدار على الكظم والكتمان، فصفق فجاءه مسرور فقال له: « دع لي صاحب الطعام واذهب أنت إلى الوزير فادعه لي».

فسأله: « ماذا أقول له؟».

فأجاب: « قل أن أمير المؤمنين أحب أن تتناول معه العشاء الليلة، ولا تزد على ذلك».

قال: « سمعاً وطاعة». خرج.

وكانت الشمس قد قاربت المغيب، فلما جاء صاحب الطعام قال له: «أعدد مائدة أتناول عليها العشاء مع الوزير».

فأشار مطيعاً وخرج، ومكث الرشيد وحده فعادت إليه أفكاره وقد تعب منها فأحب أن يلهو حتى يأتي جعفر، فخطر له أن يخرج إلى حديقة القصر للنزهة، فأمر برداء تزمل به، وجاء غلام ألبسه النعال، ثم خرج إلى الحديقة يتمشى بين الأشجار والرياحين إلى حيث لا يعلم.

فما لبث أن وجد نفسه بجانب أقفاص السباع، وكان فيها أسد قد تعود الرشيد أن يلهو بمداعبته. فلما وقع نظره عليه شعر بشيء لفت انتباهه وهو ارتياح طبيعي في الانسان إذا رأى الأسد أو غيره من السباع في قفص. ولعل سببه الإعجاب بقوتها والدهشة من منظرها غير ما يجيش في النفس من حب التمثل بها. ومنظر السباع يهيج القوة الغضبية في الإنسان فكيف إذا كان غضبان؟. فوقف الرشيد عند القفص وأمر السباع أن يرمي للأسد طعامه فأتى بخروف كان قد ذبحه وجعله قطعاً صغيرة فرمى له قطعة فوثب الأسد عليها والتقمها لقمة واحدة ووقف ينتظر أخرى، فنهى الرشيد السبَّاع أن يرمي إليه شيئاً. فجعل الأسد يزأر ويخطر في القفص ذهاباً وإياباً وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر إلى السبَّاع بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما والسبَّاع يريه اللحم عن بعد. فلما استبطأ الطعام أقبل يضرب قضبان القفص برأسه تارة وبمخالبه أخرى يحدق إلى قطعة اللحم بيد السبَّاع ويزأر ويكشر عن أنيابه، والسبَّاع يضحك والرشيد يشارك الأسد غضبه وقد ازداد عبوساً وازدادت أسرته انقباضاً، حتى لقد كاد يفتك بالسبَّاع، كأنه تصور نفسه شريكاً للأسد في الغضب، لأن حاله مع جعفر مثل حال الأسد مع فريسته.

ولكن ليس للكواسر ما يعقلها عن إظهار إحساسها فتغضب وتقلق في أقفاصها. أما الرجل العاقل فيملك غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهي بين يديه.

كان الرشيد يفكر في ذلك والسبَّاع ينتظر أمره ليرمي القطعة للأسد حتى زأر الأسد زأره نبهت الرشيد فأشار إلى السبَّاع فرمى له القطعة فانقض عليها وعاد إلى الزئير حتى رمى له القطعة الثالثة والرابعة وهكذا حتى شبع. فربض

ووضع رأسه بين ساعديه وسكن وبقيت عيناه تبرقان والحنق ظاهر فيهما.

قضى الرشيد ساعة في ذلك حتى سرى عنه وزاد تمكنا من اعتقاده أنه رابط الجأش من الناس إذا كان ذا سلطان وأمسك غضبه كان أسداً عاقلاً. وأراد أن يكون ذلك الأسد في تلك الليلة.

فلما غابت الشمس وأخذت الظلال تتكاثف فوق قصور بغداد وبساتينها رجع الرشيد إلى قصره ماشيا بين الأشجار بثوبه الموشى وعمامته المزركشة والغلمان يتباعدون عنه احتراما، وقد لحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه والرشيد يحسب سره مكتوماً.

وفيما هو في ذلك سمع دبدبة وصهيلا وصلصلة وضوضاء بباب القصر، فعلم أنه موكب جعفر فظل ماشياً حتى إذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور فأخبره أن الوزير ينتظره في الدار.

فقال له: « ادعه لموافاتي إلى القاعة التي كنا فيها أصيل هذا اليوم».

***

مشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد أضيئت فيها الشموع على مناور الذهب، وفاحت روائح البخور والأطياب فتربع على السريرولم تمض هنيهة حتى أقبل الحاجب يستأذن لجعفر، فقال الرشيد: « يدخل فليس على الوزير حجاب».

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبة على عادته في مجيئه لمقابلة الخليفة، وهو لباس العباسيين الرسمي. ولم يكن جعفر مطمئناً إلى هذه الدعوة في آخر النهار موجساً من سعاية حساده به في شأن العباسة بعد أن أطلع أبو العتاهية على سره ورأى ابنيه مع أمهما رأي العين. فلما دعاه مسرور إلي الرشيد سأله عما يريد منه فقال: « لا أدري». ولم يتوسم في وجه الرجل سوءا فركب في موكبه الحافل وفيه جماعة من الفرسان الأشداء ممن يتفانون في نصرته، ودخلوا معه إلى الباب الرابع في القصر، ولم يكن يسمح بالدنو منه إلا له ولبني هاشم ومن إليهم من الخاصة. فترجل جعفر

وأقبل على دار الخاصة ومسرور بين يديه لا يتكلم. ثم دخل القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وليس ذلك في قلبه. فلما أقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال: « ليتك جئتني بمثل لباسي، فإن مجلسنا مجلس أنس». ودعاه للجلوس بجانبه على السرير، فحياه وقعد متأدباً، وقد سرى عنه واطمأن قلبه. وجعلا يتطارحان الأحاديث والرشيد يحتفي به ويلاطفه. ومما قاله: « لقد دعوتك رغبة في أنسك، لأني شعرت بملل أثناء النهار على إثر استقبال الوفد الهندي».

وأقبل يقص عليه ما جاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السيورية وما كان من قوتها وفتكها بالأسد.

فأجابه جعفر: « لا زال قصر الخلد مصدر الأبهة والسؤدد، ولا زال أمير المؤمنين مؤيدا بنصر الله يتقرب له الملوك والسلاطين بالزلفى».

وليس بخاف ما في قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من الخوف إذا اطلع على حاله مع العباسة وما ينويه من الفرار إذا اطلع الرشيد على سرهما. فكانا يتداجيان وفي قلب كل منهما غل على صاحبه. وما زالا في ذلك حتى آن وقت العشاء ومد السماط وقد أعدت عليه ألوان اللحوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة وأصناف البقول، ووقف الغلمان بأباريق الماء وأقداح الشرب. فجلسا يأكلان، والرشيد يبالغ في الاحتفاء بجعفر، حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف ويلقمه بيده، ويناوله السنبوسجة بعد السنبوسجة والتفاحة بعد التفاحة، ويبش له ويحادثه ويضحك لحديثه، حتى تطرق إلى ذكر العلوي فقال له: « ماذا جرى للعلوي الذي عهدت به إليك؟».

قال: « على حاله يا أمير المؤمنين لا يزال في الحبس كما أمرت».

فابتسم الرشيد وقال: « أباق هناك؟».

قال: « نعم يا أمير المؤمنين».

قال: « بحياتي».

ففطن جعفر إلى أن السؤال كان ذا مغزى، فبغت حتى ظهرت الدهشة

على وجهه فقال: « لا وحياتك، بل أطلقته لأني لم أجد خطرا منه، وقد أخذت عليه المواثيق والعهود حتى لا يعود إلى شيء مما كان فيه».

فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت في يده وقال: « بورك فيك، فقد فعلت ما كنت أرجوه منك ولم تتجاوز ما في نفسي».

فاستأنس جعفر بهذا التلطف ولا سيما لما انتقل الرشيد إلى حديث آخر، ومضى يمازحه وكأن شيئاً لم يكن.

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسل فغسلا أيديهما، وجلسا يتحدثان ساعة، ثم استأذن جعفر في الانصراف فأذن له الرشيد ومشى لوداعه حتى باب القاعة. فلما ودعه عاد يحرق أسنانه وقال في نفسه: « قتلني الله إن لم أقتلك».

أما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولم تخدعه مظاهر الترحيب فخرج وهو شاعر بأنه أصبح في خطر وأدرك أن الحديث الذي قاد إلى ذكر العلوي لم يأت عرضاً ومحض اتفاق فلم تكن نية الرشيد منصرفة إلى إطلاق سراحه كما زعم. وكيف يصدق ذلك وقد كان العلوي مطلقا ومعه أمان بخط الرشيد وخاتمه فما زال الرشيد يسعى حتى أفسد الأمان ومزقه وأمر بالقبض عليه وحبسه خوفا منه. فهل ينطلي على جعفر أنه كان يريد تسريحه وهو العالم بطباع الرشيد وفرط تكتمه. ولكنه أظهر الاطمئنان، فافترقا وهما يتداجيان ويظن كل منهما أنه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع.

وعاد الرشيد بعد وداع جعفرو وهو يفكر فيما مر به ذلك اليوم من المفاجآت. فتذكر مجيء إسماعيل في الصباح وما كان في رده خائبا ولم يقض له حاجة رعاية لحق وزيره جعفر، وما عرفه بعد ذلك من استئثار هذا الوزير بالأمور وإطلاق سراح العلوي، حتى قام في نفسه أن يقتله. ورأى أنه أساء إلى إسماعيل على جميل نصحه وحسن قصده، فأحس بحاجته إلى مجالسته ليطلعه على ما فعل جعفر ويسر إليه ما نواه من الفتك به، لأنه كان واثقاً من إخلاصه وثوقاً لم يكن لأحد من أهله أو رجال دولته، على أن

يتدرج إلى الاعتذار عن رده خائبا. وضاق صدره فلم ير خيراً من أن يخرج للصيد يفرج به كربه. فلما أصبح دعا مسرورا خادمه وأمره أن يوصي أصحاب الصيد بالتأهب للخروج إلى أرض دجيل (قرب بغداد) إلى أن قال: « وهل تعلم مقر إسماعيل بن يحيى؟ ».

قال: « نعم يا مولاي ».

قال: « اذهب إليه وادعه ولا تزعجه بفظاظتك ».

قال: « وإذا سألني عما يريده أمير المؤمنين منه؟ ».

قال: « قل إني عازم على الصيد وأحب أن يكون معي ».

فأشار مطيعاً وخرج إلى الفهادين والبيازة والحجالين وأصحاب الصيد والقنص فأمرهم بالخروج إلى أرض دجيل. وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم إلى ذلك المكان يعرفونها ولا يحتاجون فيها إلى ترتيب أو تدريب، ودجيل هذه بقعة من الأرض طولها عدة فراسخ في مثلها أحاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة مبني بالأعمدة المنصوبة وقد شد بعضها إلى بعض بالأمراس أو الأسلاك على هيئة سور منيع. وكانت عادتهم في الصيد أن يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها إلى ذلك السور، ثم يضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة، ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم وهي تفر أمامهم بين الأعشاب والأدغال، فلا يزالون يضايقونها ويحدونها حتى يدخلوها وراء السور ولا يكون لها مجال. فإذا انحصرت في ذلك الموضع أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة فقنصوا منها ما شاءوا.

وكانت عادة الرشيد إذا خرج للصيد أن يجول بعض النهار على جواده في أرباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم أن الحيوانات قد حضرت وآن صيدها فيأتي ويباشر قنص بعضها بنفسه أو يتفرج على البزاة والصقور والفهود كيف يستخدمها أصحابها في الصيد مما يطول شرحه. أما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج إلى الصيد وسيلة للتحدث إلى إسماعيل.

فلما جاء رسول الرشيد يدعو إسماعيل إلى مرافقته في الصيد، لبس الثياب الخاصة بذلك وركب إلى قصر الخلد، وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة. فما أقبل على القصر حتى رأى أصحاب الصيد خارجين بصقورهم وبزاتهم وفهودهم وقد لبسوا الملابس الخفيفة وفي جملتهم أصحاب اللبابيد، وعلت الضوضاء وتزاحم الناس. هذا يلاعب صقره ويحرضه على طائر مار فوق رأسه فإذا تحفز الصقر أمسكه. وذاك يقود فهده بسلسلة من الحديد وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه أنها وراء شجرة هناك والكلب لا يكترث لأنه لم يشم رائحة الفريسة إلى غير ذلك من أسباب الضوضاء واختلاط الأصوات بين صهيل ونباح وهرير وصرصرة وقعقعة وصلصلة وطقطقة وهدير. فتجاوزهم إسماعيل حتى دخل الباب الثاني من أبواب القصر، فلقيه مسرور وقال له: « لا يترجل مولاي، لأن أمير المؤمنين خارج بموكبه وقد أمرني بذلك».

فوقف حتى رأى الرشيد قادماً على جواده بثيابه الحقيقية والفرسان حوله في موكب الصيد فلم يستطع أن يمسك نفسه عن الترجل فابتدره الرشيد قائلاً: « اركب يا عماه وأدن فرسك من فرسي». وأراه أن يسير متأخراً عنه تأدبا على العادة في مصاحبة الخلفاء، فدعاه أن يحاذيه وقال له: « ليس إسماعيل بن يحيى ممن يطالب بمثل هذه المراسم ، وما دعوتك لمرافقتي إلا لأستأنس بك».

فدعاه له وسار بجانبه، وأمر الرشيد مسرورا أن يطلق أصحاب الصيد إلى عملهم في دجيل كالعادة. ثم سار هو وإسماعيل لا يتكلمان وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد وأشرفا على بساتينها وأرباضها فأمسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم منها فرسان الموكب أنه يريد انصرافهم، فتفرقوا وظل هو وإسماعيل سائرين. فلما انفردا نظر الرشيد إلى إسماعيل وقال والاهتمام باد في محياه: « ما الذي حدثتك به نفسك لما

خرجت من عندي أمس؟».

قال: « لم تحدثني بشيء غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتأييد سلطانك».

قال: « ذلك عهدي بك، على أنك لو عتبت على هرون وانتقدته لما وجدت سبيلاً للومك، لأني لم أرع حقك، وقد أسأت إليك من أجل رجل لم يرع حقي ولا حق بني العباس!». قال ذلك والتفت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد. ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى، ومد يده إلى ناصية الجواد وجعل يمشطها بأنامله وهو ينظر ما يبدو من إسماعيل.

أما هذا فأدرك ما في نفس الرشيد، وأنه يضمر سوءا لجعفر، فشق عليه ذلك لعلمه أنه يعود على الدولة بالخسران، فتجاهل وأقبل يشكر للرشيد حسن ظنه إلى أن قال: « أرى أمير المؤمنين يبالغ في إكرامي، وحاشا له أن يأتي أمراً يوجب اللوم. وهب أنه فعل ذلك فهو فوق اللائمين. وإنما ساءني أنه غير راض عن مواليه ولو صرح لي بما يريد وأباح لي الكلام لزادني منة».

فقطع الرشيد كلامه وقال: « أظنك تتجاهل يا عماه ومثلك لا يفوته إدراك ما أريد».

قال: « إذا صدق ظني فإن الرشيد يشكو من وزيره».

قال: « وهل تستغرب شكواي من رجل سلمت إليه مقاليد دولتي وأطلقت يده في شؤوني على أهلي وذوي قرباي، فأخذ يسعى في هلاكي؟».

فقال: « معاذ الله أن يكون ذلك. وما وزيرك يا أمير المؤمنين إلا من بعض مواليك يبذل نفسه لأجلك، ذلك عهدي به».

وكانا يتكلمان والفرسان يسيران متحاذين بين الأشجار الباسقة المشتبكة أغصانها حتى تظلل الطرق، فبعدا عن المدينة إلى غير مكان مقصود. واتفق أنهما أشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة يدور طريقها حول الضيعة، فدارا حولها حتى اقتربا من بابها، فنظر الرشيد إلى

بيدرها وكثرة الغلال عليه وما يسرح من الماشية الكثيرة حوله، والتفت إلى إسماعيل وقال: «لمن هذه الضيعة يا إسماعيل؟».

فعلم إسماعيل أنها لجعفر، وقد أراد الرشيد أن يتخذ ذلك حجة على صحة الطعن عليه فقال: «هي لأخيك جعفر بن يحيى».

فتنفس الرشيد الصعداء وقال: «ولو سألتك عن سائر ما في هذه الضاحية من الضياع لما أجبت غير هذا الجواب، لأن الذي دعوته أخي قد ملك أهله كل ما يحدق ببغداد من الضياع والبساتين. أرأيت كيف غبنا هؤلاء البرامكة وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم، حتى صارت البلاد ولهم وأصبحت مواكبهم أعظم من مواكبنا وأموالهم أكثر من أموالنا؟. وإذا كانت ضياعهم قرب المدينة فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان؟».

فشق على إسماعيل ذلك القول غيرة منه على سلامة الدولة فقال: «إنما البرامكة عبيدك وخدمك، وما ضياعهم وكل ما يملكون إلا لك!».

ولم يكن الرشيد يتوقع من إسماعيل دفاعا عن رجل كان بالأمس سببا في فشله فازداد رفعة في عينيه ولكنه أستاء من دفاعه، وكان يريده على أن يجاريه فيما ينويه شأن كل غاضب مستبد. فنظر إلى إسماعيل نظرة جبار عنيد وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيماً وقال: «أراك حسن الظن بأعدائي، وتحسبهم عبيداً لي، والبرامكة يعدون بني هاشم عبيدهم، وإنهم هم أصحاب الدولة وألا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة يمنون عليهم بها».

فرأى إسماعيل أن يقف في دفاعه عند ذلك الحد لئلا يتحول غضب الرشيد إليه، فقال: «إن أمير المؤمنين أبصر بخدمه وعبيده».

فأدرك الرشيد أنه خاف غضبه ولم يصرح بما في نفسه، فأحب أن يتعرف رأيه فقال: «ليس لهذا استصحبتك يا عماه ولا هذا عهدي بك، تسايرني وتجاريني خوفاً من غضبي؟».

فتحير إسماعيل في أمره وتردد بين أن يجيبه ويبقي على الكتمان. ومع

علمه بمنزلته عند الرشيد لم يكن ليطلق لنفسه الحرية إلا محاذرا غضبه مخافة أن ينقلب الرشيد عليه إذا أساء الظن به. وهذا جعفر لم يبلغ أحد ما بلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيد يدعوه أخاه، ويدعو أباه يحيى أباه، فلما شك فيه أصبحت حياته في خطر. فظل إسماعيل ساكتا يفكر وهو سائر بجانب الرشيد ولا يدري إلى أين يسير به.

ونظر فإذا هو بباب المدينة فانتبه وقال: «أرانا قد عدنا إلى بغداد فأين الصيد؟».

قال: «إنما جعلت الصيد وسيلة للتحدث إليك، فلم أسمع منك غير ما يقوله سائر الناس ممن يجالسوننا ويصانعوننا، ولكنك شيخ بني هاشم وحكيمهم، فلا أقبل منك مصانعة أو مجاملة».

فقال: «أنا بحمد الله عند حسن ظن أمير المؤمنين بي، ولكنني لم أسمع سؤالاً صريحاً فأجيبه جواباً صريحاً».

وكان موكب الرشيد قد عاد إلى السير بين يديه وهو يدخل بغداد، فقال لإسماعيل: «نحن داخلون بغداد الآن، وعما قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونفرغ للحديث».

فأوجس إسماعيل خيفة من العاقبة، وسكت حتى دخلا القصر فترجلا وسارا إلى غرفة خاصة، فجلس الرشيد على السرير ودعا إسماعيل إلى الجلوس بجانبه، فجلس مطرقاً ينتظر ما يقوله الخليفة، فبدأ هذا بقوله: «قل ما في نفسك، ألا ترى أن هؤلاء الأعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة وأموالها دوننا؟».

قال: «بلى. أتوا هذا نزولا على رأي أمير المؤمنين، فلو أشار بغير ذلك لأتمروا بأمره».

قال: «وهل أمرتهم بأن يستأثروا بكل شيء دوني؟».

فتوقف إسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين أن يصرح له بما يعتقده من فضل البرامكة على الدولة وبين أن يسايره في أقواله، فغلب عليه استقلال

رأيه فقال: « أما وقد أكرمني أمير المؤمنين بحسن ظنه، فلا ينبغي أن أكتمه شيئاً يجول في خاطري. إن البرامكة عبيد مولانا ومواليه، لا خلاف في ذلك، ولكن أمير المؤمنين أعلم الناس بما كان من بلائهم في سبيل الدولة، من عهد جدهم خالد الذي كان في خدمة جدك المنصور، فعرف له فضله وقدمه، كما قدم أمير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر. ولا يخفى على الرشيد ما لهؤلاء من الأثر الصالح في خدمة دولته وتنظيم إدارتها وسائر شؤونها، غير ما لهم من المآثر في رفع منار العلم وأسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الأطباء من الهند وفارس إلى بغداد، وقد بنوا المارستان وأدخلوا الكاغد، وعمروا بغداد، وعنوا بنقل الكتب، وهم لم يفعلوا ذلك إلا والرشيد راض عنه. وأخشى أن أطيل الكلام».

وكان إسماعيل يتكلم وهو يراقب ما يبدو من الرشيد وكأنه لمح في وجهه امتعاضاً من الثناء وأنه لا يرضيه إلا ما يعضد عزمه على الفتك بهم فاستدرك قائلا: « ولا أنكر أنهم من الجهة الأخرى استأثروا بالأموال، والإنسان مطبوع على الطمع، ولكني أعلم أن الأموال التي تجمع من غلتهم ينفق معظمها على أهل الفاقة».

فضحك الرشيد اغتصابا وهز رأسه وقال: « لا يفعلون ذلك مروءة إحسانا، ولكنهم يبتاعون الأحزاب ولا يلبثون أن يجندوا علينا الجند».

فابتدره إسماعيل قائلاً: « معاذ الله».

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه: « وكيف لا ووزيرنا الذي دعوته أخي يمالئ العلويين علينا؟».

فأجفل إسماعيل وقال: « يمالئهم؟».

قال: «نعم إنه أطلق سراح يحيى بن عبد الله وكنت أمرت باعتقاله».

فقال: « أطلق سراح يحيى العلوي؟».

قال: « نعم أطلق سراحه لا شك في ذلك، وقد اعترف لي هو نفسه بالأمر».

فلم ير إسماعيل بابا للدفاع، وتحقق أن الرشيد ماض في غضبه لما في نفسه على الشيعة العلوية فقال: « إنها جسارة وتطاول. وهل تظنه فعل ذلك عن عمد وقصد سيء؟».

قال: « مهما يكن من قصده فإني لن أصبر على فعله هذا».

فقال: « وما الحيلة يا مولاي؟».

قال: « الحيلة؟ لقد حل قتله والسلام».

فأكبر إسماعيل تسرعه وقال: « إذا قتل أمير المؤمنين عبيدة فإنه مالك رقابهم. ولكنه أعلم مني بعاقبة هذا الأمر. وقد قال لي الساعة أن البرامكة يبتاعون الأحزاب».

فأطرق الرشيد وإسماعيل يعملان فكرتهما ثم رفع الرشيد بصره وقال: «فما الذي يراه ابن عمنا؟».

قال: « ألا ترى أن تفرق بينه وبين أحزابه بعمل يتولاه بعيدا عن بغداد؟».

فأبرقت أسرة الرشيد عند ذلك وقال: « ذلك ما عزمت عليه، وسأوليه خراسان. فإذا بعد عن بغداد فكرنا في شأنه».

فسر إسماعيل لقبول الرشيد ما أشار به وقال: « نعم الرأي هذا».

قال: « إنه رأي سديد وبعد ذلك ننظر في أمره». ثم توجه إليه بكليته وقال وهو يتفرس فيه: « اعلم يا إسماعيل إني لم أطلعك على سري هذا إلا لعظم ثقتي بك وإني آمرك أن تكتمه فإنه ما علم به أحد غيرك. فإذا بلغهم شيء مما جرى علمت أنه ما أفشاه إلا أنت أفهمت؟».

فبهت إسماعيل من هذا التهديد وتحقق لما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة، إن على مشيري الملوك أن يسايروهم ويداهنوهم وإلا كانت حياتهم في خطر فقال: « أعوذ بالله أن أقدم على إفشاء سرك يا أمير المؤمنين».

ثم تزحزح الرشيد من مجلسه، ففهم إسماعيل أنه قد آن موعد

الانصراف، فوقف واستأذن فأذن له، فخرج وقد عظم عليه ما سمعه وأصبح خائفا على الدولة من تغير الرشيد، وانطلق إلى منزله يترقب ما يكون منه.

وفي اليوم التالي علم أن الرشيد بعث إلى جعفر فجاءه فأجلسه إلى يمينه وأكرمه، وحادثه ساعة وأهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام من خاصة خدمة وأنبلهم وأوضحهم وجها وأكملهم ظرفا، كاتب حاسب لبيب، وأن جعفر سر سرورا كاملا. فعجب إسماعيل من اقتدار الرشيد على كتمان ما في نفسه مع شدة وطأته وسرعة غضبه. وربما تبادر إلى ذهنه أن الرشيد قد صفح وذهب غضبه على جعفر لولا علمه بإطلاق سراح العلوي مع كره الرشيد للشيعة وخوفه منها على ملكه.

ثم علم إسماعيل بعد يومين أن الرشيد خلع على وزيره خلع، وعقد له لواء على خراسان. فظنه قد صفا له، وتمنى أن تزول الضغائن وتعود المياه إلى مجاريها ولا سيما بعد أن علم برضاء جعفر عن هذه الولاية وإسراعه في إرسال أعوانه ورجاله يتقدمونه إلى النهروان خارج بغداد. فإنهم ذهبوا وضربوا مضاربهم وأخذوا يتأهبون للرحيل إلى خراسان، وهي بعيدة الشقة تحتاج إلى الأحمال والأثقال. فلما تحقق إسماعيل قرب سفر جعفر رأى أن يزوره ويودعه ويسعى في إزاله ما قد يكون في نفس الرشيد عليه بوسيلة خطرت له.

وأما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب ما في قلبه على الرشيد ولكنه رأى توليته خراسان بابا للفرج وعزم على أن يتصل بالعباسة ليكلمها في شأن الذهاب معه. ففي اليوم الذي احتفلوا فيه بالخلع عليه عاد إلى قصره في الشماسية وهو أحد قصور البرامكة في ذلك الحي، وكان لهم عدة قصور هناك أشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية، وقصر آخر في باب البردان. وكان جعفر في ذلك العام مقيماً بقصره بباب الشماسية، ولا تقل قصوره فخامة عن قصور الرشيد، ويكفي ما تقدم من وصفها في القصيدة التي دستها زبيدة إلى زوجها وفيها يقول الشاعر في وصف تلك الدار:

وقد بنى الدار التي ما بنى الفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند

فاعتبر ما يكون من فخامة هذا القصر وأمثاله من قصور البرامكة مما يضيق المقام عن وصف ما فيه من الرياش الفاخر، وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الأمين ودار القرار (قصر زبيدة) فقس عليها.

فعاد جعفر إلى قصره وهو لا يصدق أنه ولي خراسان، وإن كان الرشيد قد وعده بها غير مرة فتبادر إلى ذهنه أن ليس في قلب الخليفة غل عليه، أو أنه ولاه خراسان خوفا منه على دولته إذا ظل في بغداد، فتشجع واستضعف الرشيد ونسي خوفه منه. فلما عاد إلى القصر أمر قهرمانه أن يستعد للرحيل ويوصي قيّم الجواري والعبيد وكاتبه بأن يتهيأوا في الغد. ودخل القصر وكان قد أعجب بالخادم الذي أهداه الرشيد إليه لأدبه وفرط جماله فاصطحبه إلى قاعة ريشها سماوي اللون لاعتقاده أن هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ودخل الغلام لمؤانسته. ثم جاءه الحاجب يقول: « إن إسماعيل بن يحيى بالباب».

فنهض جعفر لاستقباله وأدخله حتى أجلسه في صدر مجلسه، لأنه كان يجل مقامه ويثق به لصفاء نيته وصدق لهجته. ثم لحظ في أثناء الحديث أنه يكتم أمراً يريد اطلاعه عليه، فصرف من في مجلسه من الناس ولم يبق في الغرفة سواهما. وأقبل جعفر بكليته ليسمع حديثه فقال إسماعيل: « يا سيدي أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده».

فلما سمع جعفر قوله تبادر إلى ظنه أن الرشيد أوفده للتوسط في ذلك فزاد استخفافا به واستقواء لنفسه، وغلب عليه الحقد، وظن نفسه نجا من قبضته بانتقاله إلى خراسان قبل أن يكشف أمر العباسة. وكان حسن الظن بإسماعيل وكثيراً ما ذكر فضل بيته على الدولة بين يديه وإسماعيل يوافقه فقال: « والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي، ولا قامت هذه

الدولة إلا بنا. أما كفى إني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه إلى ما ادخرته لولدي وعقبي من بعدي، وحتى يدب فيه طمع بني هاشم، والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعاً».

فندم إسماعيل على مجيئه إليه، وخاف أن يترتب على حديثه أمر يبلغ الرشيد فيعده منه إفشاء، فغيّر الحديث حتى اغتنم فرصة للاستئذان وخرج.

أما جعفر فعاد إلى صوابه بعد ذهاب إسماعيل فرأى أنه أخطأ بما بدر منه طعنا في بني هاشم وإسماعيل منهم. فسبق إلى وهمه أنه ربما باح للرشيد بما سمعه منه فلا يبقى سبيل للصلح، فزاد تمكنا عن عزمه على الفرار بالعباسة والولدين، وصفق فجاءه خادمه حمدان، وكان حسن الاعتماد عليه، فأسر إليه عزمه وقال له: « نحن غدا مسافرون إلى معسكرنا في النهروان، فاذهب إلى عتبة وقل لها أن تخبر مولاتها العباسة أن تكون على أهبة الرحيل ريثما أبعث إليها من يحملها إلي. أفهمت؟».

قال: « نعم يا مولاي فهمت». وخرج حمدان مسرعاً.

***

كانت العباسة أثناء هذه الحوادث وعلى أثر اجتماعها الأخير بجعفر وما سمعته من الوعد بالذهاب إلى خراسان لا تنفك تفكر في هذه الأمنية، وهي لا تصدق أنها تظفر بها، لأنها كانت تفضل الإقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين بكوخ حقير على الإقامة بتلك القصور الفخمة تحت الخطر وبين الرقباء. ولا سيما بعد أن اطلع أبو العتاهية على سرها ورأى ولديها بعينه وحدث ما حدث له. فكانت لا يهدأ لها بال خوفا من بلوغ ذلك إلى أخيها. وكانت لا ترى اثنين يتساران إلا ظنتهما يتكلمان عنها، ولا ترى كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها إلا حسبتها آتية للقبض عليها. ولم تكن تتعزى إلا باجتماعها بجاريتها عتبة، فكانت تبوح لها بمخاوفها وهذه تطمئنها ،وتمنيها، حتى علمت في ذلك اليوم أن الرشيد عقد لجعفر على

خراسان، ورأت الناس يتسابقون في الطرق لحضور الاحتفال بذلك، فكادت تطير فرحا. ومكثت تتوقع أن يأتيها رسول جعفر فمضت عدة ساعات حتى علمت بخروج أعوان جعفر ورجاله إلى النهروان ولم يأتها الرسول، فخطر لها أن يكون حبيبها قد شغل عنها، وشكت في صدقه. والمحب كثير الشكوك. وهمت بالشكوى إلى عتبة وكانت جالسة معها على الشرفة التي انتظرت فيها جعفر منذ أيام. وإذا بحمدان مقبلا بلباس خدم قصرها، فلما رأته قادماً أرسلت عتبة لاستقباله وتلقي الرساله منه فلما لقيها قص عليها نبأ المهمة التي أتى بها، وألح عليها أن تبلغ مولاتها أن تكون على أهبة السفر بما خف حمله وأن تتنكر بلباس بعض الجواري، حتى إذا جاء الرسول لا يحتاج في إخراجها إلى أكثر من كلمة. فلما خبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وأمرتها باستدعاء حمدان إليها لتسمع تلك البشرى من فيه، فدخل ووقف متأدبا فقالت له: «كيف فارقت سيدك؟»

قال: « بخير يسلم عليك يا مولاتي».

قالت: « ومتى تظننا نخرج من هنا؟».

قال: « ربما في صباح الغد».

فالتفتت إلى عتبة لفتة كأنما تذكرها بالولدين الحسن والحسين.

فقالت هذه: « إنهما في مأمن مع الخادمين كما تعلمين ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمها من الحجاز أو من حيث يكونان وتتخلصين من هذه المخاوف».

فتنهدت العباسة تنهدا عميقا، ولكن البشر كان يتجلى في وجهها، فصرفت حمدان ودخلت إلى غرفتها وأخذت عتبة في الاستعداد للسفر.

وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل والعباسة منفردة في الغرفة فما لبثت أن أصابها رد الفعل فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها إذ تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدي أخيها وأنها ستترك ذلك القصر بما فيه من أسباب الراحة، بعد أن ألفت قاعاته وحدائقه وأثاثه وخدمه وجواريه

وكل شيء فيه، نعم إنها تؤثر الإقامة مع حبيبها بكوخ على الإقامة وحدها بقصر. ولكن الإنسان ابن العادة إذا ألف شيئاً شق عليه فراقه فكيف بها وقد ربيت في ذلك القصر ولم تخرج منه إلا نادراً. على أنها كانت إذا تصورت ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدأ روعها. ثم يعترضها ما تخافه من نقمة أخيها إذا علم بفرارها فقد يحمله غضبه على تجريد الجيوش في طلبها فكادت هذه الهواجس تثني عزمها وهي تغالب عواطفها وتمني نفسها بالنجاة. وفيما هي في هذا تذكرت خادما لها كان أمينا على سرها أثناء مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم في قصرها واسمه «أرجوان». وكانت تستأنس به إبان اضطرابها وقلقها، فرأت أن تصطحبه في فرارها فنادت عتبة وسألتها: «أين أرجوان؟».

قالت: «هو هنا في القصر، هل أدعوه؟».

قالت: «نعم فإني أرى أن نصطحبه».

فخرجت ثم عادت ومعها أرجوان، وكان أسود اللون أصله من بلاد البربر في شمال أفريقية، وقد ربي في قصر المنصور وكان مقربا منه لأن أم المنصور بربرية. وكان طويل القامة وأكثر طوله في ساقيه على طبيعة الخصيان. وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره ولولا قلة الشعر في وجهه لظهرت شيبته وبانت كهولته. ولكن الخصيان قلما يعرف عمرهم من النظر إليهم. وكان أرجوان قد ربى العباسة منذ طفولتها وأخلص الخدمة لها فألفته وأحسنت الثقة به. فلما استقدمته وقف بين يديها، فنظرت إليه والدمع في عينيها، فلما رآها تبكي بكى معها وقال بصوته المؤنس وغنته الأعجمية: «بماذا تأمرين يا مولاتي؟».

قالت: «نحن مسافرون وأحب أن تخرج معنا».

قال: «إني عبدك وطوع أمرك».

قالت: «أتدري إلى أين؟».

قال: «حيث تشائين ولو إلى القتل».

قالت: « بورك فيك يا أرجوان، فاعمل مع عتبة في إعداد حوائجنا وهي تخبرك الخبر».

قال: « سمعاً وطاعة». وخرج مع عتبة فقصت عليه ما هم فيه فأخذ في التأهب.

فلنتركهم ونعد إلى الرشيد.

-١٣-

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد أكثر كتماناً لسره مما ظهر لإسماعيل، فإنه على عظيم ثقته به لم يطلعه على ما ينويه لجعفر انتقاماً منه لإطلاقه سراح العلوي. وهو إنما ولاه خراسان. وعقد له عليها ليجربه ويستطلع كنه ما في ضميره، فأهداه ذلك الخادم الجميل ليكون جاسوساً ينقل إليه أقواله وكان هذا الخادم واقفاً ساعة زيارة إسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر، فكتب بذلك إلى الرشيد لساعته. فلما وصل كتابه إليه تحقق سوء نية جعفر فعادت إليه مخاوفه، وكان جالساً على سريره فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الأمر عليه ورأى الفرصة ضيقة لا تأذن بأعمال الفكرة. وخيل إليه أن وزيره إذا خرج من بغداد أفلت من يده، وأهل خراسان طوع إرادته فيسهل العصيان عليه. فلما تصور ذلك خفق قلبه وأشكل عليه أمره فأخذ يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً كأنه أصيب بجنة، وأحس بحاجة إلى من يفضي إليه بقرارة نفسه ولم يَعد يرى أن يتحدث مع إسماعيل بعد الذي علمه من حديثه مع جعفر وصداقته له وإن كان لا يسيء به الظن فكأنه يسعى إلى من يجاريه في عزمه ويصوب رأيه ولا يحاجه كما فعل إسماعيل.

قضى ساعة مترددا حتى كاد يتقد غيظاً، فخطر له أن يشاور امرأته زبيدة في الأمر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد. وكان يحب زبيدة ويحترمها ويتبرك بمشورتها ويعلم بما بينها وبين جعفر من العداوة

القديمة. فلما خطر له ذلك سرى عنه. وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسرورا وأمره أن يهيئ له برذونا ليركب عليه خفية إلى قصرها (دار القرار) ولا يكون معه أحد سواه.

فأعد له البرذون فركبه، وتلثم ومشى مسرور في ركابه فلما أقبل على الدار لم يعرفه الحرس ولكنهم عرفوا مسروراً ففتحوا له، فدخل الحديقة ثم ترجل الرشيد وأمر مسرورا أن يسبقه إلى زبيدة فيخبرها بقدومه. فلما أخبرها أدركت إنه إنما جاءها في تلك الساعة لأمر خطير، فخرجت لاستقباله في القاعة التي استقبلت فيها ابنها محمدا منذ أيام، وقد أضيئت فيها الشموع فزادتها بهاء ولبست أفخر ثيابها وتطيبت واستقبلته أحسن استقبال وعليها العقود من الجوهر وفي رأسها الدبابيس المرصعة وفي صدرها الحلي المنمقة على أشكال بديعة، حتى خفافها كانت أيضاً مرصعة كما علمت. وأقبلت ترحب به وتلاطفه.

فابتسم لها على شدة غضبه وجلس على السرير وأخذ بيدها وأجلسها بجانبه وهو يتشاغل بالنظر إلى ما عليها من الحلي وقد زادتها الشموع لمعاناً ورونقاً. أما هي فلحظت ما يستر ابتسامته من الغيظ، ولكنها تجاهلت وعادت إلى الترحاب فقالت: « مرحباً بأمير المؤمنين لقد آنسني بلقياه وشرفني بقدومه فهل يأمر بطعام أو شراب؟ ».

فقال: « لم آتك للطعام يا ابنة العم! ».

فقالت: « لخير جئت إن شاء الله ».

فمد يده إلى جبينه وأخرج الكتاب الذي جاءه من جاسوسه ودفعه إليها ولم يتكلم، فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها، فلما فرغت من قراءته أعادته إليه وهي تضحك فقال لها: « أراك تضحكين كأنك لم تقرئي الكتاب؟ ».

قالت: « بلى قرأته! ».

قال: « لا أظنك تدركين فحواه إلا إذا أخبرتك بما ارتكبه هذا

الفارسي».

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر العباسة فتجاهلت وقالت: «وماذا ارتكب؟».

قال: «أنه أطلق سراح العلوي الذي لم نقبض عليه إلا بشق الأنفس ولم نكد نصدق أننا حبسناه وأمنا شره حتى أطلقه. وأنت ترين من الكتاب أن هذا العبد قد شمخ بأنفه حتى أصبح يهددنا. فمن يضمن لنا أنه إذا سار إلى خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من أيدينا. فأشيري علي فإني أتبرك بمشورتك».

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف، ولم يكن أحد من أهل الخافقين يجسر على ذلك بين يدي الرشيد سواها لأنه كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب، فكيف إذا أضيف إليها نفوذ صاحب الحق لأنها كثيراً ما نصحت له بأن يعدل عن الاستسلام لجعفر وأهله فلم يكن يطيعها بل كان يحمل ذلك منها على الغيرة منهم. فلما جاءها الآن يشكو عواقب استسلامه نظرت إليه نظر الظافر وقالت: «مثلك يا أمير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غرق في بحر عميق، فإن كنت قد صحوت من سكرتك وأنقذت من غرقك أطلعتك على ما هو أعظم من ذلك بكثير. وإن كنت لا تزال على الحالة الأولى تركتك».

فأثرت لهجتها في نفس الرشيد تأثيراً شديداً. ولولا حرمتها عنده ما أمسك عن الفتك بها فقال لها: «قد كان ما كان. فقولي أي شيء أعظم من هذا؟».

قالت: «إن الأمر الذي أشير إليه قد أخفاه عليك وزيرك، وهو أصعب مما أنت فيه وأشنع».

فغضب الرشيد وقال: «ويحك وما هو؟ قولي».

فأعرضت بوجهها عنه وقالت: «أجل نفسي عن الكلام فيه، ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضرباً فإنه يعترف لك».

فكاد الرشيد يتقد غيظاً، فنهض وقال: « أرجوان خادم العباسة أختي؟ ».

قالت: « نعم خادم العباسة أختك ».

فقال: « أين هو . . ؟ ».

فصفقت فجاءها أحد الشاكرية الواقفين ببابها فقالت: « اذهب لساعتك وادع لنا أرجوان الخادم من قصر العباسة ».

فأجاب مطيعاً وخرج، وظل الرشيد في انتظاره كأنه على الجمر وزبيدة جالسة بين يديه ولم يفه أحدهما بكلمة.

وكان أرجوان مطلعاً على سر مولاته وسبب سفرها، حريصا على راحتها متفانيا في سبيل مرضاتها. والخصيان إذا طابت سرائرهم كانوا نعمة لمواليهم، فالرجل منهم ينسى نفسه وينقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه. ولعل السبب في ذلك أنهم لا يتزوجون فلا يعلقون بولد أو امرأة فتنصرف عواطفهم إلى مواليهم يسرون لسرورهم ويحزنون لحزنهم، لا يبالون بما يقاسونه في سبيلهم سواء أكان مولاهم على حق فيما يعمله أم كان على باطل.

وكان أرجوان من أطيب الناس قلباً وأشدهم تفانيا في خدمة العباسة. ونظراً لما تتمتع هي به على يده من أسباب الراحة بما يسهله له من دخول جعفر إلى قصرها وخروجه، كانت تبالغ في إكرامه وتحسن معاملته وهو يزداد تعلقا بها.

وكان ذلك المساء في شاغل من التأهب للسفر وإذا بالخدم يدعونه، فخرج فرأى شاكريا ينتظره بالباب فعرف أنه رسول من زبيدة فقال: « ما وراءك؟ ».

قال: « أجب مولاتنا أم جعفر ».

قال: « الساعة؟ ».

قال: « نعم في هذه الدقيقة ».

قال: « تمهل حتى أخبر مولاتي بذلك».

قال: « لا حاجة إلى إخبارها فإنها كلمة تقولها مولاتنا لك ثم تعود» فصدقه وخرج والعباسة لا تعلم.

أما الرشيد فمل مجلسه فنهض وتمشى في فناء الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويسائل نفسه عما عسى أن يكون ذلك الأمر العظيم حتى تأبى زبيدة التصريح به وتحيله على الخصي فخالجه الظن بأنها فضيحة تمس العرض. ثم سمع وقع أقدام في الحديقة فعلم أن الشاكري قد عاد فرجع إلى القاعة، وكانت أم جعفر قد خرجت منها لئلا تسمع ما يدور بين الرشيد والخصي.

فدخل الشاكري وقال: « أرجوان بالباب يا أمير المؤمنين».

فقال: « هاتوا السيف والنطع».

فأتاه الشاكري بهما فبسط النطع في الدهليز خارج القاعة، ووضع السيف بجانبه. ثم قال: « أين أرجوان.. ؟ أدخله».

ولما سمع أرجوان صوت الرشيد مغضبا سقط في يده، فدخل وركبتاه تصكان من الخوف ووقف متأدبا، ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف ولم يجسر أن يرفع بصره عن الأرض، فأشار الرشيد إلى مسرور بأن يبعد الخدم والشاكرية وأن يغلق الأبواب حتى لا يعلم أحد بما يحدث، ثم نظر إلى أرجوان وقال: « إن لم تصدقني حديث جعفر، فلا نجاة لك من القتل!».

فعلم أنه يسأله عن أمر جعفر مع العباسة، فظل ساكتاً ولو أراد كلاماً لما أطاعه لسانه من شدة الخوف. فصاح الرشيد: « ما بالك؟. تكلم وإلا هذا النطع والسيف». ثم صاح « مسرور!».

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب بأسرع من لمح البصر، فأشار الرشيد إليه فاستل السيف ووقف بجانب النطع ينتظر أمر الخليفة. فلما رأى أرجوان ذلك جثا عند قدمي الرشيد وأخذ يقبلهما ويبكي، فتلطف الرشيد في خطابه وقال بصوت هادئ: « قل الصدق ولا تخف. ما الذي تعلمه من أمر جعفر

وأهل القصر؟ قل حالا».

فقال وصوته يختنق ولسانه يتلعثم من الخوف والبكاء: «الأمان يا أمير المؤمنين».

قال: «نعم لك الأمان إن نطقت بالصدق، وإن لم تتكلم فنحن مطلعون على كل شيء فنقتلك بهذا السيف».

فحدثته نفسه أن يحافظ على سر مولاته فداء لها بنفسه، ولكن غريزة الضعف أمام الموت غلبت عليه، وهي تغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال فكيف بعبد خصي مهما يبلغ من إخلاصه. فانتحل لنفسه عذراً بأن الرشيد لم يسأله إلا وهو عالم بكل شيء فإذا أنكر وقتل فلا يجدي موته مولاته شيئاً. أما إذا اعترف وظل حياً فقد يستطيع إنقاذها أو خدمتها. مرت تلك الخواطر في ذهنه كما يمر البرق الخاطف وأحس بوخز في ضميره إن هو باح بسر مولاته، وجمد ريقه في فمه وتلعثم من هول موقفه ولحظ الرشيد تردده فصاح فيه: «قل. أو أقتلك؟».

فقال وصوته يتلجلج: «إن جعفر تزوج أختك العباسة منذ سبع سنين وولدت منه ثلاثة بنين: أحدهم له ست سنين، والآخر له خمس سنين، والثالث.. عاش سنتين ومات من قريب. والاثنان أرسلا.. إلى مدينة الرسول.. وهي حا.. مل.. بالرابع..» واختنق صوته.

وكان الرشيد يسمع كلامه والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ أرجوان من كلامه قال له الرشيد: «كيف تعلم بهذا ولا تخبرني؟».

فتشدد أرجوان عند هذا السؤال وقال: «أنت أذنت لوزيرك بالدخول على أهل بيتك، وأمرتني ألا أمنعه في أي وقت ليلاً أو نهاراً».

فقال وهو يحرق أسنانه: «أمرتك ألا تحجبه. فلم لم تخبرني أول مرة. ثم التفت إلى مسرور وقال: «اضرب عنقه».

فأمسكه مسرور بيد من حديد وجره إلى النطع بعنف كأن له عليه ثأراً فسقط أرجوان وهو يقول: «الأمان الأمان».

فلم يمهله مسرور حتى يقول الثالثة مخافة أن يجيب الرشيد طلبه فيعفو عنه وهو سفاك غليظ القلب يلذ له منظر الدماء ويفتخر بعدد الذين قتلهم وبسرعة فتكه بهم فابتدر أرجوان بضربة سيف على عنقه فأزاح رأسه عن كتفيه.

أما الرشيد فحول وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً، وكانت جالسة على فراشها وقد أطرقت تفكر، . فلما رأت الرشيد داخلا تحفزت للقيام ولم تقم. أما هو فلم يلتفت إلى شيء لما هو فيه من الحنق، وقال وصوته يرتجف ولحيته ترقص وقد امتقع لونه: « أرأيت ما عاملني به جعفر؟. وما ارتكب من هتك ستري وفضيحتي بين العرب والعجم».

فقالت بصوت هادئ وجأش رابط: « هذه إرادتك. عمدت إلى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه وأدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي أحسن منه وجها وأنظف منه ثوباً وأطيب رائحة. لكن هذا جزاء من جمع بين النار والحطب».

فقال: « ألا تزالين تعنفينني. والله لماحون هذا العار بالدم».

فسرها تهديده وأحبت أن تمكنه من عزمه انتقاماً من جعفر فقالت: «أخشى ما أخشاه أن يأخذك عليه عطف الأخوة إذا رأيته فتعفو». قالت ذلك وهي تتشاغل بثنية أهداب كمها المزركش بالقصب والغضب والعتب في عينيها. فأشعر الرشيد بما في كلامها من التأنيب، وإنها على صواب فيما توجهه إليه من اللوم المستتر على أن أصم أذنيه عن مشورتها، ولكنه استكبر أن يسمع من أحد كائنا من كان نقدا. فكظم وقال: « كفى يا ابنة العم وعلينا الآن أن نأخذ الحيطة لكتم جو هذه الفضيحة، فوالله ما عرف بها أحد إلا قتلته عسى أن أمحو وزر أختي ووزيري الذي كنت أدعوه أخي».

وكانت أعلم الناس بطبعه وبتضارب عواطفه وتردده، وأحست أنه يهم بالخروج فوقفت وحاولت إبقاءه عندها فأبى وودعها غير آبه إما خجلاً أو

حنقاً، فأمسكت بيده واستوقفته فوقف فقالت: « تمهل.. ألا تحب أن تعرف أين الغلامان؟ ».

فأجفل وقال: « الغلامان؟.. علمت أنهما في المدينة ».

قالت: « كلا بل هما في مكان قريب أعرفه، أحضرهما متى شئت ».

فقال: « في بغداد؟ ». قالت: « نعم ».

فتحول عنها وصاح وهو في القاعة: « مسرور ».

فحضر مسرور بأسرع من البرق فقال له وزبيدة واقفة: « هل رأيت شيئاً الليلة؟ ».

قال: « كلا يا مولاي فأنا أصم أعمى ». إشارة إلى مبالغته في الكتمان. فأمره بأن يأتيه بالبرذون وسار في أثره فأتاه به فركبه وسار إلى قصر الخلد، ومسرور يعدو في ركابه وقد مضى هزيع من الليل فقطع الطريق غارقا في الهواجس، وقد نسي نفسه لما جاش في خاطره من أمر العباسة. وأعمل فكرته فيما دهمه. الأمر العظيم فرأى أن ملكه وسطوته وأمواله وكل ما حازه من نعيم الدنيا لا يخفف عنه وطأة ذلك المصاب. وحدثته نفسه أن يستقدم أخته أو يذهب إليها ويفتك بها. ولكنه خاف الفضيحة فصبر نفسه إلى الغد.

-١٤-

بين الرشيد والعباسة

كانت العباسة في غفلة عما يدبرون، لانهماكها في إعداد معدات السفر، وعتبة إلى جانبها تبذل جهدها في تسليتها وتطييب خاطرها وتمنيها بما أعدته لها من أسباب الهناء والسعادة متى خرجت من بغداد وأقامت بخراسان، إذ يكون صاحب السلطة فيها. وكانت العباسة إذا اهتدت بهدي عقلها رأت أنها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل إلى سفك الدماء. أما إذا أطاعت وحي قلبها وتصورت اجتماعها بزوجها بعيدة عن الرقيب منصرفة إلى تربية ولديها تحت كنف أبيهما فتبرق أسرتها وتنبسط نفسها، ثم

يعترضها علم أخيها وغضبه فتعود إلى الانقباض. ثم طرأ عليها فجأة خاطر أزال قلقها. وذلك أن تكتم اسمها وخبرها في خراسان فتعيش مع زوجها وولديها مستترة حتي يقضي الله بما يشاء.

وفيما هي في ذلك رأت عتبة تعدو نحوها والبغتة ظاهرة في وجهها، فخفق قلبها وتصاعد الدم إلى محياها ولم يكن من شيء أسرع إلى وقوع الرعب في ذلك القلب لما يحيق بصاحبته من الأخطار من كل صوب، فلما رأت عتبة على ما هي عليه من الاضطراب صاحت بها: « ما وراءك؟»

قالت: « أرجوان!». وسكتت.

فبغتت العباسة وقالت: « ماذا جرى له؟».

قالت: « لا أعلم أين هو!».

قالت: « أليس في القصر؟ ابحثي عنه لعله في بعض الغرف يهيئ معدات السفر».

فهمت بالخروج وهي لا تنويه ثم عادت ووقفت متحيرة وأطرقت فازدادت العباسة خوفاً وقالت: « ما بالك؟.. ماذا جرى له. قولي أين هو؟».

قالت: « لا أدري يا مولاتي، وقد أخبرني الخادم أنه خرج من القصر و..».

فقطعت كلامها قائلة: « خرج من القصر؟! أيذهب في مثل هذه الساعة؟ أين ذهب؟».

قالت: « لا أعلم..» وغصت بريقها.

فقالت العباسة: « ويحك قولي.. أين هو؟».

قالت: « أظنه.. ذهب إلى قصر دار القرار».

فصاحت: « دار القرار؟ إلى أم جعفر؟ ما شأنه هناك؟».

قالت: « علمت أن شاكريا جاء في طلبه على عجل ولم يمهله ليستأذنك».

فعضت العباسة شفتيها وأطرقت لحظة ثم قالت: « شاكري جاء في طلبه؟ . وما ظنك بهذا؟» .

قالت: « أظنه ذهب لأمر مخيف!» .

فقالت: « مخيف؟! ولماذا؟ قد يكون ذلك لأمر تافه» .

قالت: « بل ذهب لأمر مخيف، لأن أمير المؤمنين هناك الليلة» .

فدقت العباسة يداً بيد وصاحت: « أمير المؤمنين هناك؟ ومن أنبأك بذلك؟ قولي . . . لقد أزعجتني يا عتبة» .

قالت: « علمت هذا من جاسوس لنا في قصر الخلد جاءني منذ ساعة وأخبرني أن الرشيد ركب برذونه وجاء إلى دار القرار ومعه الخادم اللعين مسرور، ولم أعر الأمر اهتماماً بادئ ذي بدء، فلما علمت بذهاب أرجوان وقع الرعب في قلبي فجئت إليك . . إني خائفة من العاقبة يا سيدتي!» .

فأطرقت العباسة وقد أخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً، وفكرت فيما سمعته وارتبكت وقالت: « ماذا تخشين من وجود أخي هناك. وعلى كل حال فنحن على أهبة السفر غداً» .

قالت: « صدقت، قد فرغت من الاستعداد فإذا رجع أرجوان ورأينا في الأمر ما يدعو إلى التعجيل خرجنا لساعتنا» .

قالت: « ولكن الوزير أمرنا أن نتربص ريثما يأتينا رسوله» .

قالت: «سنرى. سأرسل خصيا ليأتينا بنبأ أرجوان» .

قالت: « افعلي» . وتحولت عنها إلى الشرفة التي تعودت أن ترى منها رسول جعفر. وخرجت عتبة لإرسال الخصي.

***

وقفت العباسة في الشرفة وعيناها شائعتان نحو الطريق والظلام يحجب بصرها وكلما رأت شبحا ظنته رسول جعفر.

ظلت على ذلك حتى انتصف الليل والشجون تتقاذفها، فلما استبطأت عتبة همت بأن تبعث في استقدامها فإذا بها آتية تعدو والدمع ملء عينيها وقد

نبش شعرها وامتقع لونها وأبيضّت شفتاها فصاحت العباسة: « ما بالك يا عتبة؟ لماذا تبكين؟ . . ماذا دهاك؟ ».

فأسرعت عتبة وأمسكتها بيدها وجرتها إلى حافة الشرفة . وهي ترعش خوفا وقالت: « اذهبي يا سيدتي . . انزلي من هذه الشرفة . . انجي بنفسك . . ».

فقالت: « ماذا جرى؟ هل عاد الجاسوس وماذا قال؟ ».

قالت: « عاد ولم تنفعنا عودته! . . انزلي من هذه الشرفة واختبئي في الطريق حتى أرسل إليك من يصحبك إلى مولاي الوزير . انزلي . هيا ».

فاستغربت وقالت: « ماذا جرى . . قولي ». فقالت وصوتها يرتجف ويتقطع: « أمير المؤمنين . . يا مولاتي . . أمير المؤمنين ». وأومأت بيدها إلى الداخل .

ففهمت أن الرشيد جاء القصر وأدركت أن الأمر بلغ أشده لأن أخاها لا يأتيها نصف الليل إلا لأمر عظيم . فعظم عليها الأمر لأول وهلة فوقفت، ثم أخذتها عزة النفس وزال ما كانت فيه من الاضطراب وأكبرت أن تفر وهي لا تضمن النجاة: وتحولت رعدتها إلى سكينة وثاب إليها رشدها فبقيت مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحثها على الفرار من الشرفة . ثم سمعت وقع أقدام فجذبت ثيابها من عتبة وقالت: « دعيني فإني أريد أن أرى أخي وجها لوجه وأسمع ما يقول ». ثم تراجعت وهمست إليها قائلة: «ارسلي رجلاً سريع الخطى إلي الوزير ليطلعه على ما جرى ليأخذ حذره مخافة أن يصيبه ما أصابنا لأن مجيء أخي في هذا الهزيع على هذه الصورة ينذر بشر مستطير ».

قالت ذلك ونزلت من الشرفة إلى الدار، فلقيت الرشيد مارا في الدهليز متجهاً نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عباءة واسعة، لأنه جاءها متنكراً، وكان قد ذهب إلى قصره على أن يؤجل أمرها إلى الغد، فعظم قلقه واشتد أرقه فبادر إليها مستصحباً مسرور خوفاً من أن يبلغها غضبه فتركن إلى الفرار، ولم يكن يتوقع أن يراها خارج الفراش فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر .

أما هي فتجلدت ورحبت به قائلة: « لقد شرفني أخي بزيارته».

فلم يجبها بل ظل ماشياً إلى مقصورة لها في بعض جوانب القصر تعود أن يجالسها فيها إذا زارها، فتبعته وركبتاها تصطكان وهي تضبط شعورها، وقد ذهب عنها خوفها، لأن توقع المصيبة شر من وقوعها. وكبير النفس إذا تراكمت عليه المخاوف وتحقق وقوع الخطر تجلد ورجع إليه رشده. وهكذا هي فإنها تشددت وقام في نفسها أن تناقش أخاها الحساب فإذا قتلت بعد ذلك فلا تأسف على الحياة.

وكانت عتبة تمشي في أثرها تبكي وتتمتم، فأشارت إليها أن تنصرف لإنجاز المهمة التي كلفتها بها. ورأت العباسة في دهليز الدار مسروراً الخادم واقفاً فلما وقع نظره عليها حياها باحترام فلم تجبه. وما زالت تمشي وراء الرشيد حتى دخل المقصورة وفيها كرسي قعد عليه. وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه فتجاهلت ووقفت أمامه تنظر ما يبدو منه.

أما هو فأمرها بإغلاق الباب فأغلقته ووقفت بجرأة لم يعهدها فيها من قبل فابتدرها قائلاً: « أراك في ثياب السفر يا عباسة فإلى أين؟».

قالت: « إلى حيث لا أرى أخا ولا أخاف ظلماً».

فعظم عليه أن تفاجئه بهذه الجسارة، على حين توقع منها تذللا وتضرعا. فحمي غضبه ثم تجلد ليرى بماذا تجيبه عما أراد أن يسألها فيه فقال: « أتعلمين لماذا جئتك والناس نيام؟». قالت: « كلا».

قال: « فلماذا بادرتني بهذه القحة؟».

قالت: « سألتني سؤالاً فصدقتك الجواب».

قال: « لقد تأخرت في الصدق بعد الخيانة التي ارتكبتها».

قالت: « لا أعرف أني ارتكبت خيانة ما. ولو سألتني هذا السؤال من قبل ما كذبتك».

قال: « ألم تكوني أخت أمير المؤمنين؟».

قالت: « بلى. وما زلت أخته فيما أعلم».

قال: « أمثلك تخون أخاها مع رجل من الموالي؟..».

قالت: « إني لم أرتكب خيانة قط، وما كنت لأخون أخي أو سواه!».

قال: « أهكذا تجيبينني؟ لقد أصبح أمرك مشهوراً حتى أذللتني بين الملأ بما أتيته من الخيانة!».

قالت: « وأي أمر تعني يا هرون.. لعلك تعد الصدق خيانة؟».

قال: « أعني أمرك مع جعفر الذي لم يرع حرمتي ولم يخش سطوتي».

فأحبت عند ذلك أن تجادله بالتي هي أحسن عسى أن يرق لها ويستبقيها فقالت: « إن الوزير لم يخرق لك حرمة ولا أراد بك سوءاً. فارفق يا أخي ولا تعجل في حكمك».

فصاح فيها: « لا تدعيني أخاً، فإني بريء منك».

قالت: « تبرأ مني ما شئت. ولكن ذلك الرجل لم يرتكب إثماً».

قال: « ويحك ألا تزالين تحاولين الكتمان؟ لقد علمت كل شيء، وأطلعني أرجوان خادمك الخائن على سرك، فإذا أنكرت فإن ولديكما يشهدان!».

فلما سمعت ذكر ولديها تحرك حنانها وخيل إليها أنها إذا جافته دعته إلى إيقاع الأذى بهما، فصغرت نفسها وضعف عزمها وغلب عليها الحنان واستسهلت في سبيل نجاتهما أن تتذلل وتستعطف. فجثت عند ركبتي الرشيد وأرادت أن تتكلم فسبقتها العبرات فظنها تهم بالاعتراف توطئة للإستغفار فحول وجهه عنها وقال: « لقد علمت إني مطلع على حقيقة أمرك فلا تري بدا من الاعتراف والاستعطاف ولكن هيهات، فإن من يأتي فعلتك لا علاج له غير القتل».

فكفكفت الدمع وتجلدت وهي جاثية وقالت: « إني لا أستعطفك لأجلي، ولا جريمة لي ولكنني أطلب حقاً لا أخالك تنكره علي».

قال: « وأي حق تعنين؟».

قالت: « تمهل يا أمير المؤمنين، ولا أقول يا أخي لئلا أغضبك، وتمهل وأنا أذكر لك ذلك الحق». فتجلد وقال: « قولي».

قالت: « ألم تعقد علي لجعفر عقداً شرعياً صحيحاً؟».

قال: « بلى، ولكنني فعلت ذلك لأجل أن ينظر أحدكما إلى الآخر وليس لما وراء ذلك».

قالت: « وهل يصح العقد هكذا؟. وهل من الخيانة أن تنفذ حكم الشرع؟».

قال: « لا تؤاربي فإنكما علمتما عند كتابة العقد أن المراد منه الاستمتاع بالنظر لا يتعداه وذلك لرغبتي في مجالستكما لأني أحبكما وأحب حديثكما، فهل هذا جزاء المحبة؟». وهز رأسه وحرق أسنانه.

قالت وفي صوتها لين: « يرى أمير المؤمنين إننا كنا قبل العقد خيرا منا معه؟».

فقطع كلامها وقال: « لا ريب في ذلك فبعد أن كنتما من أحب الناس إلي صرتما أبغض الأبالسة عندي».

قالت: « ولماذا؟ الأننا أتينا أمراً أحله الله وحرمته أنت؟. أليست طاعة الله أولى من طاعة أمير المؤمنين؟».

فلما رآها تكاد تفحمه اشتد غيظه ليس لأنه أدرك وجه الحق عندها. وليس لاتهامها إياه بأنه يتعمد أذيتها ظلماً وبهتانا، ولكن العادة غلبت على طباعه، فقد تعود ألا يسمع غير التأمين على ما يقول والتنفيذ لما يريد، حقا كان أو باطلا، شأن أصحاب السلطة المطلقة ولا سيما في تلك العصور، حيث يكثر المتملقون الذين يتزلفون إلى ولي الأمر بالإطراء والإغراء لا يبالون عواقب تغريرهم. فيستبد الحاكم فكراً وقولاً وفعلا حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه كأنه من طينة غير طينة البشر. فيبدو له أنه صاحب الحق دائماً. نعم، لا يلام الرشيد إذا أصر على تخطئة العباسة وتجاهل قوة حجتها، فعذره أنه شب على إنفاذ كلمته حتى صار الاستبداد

طبيعة له تتغلب على عقله وسداد رأيه ولا سيما في حال الغضب. فلما سمع حجة العباسة عمد إلى الاستعانة بسلطته الشخصية فقال: « ولكنني نهيتكما فعصيتماني ومن عصى أمير المؤمنين حق قتله! ».

قالت: « إذا لم يكن بد من أن تعد عملنا عصيانا، فأنا العاصية وليس هو.. ولا.. ».

فانتهرها وقال كأنه يتحفز للوثوب: « أراك تحبينه وتتحملين العبء عنه؟ ».

فهاجت أشجانها وقالت: « نعم أحبه. ولولا ذلك ما خالفت أمرك فيه. نعم أحبه وأراه أهلاً لمحبتي ومحبة من هو أعظم مني، لأنه من خاصة الناس. وقد أتى أعمالاً ترفع من قدره فوق أقرانه. وليس أرفع قدراً منه غير أمير المؤمنين وحده». قالت ذلك وقد عادت إليها الأنفة ولمعت عيناها واحمرت وجنتاها كأنها خجلت مما صرحت به على خلاف المأمول في نساء ذلك العصر ولا سيما في حضرة الخليفة.

فقال الرشيد: « ويحك أتعترفين بحبه في حضرتي، ثم تفضلينه على سائر الناس حتى بنى هاشم جميعا؟ أنك مهما رفعت في قدره فهو مولي أعجمي. لا تجادليني بالمحال فإنه مقتول! ».

فلما سمعته يهدد بقتله ارتعدت وعاد إليها ضعفها وهان عليها التذلل في سبيل إنقاذ حبيبها وولديها. فتجلدت وعمدت إلى الملاينة فقالت: «هرون.. أخي هرون!.. بل أمير المؤمنين، إذا كنت تنكر العباسة الآن فاذكر أنها كانت أختك وكنتما صغيرين تلعبان معاً وتتحابان. فاسمع لها وأقبل شفاعتها في الوزير، فإنه وزيرك ولم يقصر في خدمتك.. أتقتله وهو لم يرتكب ذنبا؟. وإذا لم يكن من قتله بد فاقتلني أنا. أنا المخطئة لا هو».

فقال وهو يضحك استخفافا: « وأنت أيضاً تقتلين. وسأقتل ولديكما لأمحو هذا الأمر من الوجود! ».

فلما سمعته يهدد بقتل الولدين اقشعر بدنها ونهضت وصاحت بصوت

مختنق: « تقتلهما؟.. ما ذنبهما؟ إنهما طفلان بريئان.. إنهما ملاكان لا يعرفان حلالا ولا حراما. بالله ألا أشفقت عليهما؟». ثم ضمت يدها إلى صدرها وقالت: « ولدّي... آه.. يا أمير المؤمنين.. رفقاً بذينك الطفلين».

قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها. فكاد يرق الرشيد لها وتتحرك فيه عاطفة الأخوة والأبوة ولكنه تمالك نفسه وعاد إلى ما كان فيه من الغضب والرغبة في الانتقام. ولا سيما أنه توهم أن وزيره إنما استولد العباسة ليكون في ولده دم هاشمي يخول له تقلد الخلافة وهي يومئذ مقصورة على القرشيين. فكان يسمع استعطاف أخته ويغالب عواطفه ولا سيما لما سمعها تدافع عن الولدين وهو يعلم براءتهما ولكن يرى بقاءهما خطراً عليه فأجابها بقوله: « أقتلهما لأخفي هذا العار من الوجود».

فعادت إلى التذلل رفقاً بالولدين فقالت وهي تبكي وتشهق: « اشفق يا أخي.. نعم يا أخي.. فإنك أخي.. تذكر الرحم.. وإذا كنت لا تزال تعد عملنا خيانة فاقتلنا كلينا واستبق ذينك الولدين فإنهما بريئان!».

فقال: « إنما يؤخذن بذنبكما ولا يمحو هذا الذنب غير القتل».

فلما رأت الاستعطاف لا يجدي عادت إليها أنفتها وعزة نفسها، فمسحت دموعها ونظرت إلى الرشيد نظرة كادت تخترق صدره وقالت: « ألا تزال تعد عملنا ذنباً ونحن إنما أطعنا أمر الله».

قال: « لا تحاولي محالاً فقد عصيتما أمير المؤمنين، فحق عليكما العقاب». ووقف كأنه يهم بالخروج فاستوقفته وقالت: «لقد أحرجتني يا هرون حتى ألجأتني إلى التصريح بما لم تتعود سماعه مني ولا من أحد سواي. كيف تحرم علينا أمراً تحله لنفسك؟».

فانتهرها ويده على قبضة خنجره قائلاً: « هل سعت بك التحة إلى أن تتهميني بمثل فعلتك؟».

قالت: « نعم أقول لك ذلك ولا أخاف لائما.. فما تحاسبنا عليه ليس

إلا زواجاً شرعياً أنت عقدته. ولكني أذكرك بمن في قصرك من الجواري والسراري فإنهن كثيرات لا ترى بأساً من التمتع بهن والشرع لا ينهاك عنهن. فكيف تنهاني عن زواج واحد شرعي. أليس ذلك من الظلم؟. ألا تتهادون الجواري بالعشرات والمئات؟ إن زوجك أم جعفر قد أهدتك عشر جوار من أجمل النساء، وقد فعلت ذلك وهي لا ترى فيه حطة ولا ذنباً لك أو لها، ولكنكما تريان ذنباً لمثلي أن تتزوج من رجل عقدت له عليها. فإذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل وهددت زوجها به أيضاً وزدت على ذلك قتل طفلين لا ذنب لهما، ولم تقبل فيهما شفاعة أم رضيت أن تقتلها وتبقيهما!».

فلما سمع قولها ورأى جرأتها لم يعد يطيق صبرا على رؤيتها فانتهرها قائلاً: «أراك تماديت في القحة وقد أخطأت إذ أفسحت لك مجال القول. وقد نفذ صبري وآن لي أن أفرغ منك». ثم نادى: «مسرور!».

فدخل ذلك الفرغاني غليظ القلب وحسامه إلى جانبه، فلما رأته استعاذت بالله من رؤيته وتحققت دنو منيتها، فالتفتت إلى الرشيد وقالت: «إني مقتولة الآن لا محالة، وليس من يدفع عني هذا القضاء، فإذا كنت لا تصدقني عن نفسي فإني أتقدم إليك أن تصدقني في جعفر فإنه لا يستحق القتل ولا ذنب له في شيء مما تتهمه به، وارفق بالطفلين». قالت ذلك وخنقتها الدموع.

أما الرشيد فصاح بمسرور: «هل أوصدت أبواب القصر وحبست أهله؟».

قال: «نعم يا مولاي».

قال: «وأين الخادمان والفعلة الذين أتيت بهم؟».

قال: «هم على مقربة منا. هل أدعوهم؟».

قال: «ادع الخادمين فقط».

فخرج ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقاً كبيراً. فلما رأت العباسة

ذلك تحققت أنها مقتولة، والتفتت إلى أخيها فرأته قد حول وجهه عنها وأشار إلى مسرور فهجم عليها بالسيف فقالت لأخيها: « أمصّر أنت على قتلي؟. ألا تخشى الله فيّ؟ أتقتلني لأني أطعت الله وعصيتك، ولكنكم معاشر الرجال تحلون لأنفسكم ما تحرمونه على نسائكم، أمن العدل أن يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني من أجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة نبيه. لا أبالي أن أموت ولقد لقيتك وناقشتك الحساب». ثم خفضت صوتها وقالت: « ولكنني أبالي أن ترتكب مثله مع زوجي العزيز وولدي الحبيبين». ثم ولت وجهها شطر طريق الحجاز حيث تظن إبنيها يقيمان وقد تعودت أن تستنشق رياحهما من تلك الجهة وقالت: « أستودعكما الله يا حسن ويا حسين». ثم حولت وجهها نحو الشماسية كأنها تهم بأن تناجي حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها والرشيد لا يلتفت، وود لو أنه لم يشهد قتلها لأنه كان يحبها كثيرا.

فلما سقطت ميتة أومأ مسرور إلى الخادمين فوضعاها في الصندوق، ثم جاء الفعلة وهم عشرة من الرجال الأشداء يحملون المعاول والزنابيل وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سوقهم فأمرهم أن يحفروا وسط المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال: « حسبكم هاتوا الصندوق». فأتوا به ودلوه في الحفرة ردوا التراب عليه». ففعلوا وسووا الموضع كما كان ثم أخرجهم وأغلق الباب، فأخذ الرشيد المفتاح وأسره أن يحرس القصر ولا يدع أحداً يخرج منه، وأن يقبض على أي إنسان يحاول دخوله. ثم قال له: « خذ هؤلاء وأعطهم أجرهم ووافني إلى القصر». ففهم مسرور أنه يأمره بقتلهم فأخذهم وجعلهم في جواليق بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في دجلة وعاد إلى قصر الخلد فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه، فلما أقبل سأله الرشيد: « هل فعلت ما أمرتك به؟».

قال: « وقد وفيت القوم أجورهم».

قال: « خذ هذا المفتاح ابقه معك حتى أسألك عنه». ودفع إليه مفتاح

المقصورة.

فتناوله وقال: «سمعاً وطاعة».

وكان الصبح قد اقترب فقال: «نحن في صباح الخميس وهو يوم موكب جعفر الوزير فلا تبعد عني». فأومأ مطيعا.

-١٥-

مصرع جعفر البرمكي

كان جعفر البرمكي في غفلة عما حدث، إذ كان يتهيأ للرحيل في الغد وقد قرر التعجيل به بعد ما جرى من الحديث بينه وبين إسماعيل. ولم يكن بد من وداع الخليفة قبل خروجه إلى خراسان كما جرت العادة عند خروج العمال إلى أعمالهم. وكان قد أعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال: «إننا مسافرون اليوم. ألا تعلم ذلك؟».

قال: «نعم يا مولاي. فهل أذهب إلى مولاتي العباسة فآتي بها أو نوافيك إلى النهروان؟».

فسر جعفر لسرعة خاطره وتيقظه في خدمته فابتسم وقال: «بل أرى أن توافياني إلى النهروان، فلا باعث على العجلة في الذهاب إليها. ويحسن أن تؤجل ذلك حتى أعود من وداع الخليفة».

قال: «الأمر لك يا سيدي».

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية، حتى أقبل على قصر الخلد فوسعوا له فدخل الأبهة والعظمة على عادته وهو يقول في نفسه: «هذه آخر مرة أدخل فيها هذه الأبواب لملاقاة رجل أداجيه ويداجيني، فمتى صرت إلى عملي في خراسان كنت بين أهلي وأعواني، ولا نظننا نلتقي بعد الآن إلا إذا جاءني الحرب!». وما عتم أن وصل إلى دار الخاصة فترجل.

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على مراتبهم فسلموا وانصرفوا حتى دخل جعفر وسلم فرد عليه الرشيد أحسن رد ورحب به وضحك في وجهه وأجلسه في مرتبته وكانت أقرب المراتب إليه وأخذ يحدثه ويلاطفه. وأتوه بكتب وردت من النواحي فقرأها على الرشيد وأمضاها. ثم نظر إليه وشكر له حسن احتفائه به وقال: « لقد غمرني أمير المؤمنين بنعمة، وأعلى مقامي حتى ولأني أكبر عمل من أعمال دولته فوجب علي شكره».

فابتسم الرشيد وقال: « إنك أخي فلو قسمت المملكة بيني وبينك لأنصفتك».

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الإطراء وتأدب في مجلسه وقال: « إني من موالي أمير المؤمنين، وكل ما يأتيني منه أنعام وتفضل علي مولاه». ثم قال: « وإن أقصاني أمير المؤمنين عن مجلسه فإني أبقى عبده أبذل دمي في طاعته».

قال: « بورك فيك. ولا شك إني سأفتقر إلى رأيك بعد أن توليت أمور الدولة وتركتني لا أهتم بشيء من أمر نفسي».

فلما سمع جعفر قوله تذكر أنها نفس العبارة التي قالها لإسماعيل بالأمس، فوخزه ضميره وخاف أن يكون كلامه قد بلغ الرشيد ولكنه استبعد أن ينقله إسماعيل، ولم يدر في خلده أن ذلك الغلام كتب به إليه. فشكر الرشيد وقال: « مهما يبذل العبد من خدمة مولاه فلا منة له ولا فضل».

ومكث ينتظر أمر الرشيد بالخروج إلى خراسان، لأن التأدب يقضي بأن يبدأ الخليفة بذلك. فلما لم يسمع منه شيئاً قال: « هل يأذن لي أمير المؤمنين في الانصراف». ولم يذكر خراسان لتحمل عبارته على أنه يستأذن في الانصراف إلى منزله.

فقال الرشيد: « هل تهيأت للسفر إلى عملك؟».

قال: « نعم يا مولاي».

قال: « وهل تنوي الذهاب اليوم؟».

قال: « إذا أمر أمير المؤمنين».

وكان الرشيد يريد تأخيره حتى يقر قراره على الفتك به فيكون قريبا منه لأنه كان حتى تلك الساعة مترددا في الأمر، لما يعلمه من قوة أحزاب البرامكة حتى بين بني هاشم أنفسهم إذا كان أكثرهم يحبونهم، فرأى أن اغتيال جعفر يقتضي الاحتياط وأعمال الفكرة وليس كالفتك بالعباسة. فقال له: « وهل استطلعت طالعك اليوم؟».

قال: « لا يا مولاي». وكانوا شديدي التمسك بالطوالع، ويعتقدون بالسعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات، ولم تكن منازل الكبراء تخلو من اسطرلاب لاستخراج الطالع. وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة آل إليه عن جده أبي جعفر المنصور الذي كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين. وكان الاسطرلاب موضوعاً على رف من الأبنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة. وكان له المام بهذه الصناعة، وجعفر أعلم منه بها فبادر الرشيد إلى الإسطرلاب وأمر الحاجب أن يأتيه ببعض المنجمين لأنهم من جملة أرباب الفنون المقيمين بقصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر فجاءوه بأحدهم.

فلما دخل المنجم قال له الرشيد: « كم مضى من النهار؟».

قال: « ثلاث ساعات ونصف ساعة».

قال: « خذ الارتفاع».

فأخذه فجعل الرشيد يحسب حسابه بنفسه، ونظر إلى نجمه. ثم التفت إلى جعفر وقال: « يا أخي هذه ساعة نحس أرى أنه سيحدث فيها حدث، فالأوفق أن تؤجل سفرك إلى الغد وهو يوم الجمعة، فتصلي وترحل في سعودك، وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق فإنه أصلح من اليوم».

فشق هذا التأجيل على جعفر وأخذ الطالع وحسبه لنفسه. وقد يكون رأي غير ما قاله الرشيد ولكن ليس من آداب مجالسة الخلفاء أن يراجعوهم

أو يخطئوهم.

فقال جعفر: «صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجماً أشد احتراقاً وأضيق مجرى في البروج مثل نجمي هذا اليوم. ورأى أمير المؤمنين على صواب».

ولبث ينتظر اشارة الصرف على عادة الخلفاء، فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه في داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفي كل مكان، غافلين عن حقيقة حاله وما يحدق بحياته من الخطر.

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يكاد يصدق أنه سيستقل بعمله في خراسان ويعيش آمنا بين أهله وأعوانه ومعه العباسة وأبناءها، وينجو من دسائس أهل البلاط وما يحدق به من الخطر.

فلما وصل إلى قصره بالشماسية بعث إلى حمدان، فلما أتى بخبره بتأجيل السفر إلى الغد، وأوصاه بأن يهتم بأمر العباسة فيبقى في الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضي إلى قصرها ومعه الركائب يحملها ومن شاءت نقله معها إلى النهروان، أو يسير بها إلى ما وراء ذلك لتكون في مأمن. وهو يعلم أنها تحب أن تصطحب عتبة وأرجوان. ثم خلع ثيابه وجلس.

***

كانت العباسة ساعة مجيء الرشيد إلى قصرها قد أمرت عتبة أن تبعث إلى جعفر لتخطره بما يهدده لعله ينجو بنفسه. فمضت إلى غرف الجواري والخدم لترسل أحدهم في هذه المهمة فرأت القصر محاطاً بالحراس ولا سبيل إلى الخروج، فعظم الأمر عليها وذهبت إلى غرفتها ترتعد خوفاً على سيدتها بعد ما شاهدته من مجيء الرشيد على تلك الصورة، وأخذت تفكر فيما دهمها من الأمر، وأيقنت أن سيدتها عرضة لشر عظيم، ولم تكن قد قتلت بعد. فلما علمت بقتلها بكت وندبتها وعلمت أن الخطر سيتطرق إليها

ولكنها احتقرت حياتها بعدها وأصبح همها أن تبلغ رسالة سيدتها إلى جعفر لأنها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة. فأعملت فكرتها في وسيلة تنذره بها فرأت السبل مقفلة في وجهها فزادت حيرتها وطلع الفجر وهي تطوف من غرفة إلى غرفة تبكي وتنتحب.

ثم رأت أن البكاء لا يجديها، وأن خير ما تفعله في تلك الساعة أن تسعى في الخروج من القصر فإذا خرجت نجت من القتل وأبلغت الخبر إلى جعفر، وفي نجاته تعزية لها على مصابها بسيدتها. وانتقل فكرها فجأة إلى أبي العتاهية لعلمها أنه سبب هذه المصائب كلها، فلعنته وتذكرت ما كان من حبه لها وكيف طلبها من الخليفة وأبت المجيء إليه فخيل إليها أنها إذا وفقت إلى مقابلته وإظهار حبها له فقد لا يعدم وسيلة لإخراجها من القصر لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم، فإذا خرجت سعت في الوصول إلى جعفر. وتذكرت حب أبي العتاهية للمال وهو كثير بين يديها، فرأت أنها إن لم تستعطفه بالحب تستطيع استخدامه بالمال، فارتاحت لذلك. ولكنها لم تكن تعلم مكان أبي العتاهية في تلك الساعة.

ثم خطر لها أن المال يذلل الصعاب ويلين أغلظ القلوب، فأخرجت عقداً من الجوهر كان في جملة ما جمعته من حلي مولاتها عند التأهب للسفر، وتنكرت بثوب غريب وتقنعت بخمارها ولبست خفها وخرجت تقصد إلى باب القصر. فلما بلغت الباب ووجدته مقفلاً قرعته ونادت البواب الذي كان عليه في عهد مولاتها فلم يجبها أحد، فقرعته ثانية ففتحت الخوخة وأطل منها رجل عرفت أنه حارس من جند الرشيد فقالت له: « أين البواب؟ ما بالكم أغلقتم علينا الأبواب؟».

فأغلق الخوخة وتحول وهو يقول: « ادخلي لا سبيل إلى الخروج».

قالت: « لماذا؟».

فصاح فيها: « ادخلي ولا تكثري الكلام فإن القصر مغلق بأمر أمير المؤمنين».

فدقت كفاً بكف وقالت: « ويلاه! . ما الذي جاء بي إلى هنا؟»

فأدرك الحارس أنها ليست من أهل القصر ففتح الخوخة ونظر إليها فرآها تبالغ بالتقنع وهي تقول: « بالله عليك افتح لي لأذهب في سبيلي فإني لم أجن ذنباً ولا أنا من أهل هذا القصر».

فقال: « وما شأنك؟».

قالت: « جئت أمس بمهمة إلى مولاتنا العباسة، وخيم الظلام قبل الفراغ منها فيت مع بعض الجواري وأنا مزمعة الآن الخروج إلى سيدي لئلا يستبطئني ويسيء الظن بي».

قال: « ومن هو سيدك؟».

قالت: « سيدي أبو العتاهية شاعر أمير المؤمنين».

فلما سمع اسمه استأنس به لشهرته، والشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء فقال: « وما الذي جئت به من قبله؟».

فأظهرت إنها تخاف التصريح بذلك وظلت ساكتة.

فقال الرجل: « ما بالك لا تجيبيني؟».

قالت: « جئت من قبله بمهمة إلى مولاتنا العباسة... و... و.. فافتح لي ولا تعيقني حرسك الله».

فلم يشك الحارس في أنها تقول الصدق فأراد العبث معها فقال: « أتيت بمهمة سرية، فامكثي في مكانك واحفظي سرك معك». قال ذلك وأغلق الخوخة.

فصاحت: « بالله افتح لي ولا تضايقني فقد كفاني تأخري الليلة الماضية، ولا آمن من شر أتوقعه بسببه فكيف إذا تأخرت اليوم أيضاً».

فعاد وفتح الخوخة وقال: « لا أفتح إلا إذا أخبرتني عن السر الذي جئت به».

قالت: « أتراك تعبث بي وقلبك مستريح وأنا قلقة، فإذا لم تصدق قولي فإني استشهد مولاتنا العباسة. ألا تصدقها؟».

فزاده تظاهرها بالسذاجة اعتقاداً بصدقها، ولكنه تذكر تشديد الرشيد فخاف أن يخرجها ويتحمل تبعة ذلك فقال: « هذا لا يعنيني فإني أمرت أن أمنع أهل هذا القصر من الخروج والسلام». وأراد إغلاق الخوخة فأمسكتها منه وحاولت فتحها وهي تقول: « إذا أخبرتك بسبب مجيئي هل تطلق سراحي؟».

قال: « ما ذلك؟ . . قولي».

فأجابته همساً بقولها: « أظنك تعلم أن أبا العتاهية كف عن نظم الشعر».

قال: « أعلم ذلك».

قالت: « وأظنك تعلم إنه يحب المال؟».

قال: « إنه مشهور بذلك».

قالت: « فإذا أراد مالا نظم القصائد سراً لبعض الأمراء، وقد نظم بالأمس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها إليها مساء أمس فأعطتني الجائزة وأكرمتني بالمبيت هنا. ليتها لم تفعل». وهزت رأسها.

فقال: « وما هي الجائزة؟».

فتظاهرت بالخوف من الإقرار وتوقفت عن الجواب فابتدرها قائلاً: «ألا تقولين؟».

فقالت بلهجة الخائف المستعطف: « هذه هي». ومدت يدها إلى جيبها فأخرجت العقد فأبرق بين أناملها كالشمس، فمد الحارس يده ليتناوله فأسرعت في إرجاعه إلى جيبها فقال: « ارينيه إياه».

فدفعته إليه وهي تظهر خوفها عليه. فتناوله وأخذ يقلبه ويعجب به وهو يقول: « إنه ثمين، ولكن هل تظنين إني أخرجك بهذا العقد وأنا لا أملك جوهرة من جواهره؟».

قالت وهي تتأفف: « يهمني الخروج والسلام».

فلما رآها تتلهف للخروج قال: « فإذا شئت الخروج فاخرجي وحدك».

قالت: « وماذا أقول لأبي العتاهية؟».

قال: « قولي له أن العباسة لم تعطك شيئاً ».

فسرها ذلك ولكنها أرادت سبك الحيلة عليه فقالت: « ولكنه لا يصدقني. وأرى أن أنصف بينكما فأعطيك نصف الجائزة وأحمل إليه نصفها ».

فرضي الحارس وبادر لساعته فقطع العقد وأخذ معظمه ودفع إليها الباقي وقال: « يكفيك هذا القدر.. فإذا أعجبتك القسمة فاخرجي وإلا فادخلي ».

فأطرقت لحظة ثم قالت: « بل أخرج وأحسب أنها لم تعطني شيئاً ».

فسر الحارس لفوزه بتلك الجواهر وفتح الباب وقال لها: « اخرجي، ولكن احذري أن تخبري أحداً بخروجك فإنك تقتلين لا محالة ».

فخرجت وهي لا تصدق أنها نجت وقلبها يكاد يطير فرحا بنجاتها من الأسر وأملا في نجاة جعفر، وكان الحارس أكثر مرحاً منها. وكانت الشمس قد أشرقت فأسرعت لا تلوي على شيء واكترت حماراً ركبته إلى قصر جعفر باب الشماسية.

تركنا جعفر في قصره وقد خلع ثيابه للراحة، ثم بدا له أن يجلس للصبوح، وهو مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحاً كأنما أراد أن يودع بغداد به. فأمر فأعدت المائدة وجاءوه بالشراب، وسأل عمن في داره من المغنين فقالوا: « أبو زكار الأعمى هنا ». فقال: « إلي به ». فدخل ونصبت الستارة، ودعا بعض جواريه المغنيات والعازفات. فأخذ أبو زكار يغني والجواري يصاحبنه ويعزفن على العيدان، وأخذ جعفر يشرب ويظن أن الناس غافلون عما بينه وبين الرشيد. وربما علموا من ذلك أكثر مما يعلمه هو ولا سيما المغنين فقد كانوا يطلعون على أسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الأنس التي يدور فيها الشراب، فإذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم والمغنون يتجاهلون ذلك ويسرونه خوفا على حياتهم. فالرشيد على تكتمه أمر جعفر لم يكن ليخفي سره على مغنيه

الموصلي حتى قيل أنه سأله مرة في بعض مجالسه: « بماذا يتحدث الناس؟ ». فأجابه: « يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة». فانتهره الرشيد وقال: « ما أنت وذاك؟ ويلك! ».

وكذلك أبو زكار الأعمى ، فإن عماه كان يجرئ جلاسه على التصريح بأكثر مما يصرحون به أمام سواه، فكان على بينة مما يحدق بجعفر من خطر، وربما أشار إلى ذلك في بعض غنائه فلا يلحظه غير العارفين. فلما دعاه إلى الغناء في ذلك اليوم غناه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لا بد يوما وإن بقيت تصير إلى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالي فديتك بالطريف وبالتلاد

فلما سمع الحضور قوله أدركوا مراده إلا جعفر. وما أتم أبو زكار غناءه حتى فتح الباب ودخل الحاجب. فقال له جعفر: « ما بالك؟»

قال: « إن مسروراً خادم أمير المؤمنين بالباب».

فلما سمع اسمه أجفل، لأنه كان يستغلظه ويستثقل روحه، لكنه لم يسعه إلا الإذن في إدخاله، فلما دخل قال له جعفر: « ما وراءك؟».

قال: « يا سيدي أحب أمير المؤمنين».

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال: « ويلك يا مسرور، أنا في هذه الساعة خرجت من عنده، فما الخبر؟».

قال: « وردت كتب من خراسان يريد أن تقرأها له».

فاطمأن قلب جعفر قليلاً فنهض وهو يقول في نفسه: « كنت أحسبها آخر مرة ألاقي فيها هذا الرجل ببغداد عندما اجتمعنا صباح اليوم، فإذا أنا ألقاه مرة أخرى فلا حول ولا قوة إلا بالله! ».

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وأمر أن تعد له الركائب وخرج وانفض المجلس.

وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف

بحيث يراه ويفهم أنه يريد أن يسر إليه أمراً فتحول جعفر إليه وسأله عن غرضه فقال: « إن عتبة جارية مولاتنا العباسة في دار النساء تطلب أن تراك».

فظنها جاءته من عند العباسة لتسأله عن السفر فقال: « قل لها إني عائد لساعتي».

قال: « إنها تطلب مقابلتك الآن»

فبدا له أن يراها ويسألها عن شأنها، ولكنه خشي أن يلحظ مسرور ذلك فيبلغه إلى الرشيد. فوقف هنيهة يتردد، ثم تذكر ريحان وأنه عالم بكل شؤون السفر فقال للحاجب: « دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده منه».

فأشار الحاجب مطيعاً، وخرج جعفر حتى أتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والغلمان، وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس، ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته، وحوله الفرسان من نخبة رجاله وأكثرهم من الفرس الذين يفدونه بأرواحهم فقطعوا الشماسية حتى أتوا الجسر فتخطوه وأقبلوا على الميدان أمام قصر الخلد. فلما وصلوا إلى باب القصر ترجل مسرور وأشار إلى فرسان الموكب أن يقفوا هناك، فوقفوا وهم في غفلة عن مراده، ثم دخل مسرور، ودخل جعفر والغلمان في ركابه دون أن يفطن إلى وقوف الفرسان خارج القصر، لاشتغال خاطره بأمر تلك الدعوة. ولما دخلوا أومأ مسرور إلى البوابين فأقفلوا الباب وكانوا على اتفاق على ذلك قبل ذهابه. ثم دخلوا الباب الثاني فاستبقى مسرور الغلمان خارجه، ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه. ولما دخل الباب الثالث التفت فإذا هو وحده ولم يبق معه أحد من رجاله، فندم على ركوبه في تلك الساعة، ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بأمر الرشيد وحولها أربعون غلاماً من السودان، فظن أن الرشيد ينتظره فيها فدخلها فلم يجد أحداً ورأى في أرضها سيفاً ونطعاً فأيقن بالهلاك ووقف وركبتاه ترتعدان، وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه وهو يعلم قسوة

مسرور، وأنه لو أراد مقاومته لا يقوى عليه. وهو على كل حال محصور في تلك الدار فعمد إلى الملاينة فقال لمسرور: « يا أخي ما الخبر؟ ».

فضحك مسرور مستخفاً وقال: « أنا الآن أخوك؟ وفي بيتك تقول لي ويلك.. أنت تدري القضية.. وما كان الله ليمهلك ولا يغفلك.. فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك إليه الساعة ».

فلما سمع قوله واقشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقك، ولعل الضعف طرأ عليه من الشراب. ولعل القارئ كان يتوقع أن يرى من جعفر الوزير ثباتاً ورباطة جأش في هذا الموقف شأن الرجل الكبير. ولكن الانغماس في الترف والمسكر يضعف القلوب ويحل العزيمة فلا صبر لصاحبهما على المكروه إذا وقع المحذور، وكان هذا شأن جعفر في ذلك الصباح. فلما سمع مسروراً يغلظ له القول ترامى على قدميه وأخذ يقبلهما ويقول: « يا أخي مسرور، أنت تعلم كرامتك عندي دون سائر الغلمان والحاشية، وإن حوائجك عندي مقضية في سائر الأوقات، وأنت تعرف موضعي من أمير المؤمنين وما يوجه إلي من الأسرار، فلعله بلغ عني باطلاً. وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن أقوم من موضعي هذا، وخلني أهم على وجهي ».

فقال مسرور: « لا سبيل إلى ذلك أبداً ».

قال: فاحملني إلى أمير المؤمنين وأوقفني بين يديه فلعله إذا وقع نظره علي تدركه الشفقة بي فيصفح عني ».

فهز مسرور رأسه وقال: « ما من سبيل إلى ذلك أبداً، وقد علمت ألا وسيلة إلى الحياة أبداً ».

قال: « فتوقف عني ساعة وارجع إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول، وعد فافعل ما تريد. فإن فعلت ذلك وسلمت، فإني أشهد الله وملائكتك إني أشاطرك نعمتي وما ملكته يداي، وأجعلك أمير الجيوش ».

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه إليها وخطر له أن الرشيد قد يكون أمر بالقتل في سورة غضبه فإذا سكن غضبه يندم ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الأموال ويتمتع بهذا المنصب، فأطرق، فلما رآه جعفر مطرقاً طمع في الحياة ولبث ينتظر ما يبدو منه، فإذا به يقول: « افعل هذا». ومد يده فحل سيفه ومنطقته وأخذهما ووكل به بعض الحراس الواقفين هناك وأوصاهم بحراسته وخرج.

فلما خلا جعفر إلى نفسه تلفت فلم ير غير النطع والسيف فاسترجع رشده وأدرك ألا مفر من الموت، لعلمه بالأسباب التي بعثت الرشيد على قتله. وبما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة، وأيقن أن الرشيد عالم بحاله مع العباسة، ثم تذكر مجيء عتبة العاجل فندم على جعلها تنتظر عودته، فقد تكون جاءت بتحذير أو تنبيه ينفعه لو اطلع عليه قبل خروجه، فاشتدت مصيبته وأصبح كأنه يرى الموت رأي العين، وهاجت أشجانه فتمثلت له العباسة كما فارقها للمرة الأخيرة عندما تواعدا على الفرار إلى خراسان، وتذكر ما كاد يظفر به من النجاة بها وبولديه لو سافر بالأمس أو لو كان كلم عتبة قبل خروجه. فضاق صدره وغلبه البكاء، وود لو يرى العباسة قبل موته ويقبل طفليه قبل هذا الفراق الأبدي. فأخذ يناجي نفسه قائلاً: «واحسرتاه عليك أيتها الحبيبة، بل والهفي على قبلة من ولدّي، قضيت العمر أتمنى ساعة ألاعبهما فيها كما يلاعب الأب أولاده فلما ظننتها قريبة إذا هي بعيدة عني بعد الأبدية. وأنت يا زوجتي بشرع الله - وإن ادعى أخوك العكس - لقد وقعت في الخطر لأجلي، وعرضت نفسك لغضب أخيك المستبد.. ماذا يكون حالك إذا عرف أخوك بأمرنا فإنه قاتلك لا محالة إذا لم يكن قد قتلك الآن. ترى هل جاءت عتبة تنعاك وتحذرني من القتل؟ ربما كان ذلك - وأنت جديرة بهذه المروءة.. قد عرفت تفانيك في سبيل حبي غير مرة. فإذا كنت قد قضيت نحبك قبلي، فأنا راغب في اللحاق بك. وإذا كنت على قيد الحياة فأنت لاحقة بي لا محالة لأن أخاك لم يبادر إلى

التعجيل بقتلي إلا وقد عرف سرنا. والله يعلم أننا إنما أطعنا الشرع والحب».

وسكت لحظة يكفكف دمعه ثم قال: « وولدانا؟ آه يا حسن ويا حسين! . أين أنتما الآن؟ هل تعلمان بما حل بوالديكما على يد خالكما المستبد القاسي القلب؟». قال ذلك وغص بريقه وأحس باختناق صوته، وإذا بالباب يفتح فأجفل وانتبه لنفسه فسكت وبصره شاخص إلى الباب فدخل مسرور ووجهه مقطب، فعلم أنه لم ينجح في مهمته وهم بأن يسأله فسمعه يقول: « ذهبت إلى أمير المؤمنين، فلما رآني سألني عنك فقلت له قد أنفذت أمرك فيه». فقال: « ائتني برأسه حالاً».

فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال: « افعل ما بدا لك، ولكنني اسألك سؤالاً واحداً أصدقني فيه وأنا على آخر لحظة من لحظات الحياة».

قال: « وما ذلك؟».

قال: « ماذا جرى للعباسة؟ قل الصدق ولا تخف وشاية فإن سامعك مقتول».

قال: « قتلت».

فصاح: « قتلت؟! اذن عجل بقتلي. لا أرب لي في الحياة».

ولم يتم كلامه حتى ضرب مسرور عنقه بالسيف فأطار رأسه، ثم حمله وهو يشخب دماً وذهب به إلى الرشيد.

كان الرشيد قد أمر مسروراً بأن يفعل ما فعله ودبر الحيلة لإدخال جعفر قصر الخلد منفرداً إلى القبة التركية. وكان قد أمره ببنائها صباح ذلك اليوم على أثر خروج جعفر من دار الخاصة. وذلك أن الرشيد ظل بعد خروجه يخطر في تلك الدار ذهاباً وإياباً ويعمل فكرته قبل الإقدام على ذلك الأمر العظيم، متردداً بين التعجيل والتأني لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون أرواحهم في سبيل نصرتهم. ولكنه أصبح بعد توالي قلقه وطول سهره لا يذوق طعاماً ولا شرابا ولا يزداد إلا نقمة وغضباً وخشي إذا أجل

قتل جعفر أن يعلم هذا بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع وربما انقلب الأمر إلى عكس المراد. وكان الرشيد يحب جعفراً حباً شديداً فقد ربيا معاً وعاشره على غير كلفة كأنه أخوه، فكان الرشيد إذا بدا جانب الرفق به، عاد فغضب لسلطانه ولعرضه وأصر على قتله.

وقضى في ذلك حيناً وهو يتمشي وحده في الدار مستغرقاً في الأفكار، حتى نسي نفسه. ولو دخل عليه أحد في تلك الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطئ أخرى بين إطراق وتصويب، يحك ذقنه أو يشير بأنامله تهديداً ووعيداً أو استمهالاً وترددا، ولا ينتبه لشيء مما يكسو جدران القاعة من الستائر المطرزة أو الطنافس الموشاة كأنه لا يرى من الألوان غير السواد. وربما وقف لحظة أمام ستارة ليقرأ ما عليها من الأشعار أو ينظر فيها يكسوها من الأشكال، وقد يقرأ البيت أو الفقرة فلا يفقه لهما معنى لاستغراقه في الهواجس. فاتفق أنه وقف أمام أسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزتا عزيمته وقضيا بإمضاء أمره وهما:

ليت هند أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحـــدة إنما العاجز من لا يستبد

وكان مترددا بين الإقدام والإحجام، فما فرغ من تلاوة هذين البيتين حتى رجح عنده الإقدام فصمم على الفتك فصاح: «مسرور». فدخل بأسرع من لمح البصر فأوصاه بما يعمله على نحو ما تقدم، ومكث في القاعة ينتظر رجوعه على أحر من الجمر حتى جاءه بالحيلة التي احتالها جعفر على مسرور لعله يصفح فرده واستعجله القتل، فرجع وضرب عنقه وحمل إليه رأسه وهو قابض على لحيته، فتدلى الرأس مقلوباً والدم يشخب من أوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره.

دخل مسرور بالرأس والرشيد جالس على السرير، فطرحه على وسادة بين يديه، وانتحى مكاناً في بعض جوانب الدار، فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس أحس بزوال الخطر، ولكنه لم يستطع كتمان الأسف فامتقع لونه

وجاشت عواطفه وتذكر سابق الود بينهما. فنظر إلى الرأس هنيهة وبيده قضيب من الأبنوس المطعم بالعاج، فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلاً: « يا جعفر، ألم أحلك محل نفسي؟.. يا جعفر ما كافأتني ولا عرفت حقي، ولا حفظت عهدي ولا ذكرت نعمتي، ولا نظرت في عواقب الأمور، ولا تفكرت في صروف الدهر، ولا حسبت لتقلبات الأيام واختلاف أحوالها حسابا. يا جعفر خنتني في أهلي وفضحتني بين العرب والعجم. يا جعفر أسأت إلي وإلى نفسك، وما تفكرت في عاقبة أمرك». وكان يقول ذلك وينكت البساط بالقضيب أو ينقر به أسنان جعفر، ومسرور واقف يسمع ويرى، ولو كان له قلب لانفطر ولكنه كان فظاً غليظ القلب.

وبينما الرشيد يخاطب جعفر بمثل ما تقدم ويعاتبه، ومسرور لا يجسر على حركة أو قول، إذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعا وقائلا يقول: « السلام عليك يا أمير المؤمنين أأدخل؟».

فأجفل الرشيد لأنه عرف صوت إسماعيل بن يحيى، فأشار إلى مسرور أن يأخذ الرأس ويمضي ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة. ولم ينتظر إسماعيل جواب الرشيد فدخل.

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره إلى الباب حتى رأى إسماعيل داخلاً والدهشة بادية في وجهه وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ولا سرح لحيته أو أصلح من شأنه كما ينبغي عند مقابلة الخليفة.

فلما رآه الرشيد داخلاً تجلد ورد التحية وأشار إليه أن يجلس.

فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو يلهث، فنهض الرشيد ومشى إليه وحاول الابتسام ترحيبا به، ولكن التأثر غلب على تجلده وكظمه.

أما إسماعيل فلما رأى الرشيد واقفاً وقف تأدبا فأمره بالجلوس وجلس إلى جانبه وقد أدرك أن إسماعيل إنما جاءه في هذه الساعة لأمر ذي بال، فعجل بسؤاله عن غرضه فقال إسماعيل: « جئتك شفيعا يا أمير المؤمنين،

وإن أبيت فمستمهلاً أمرك».

فأدرك الرشيد أنه جاءه يشفع لجعفر، واستغرب علمه بأمره على شدة تحوطه على الكتمان. وإنما عرف إسماعيل ذلك من ريحان غلام جعفر عندما جاءت عتبة بالخبر في الصباح، فلما لم يتسن لها رؤية جعفر قصت الخبر على ريحان، وكان الموكب قد سار فلم يجسر أن يتبعه لئلا يشتبه مسرور في أمره، فوقع في حيرة، ثم اتفق مع عتبة على الذهاب إلى إسماعيل لما يعرفانه من صداقته لجعفر، فأسرع ريحان إلى قصره فوجده جالساً في الحديقة فأخبره بما جرى، فسارع إلى لبس ثيابه وجاء إلى قصر الخلد، فمنعه الحراس من الدخول في بادئ الرأي ثم أذنوا له فدخل وهو لا يعلم بقتل جعفر، ولم يخطر له تعجل الرشيد إلى هذا الحد. فسأل عن الرشيد فقيل له إنه وحده في دار الخاصة فجاء ودخل على ما تقدم.

فلما سمع الرشيد قوله ولحظ أنه يشفع عنده في جعفر تجاهل وقال: «إن شفاعتك مقبولة، وأمرك نافذ».

فاستبشر إسماعيل وقال: « أطال الله بقاء أمير المؤمنين، لقد جئت لأشفع عندك في وزيرك جعفر».

فهز الرشيد رأسه وقال: « جئت متأخراً يا ابن العم فقد نفذ القضاء».

فأجفل إسماعيل وتراجع وقال: « قتلت جعفراً؟!».

قال: « قتله غدره!».

قال: « قتلته يا أمير المؤمنين؟ قتلت وزيرك وصاحب خاتمك وسلطان دولتك؟».

قال: « لا أطيل عليك القول يا إسماعيل. إن وزيري هذا قتلته خيانته، ولو عرفت ذنبه وأنت هاشمي لسبقتني إلى قتله».

فحسبه يشير إلى ما يتهمونه به من حب الشيعة العلوية بإطلاقه سراح ذلك العلوي، وكانا قد تباحثا في ذلك من عهد غير بعيد. وكان إسماعيل يرى أنه لا يستحق القتل لعلمه بسعي أعدائه ووشايتهم به فقال: « ألم يكن

أمير المؤمنين قد عزم على إبعاده إلى خراسان ليرى بعدئذ رأيه فيه».

قال: « كنت عزمت على ذلك، ثم رأيت في بقائه تحت عيننا صيانة للملك وتسهيل في نيل مرادنا، لأنه إذا سار إلى خراسان كان في أهله وأحزابه، وأهل خراسان لا يزالون ناقمين علينا منذ قتل جدي المنصور أميرهم أبا مسلم. نعم إنهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا. فمن سداد الرأي أن نتدارك الخطر الخطر قبل وقوعه».

فقال: « رأي أمير المؤمنين أصوب. . ولكن حساد جعفر كثيرون، وقد وشوا به وكثروا ذنوبه وبالغوا في الطعن عليه، وأمير المؤمنين لحرصه على إبقاء الخلافة في بني هاشم عجل بقتله، وربما كان اسبقاؤه انفع للدولة، ولكن قضي الأمر».

فلما سمع الرشيد تعريض إسماعيل بالواشين، أراد أن يسترق منه أخبارهم لينتقم منهم أو يجتنب أذيتهم فقال: « وهل أنت على يقين من ذلك؟ . . ومن هم الواشون؟».

فهم إسماعيل بأن يطلعه على ما يعلمه من سعي ابن الهادي والفضل ابن الربيع وغيرهما، ولكنه أمسك لسانه وأعمل فكرته فرأى في التصريح توسيعا للخرق وضعضة للدولة وارتباكا، وهو الحريص على صيانتها. فلو كان جعفر حياً لكان الخطر من التصريح قليلاً. أما وقد قتل فأصبح ذكر الواشين والإقرار بأقوالهم وأعمالهم وشاية أخرى، فندم على ما بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال: « إذا كنت قد قتلت جعفرا فإنها إحدى المصيبتين، فإذا ذكرت لك غيره دفعت بالدولة إلى مصيبة أخرى. فليعفني أمير المؤمنين من ذلك، وهو يعلم رغبتي في سلامة هذه الدولة، وقد عصيتني فيما أردته من تبرئة جعفر فلا تكلفني الوشاية بآخرين. ولو كان في ذلك نفع ما كتمته. فأطعني في هذا واعلم إني انما أكتمه لخير بني هاشم، كما كان تصريحي ببراءة جعفر لهذا السبب نفسه. وأتقدم إلى الرشيد ألا يعد آبائي هذا معصية. وإذا عده كذلك فله أن ينتقم. إني لا أبخل بروحي في

سبيل هذا الكتمان».

وكان الرشيد يجل إسماعيل ويعتقد إخلاصه وصدق نيته ويضن بحياته فقال: «إن حياتك عزيزة علينا يا عماه، وحاشا لله أن نسيء الظن بك. وهب أنك عصيتنا فإنما تعصانا لتنفعنا. وأما جعفر فلو كان ذنبه مقصورا على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا فيما مضى، لأن إنحيازه للشيعة لم يكن جديداً علينا. ولكنه ارتكب ما هو أفظع من ذلك كثيرا، ارتكب ما لو علمته لسبقتني إلى قتله. لا تسألني عما ارتكبه فإني حريص على كتمانه ولو علمت أن يميني علمت به لقطعتها». قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض أسرته وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته ثم هز رأسه وقال: «آه. أو أستطيع قتله مرة أخرى!».

فتهيب إسماعيل غضب الرشيد ولم يفت الأمر الذي سمعه يلمح إليه، فإن خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه، فتجاهل ولو رأى مجالاً للكلام لما تكلم لئلا يجر الكلام إلى الجدال بلا فائدة، لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكتاً.

ثم سمعا الأذان لصلاة الظهر، فنهض الرشيد ونهض إسماعيل واستأذن بالخروج.

-١٦-

الحسن والحسين

أما الرشيد فأمر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في المسجد، فصلى بالناس جماعة ورجع إلى داره فأنفذ بعض خاصته للقبض على أبي جعفر وعلى أخيه وجميع أولاده، وأباح قصورهم ودورهم واستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم إلا ريحان وعتبة فإنهما فضلا اللحاق بجعفر فقاوما بعض اللذين جاءوا للنهب فقتلوهما، ووجه الرشيد مسروراً إلى معسكر جعفر في النهروان فأخذ جميع

ما فيه من مضارب وسلاح وخيام وغير ذلك.

وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم ألف إنسان وترك من بقي منهم لا يرجع إلي وطنه، وحبس يحيى بن خالد أبا جعفر، والفضل بن يحيى أخاه، وأمر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد.

فلما ارتاح باله من هذا القبيل ذهب إلى زبيدة امرأته وأخبرها بما كان فاستحسنته، ولكنها تذكرت الصبيين فقالت: «لقد فعلت فعل أهل الحزم وأنقذت الخلافة من الأعداء، ولكن ما الذي فعلته بالصبيين؟».

فأطرق وأعمل فكرته فابتدرته قائلة: إذا أردت محو العار الذي لحقنا فبادر إلى إزالة أثره لأن بقاء الصبيين وصمة باقية».

فقال: «وهل تعلمين مقرهما».

قالت: «إذا شئت دللت خادمك على مكانهما».

فقال: «أخبري مسروراً بذلك».

فدلته على مخبئهما ومضى الرشيد إلى قصره وجلس ينتظر مجيئهما.

وكان الفضل بن الربيع قد خبأ الغلامين على يد أبي العتاهية في بيت على شاطئ دجلة وأوقف عليهما الحراس، فذهب مسرور إليهما وحملهما إلى قصر الخلد، بعد أن قتل رياشا وبرة الخادمين القائمين على تربيتهما.

فلما جاء مسرور بالغلامين أدخلهما على الرشيد، وكان جالساً على وسادة وحده. فدخل الغلامان يدرجان ويضحكان ووجهاهما يطفحان سروراً وسذاجة وطهارة، يحسبان الرجل جاء بهما إلى مهرجان أو وليمة، فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه أسفا على ما سينالهما من الأذى لعلمه أنهما بريئان طاهران. ولكنه كان قد صمم على محو أثر الجناية من الوجود، فتجلد ودعاهما إليه فأسرعا إليه وترامیا عليه وهما يلتفتان لمشاهدة ما في القاعة من الرياض الفاخر والألوان الزاهية.

فسأل الرشيد أكبرهما: «ما اسمك يا قرة عيني؟».

قال: «الحسن».

فقال للصغير: «وما اسمك يا حبيبي؟».

فقال: «الحسين».

فأعجب الرشيد بمنطقهما وفصاحتهما الهاشمية، ثم أعمل فكرته فيما هو مقدم عليه من الأمر الخطير، وهو أب محب لأولاده - وزد على ذلك أن في الغلامين دما هاشمياً والقرابة من أسباب الانعطاف، فعظم الأمر على الرشيد ولبث حينا يفكر والغلامان يلاعبانه ويعبثان بلحيته وطوقه، حتى كاد الحنو يغلب عليه. ولكنه عاد إلى تذكر ما هو فيه وخاف غلبه الضعف عليه فاعتزم قتلهما على ألا يرى ذلك بعينيه ولا يسمعه بأذنه. فتصادمت عواطفه وجاشت أشجانه فغلب عليه البكاء وأغرق فيه حتى منعه من الكلام والغلامان يعجبان لبكائه. أما هو فنظر إليهما والدمع يترقرق في عينيه وقال: «يعز علي حسنكما وجمالكما... لا رحم الله من ظلكما». ثم قال: «يا مسرور أين المفتاح الذي دفعته إليك. وأمرتك بحفظه؟».

قال: «عندي يا أمير المؤمنين».

قال: «فأتني به».

ثم دعا بجماعة من الغلمان وأمرهم أن يذهبوا مع مسرور إلى تلك الحجرة ويحفروا فيها حفرة عميقة وأومأ إلى مسرور أن يقتل الغلامين ويدفنهما فيها. قال ذلك وهو يبكي بكاء شديد حتى ظن مسرور أنه رحمهما ولا يلبث أن يعدل عن قتلهما، ولكنه مسح عينيه ونهض وأشار إلى مسرور أن يمشي، فأطاعه ومضى بهما إلى تلك الحجرة، ثم عاد وأخبر الرشيد بأنه قتلهما ودفنهما هناك، وقتل الرجال الذين ساعدوه في ذلك.

وأمر الرشيد ألا يذكر البرامكة في مجلس، ولا يستعان بمن بقي منهم في شيء أبداً. فخرجوا على وجوههم هائمين في البلاد، وأصبح الناس يتمثلون بنكبتهم مثل تمثلهم بثروتهم وسخائهم. وخلا الجو لأعدائهم فنالوا ما تمنوه من التنكيل بهم، وتولوا أمور الدولة بعدهم، ولا سيما الفضل بن الربيع فإنه تقلد الوزارة وصار إليه الحل والعقد.